شعبي سيحيا

ليالي خالد شعبي سيحيا

مذكرات خاطفة الطائرات

كتبها كما روتها له

جورج حجار

دار النهار للنشر

الى برتراند ، وبوني ، وصوفي
وجميع ابناء الارض

جميع الحقوق محفوظة
دار النهار للنشر
بيروت ١٩٧٣

المحتويات

مقدمة ١١
ملاحظة تمهيدية ١٤
مدخل ١٥
القسم الاول
سمة العار ــ الحرمان والاكتشاف ١٩
١ ــ الدرج ٢١
٢ ــ التربية والثورة ٣٩
٣ ــ اللجوء الى الكويت ٦٤
القسم الثاني
اعلان انسانية جديدة : المقاومة والثورة ٩١
٤ ــ الطريق الى حيفا ٩٣
٥ ــ فلسطين في اميركا ١١٤
٦ ــ اميركا في الاردن ١٤٠
٧ ــ نتكلم باسم انسانية ضائعة ١٥٨
القسم الثالث
الخاتمة ١٨١
٨ ــ المدّ الفاشستي والثورة العربية ١٨٣

لا يكفي البغض والايمان بالماضي لنصنع ثورة . فالبغض والايمان بالماضي حافزان كافيان لمرحلة التمرد . يجب ان نحب وان نكون مستقبليين اذا اردنا ان نحقق الثورة .

غسان كنفاني

مقدمة

لعله يجب ان ابدأ هذه المقدمة بالقول ان ليلى خالد لم تطلب مني ان اكتبها . وانا لا علم لي بمكان وجودها . وهي ، في الغالب ، لا تعلم اني اكتبها . بل انها في الكتاب تعبر عن رأي لا تقدير فيه لشخصي .

هذا الكتاب ممتع جداً لاسباب عديدة . فاسلوبه في منتهى البساطة . وهو أمر طريف في كتاب عن فلسطين ، هذا الموضوع الذي وضعت عنه ما لا يحصى من المؤلفات . وهي كلها ، على وجه العموم ، متحيزة ، حتى لا اقول دعائية محض . ففي معظمها انصاف حقائق ، وتشويه للوقائع ، وكلام لا يقصد من ورائه الا الخداع والتضليل . ولا أقول ان ليلى الخالد متحيزة ، الا ان موقفها واضح . فالاسرائيليون اغتصبوا بلادها وطردوا شعبها ، وهي عازمة على تمكينهم من العودة .

ومن صفات اسلوبها في هذا الكتاب انها تسرد الوقائع البسيطة دون ما تعليق . ها بيت عائلتها في حيفا يقتحمه اليهود ويحملون اثاثه ويطردون والدها الى مصر . وفي ضوء مثل هذا السرد البسيط ، يبدو عبثاً كل زعم بأن الفلسطينيين تركوا بيوتهم وممتلكاتهم طوعاً ليصبحوا لاجئين لا يملكون شيئاً . وفي ضوئه ايضاً ، حيث لا نبرة عاطفية ولا تعليق ، كلامها العابر على النساء العربيات يغتصبهن الجنود الاسرائيليون ، وعلى المساجين العرب يسومهم البوليس الاسرائيلي صنوف التعذيب .

لكنها ، فيما تسرد تجاربها سرداً واقعياً بسيطاً ، تُعرب عن آرائها السياسية على نحو يعكس المواقف المبسطة التي تأخذ بها الاحزاب اليسارية الفلسطينية المتطرفة . فمن فرط ما عاناه الفلسطينيون من الوحشية والظلم ، لا عجب إن أصابتهم عقدة الاضطهاد . على ان هذا العامل يجعل من العسير على من يعطفون عليهم مساعدتهم . ذلك لأن كل

محاولاتهم في هذا السبيل توهم بالخيانة والخداع . وليلى خالد ، اسوة بالثوريين الشباب ، تقسم العالم قسمين : اشرار وابرار . وتحظى الولايات المتحدة الاميركية بالنصيب الاوفر من النقمة ، فتصفها على انها « شعب من السفاحين ومصاصي الدماء » .

ولعل اكثر العبر وضوحاً في هذا الكتاب ان العنف يولّد العنف . فالنازيون عاملوا اليهود بالعنف ، وبالعنف عامل اليهود الفلسطينيين . والفلسطينيون يرون في العنف وسيلتهم الوحيدة الى استعادة بلادهم وحريتهم . وفي العشرين من العمر ، كتبت ليلى خالد تقول : « المقاومة المسلحة هي طريق الخلاص . وكان عليّ ، كفلسطينية ، ان اؤمن بأن البندقية تجسّد انسانيتي وعزمي على تحرير نفسي وبني قومي » . وهي تتهم بالخيانة والفاشية والرجعية كل فلسطيني يعارض استخدام العنف ، وتهيب بالفلاحين والعمال ان ينهضوا في وجه هؤلاء .

هذا الهدف المزدوج : تحرير فلسطين ، وفي الوقت نفسه القضاء على « الرجعيين » العرب ، جعل القيام بعمل موحد أمراً مستحيلاً . وغني عن القول ان العدو الذي انصبت عليه نقمة ليلى ورفاقها ، اكثر ما يكون ، هو الاردن . فلو تمكّن الفلسطينيون من الاتحاد لتحرير بلادهم ، بصرف النظر عن الايديولوجيات ، لربما اختلفت النتيجة .

على ان هذه الفتاة التي كلها تصميم وارادة لم تدع رفاقها الى سحق الاسرائيليين والقائهم في البحر ، بل الشروع ، بعد النصر ، الى بناء دولة ديمقراطية يتعايش فيها الفلسطينيون واليهود على قدم المساواة . ذلك لأنها لن توافق ، كما تقول ، على حل يستأثر فيه عنصر واحد بجميع السلطات ، ولا يكون للآخر الا حق الخضوع . غير ان الحل الذي تحلم به هي لا يتحقق . ذلك لأن اساس الصهيونية هو رغبتها في ان يكون لليهود وطن خاص بهم لا يشاركهم فيه احد .

وكم تضعف نقمتنا ، بعض الشيء ، على خاطفي الطائرات كجماعة من القتلة المجرمين ، حين نقرأ في هذا الكتاب ان هذه الفتاة التي اشتهرت بخطف طائرة بكت عندما سمعت بمقتل جون كنيدي . وهي

تصرّ على موقفها ، وهو ان لا يسفر اختطاف الطائرات عن خسارة في الارواح ، وخصوصاً عن الحاق اي اذى بالاطفال . والحق ان احداً لم يصب بضرر في عمليات الاختطاف ، باستثناء رفاقها . فالغاية ، كما تقول ، هي لفت العالم الى ان الفلسطينيين ما يزالون أحياء ويجب اخذهم في الحساب .

ولا بد من القول ان وصف المؤلفة لمغامراتها وصف مثير ونابض بالحياة . وقلما تسنح لنا فرصة الاستماع الى هذه المغامرات يسردها ابطالها لا ضحاياها .

ومن اقوال شكسبير في « روميو وجولييت » : « يهزأ بالخدوش من لم يشعر بجرح » . ونحن الذين لم نكن ضحايا الغزو الاجنبي ، وما نزال نسكن بيوتنا ، يسهل علينا ان نندد أشد التنديد بجرائم الفلسطينيين المطرودين من وطنهم وبيوتهم .

جون باغوت غلوب

ملاحظة تمهيدية

في ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ التقيت ليلى خالد للمرة الاولى . كان لقاء قصيراً ، لم يتح لي فيه الا ان اسألها ماذا كانت تعمل في ذلك الحين . أجابت بفخر : « انا جندي فلسطيني عربي » . وكانت قرأت عن نشاطي في اميركا الشمالية ، فسألتني بدورها ، ماذا كنت انا اعمل . فأجبتها : « ارسم اجنحة الحرية على اغلالي ! » . ثم التقينا مرة ثانية في كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ ، فسألتها اذا كانت تريد ان تنظر في أمر كتابة مذكراتها بالاشتراك معي . فقالت ضاحكة : « اية مذكرات ؟ » وألححت عليها بالقول ان كثيراً من الناس يهمهم الاطلاع على ما عانته من تجربة وخبرة . فوعدتني بالتفكير في هذا الموضوع . وفي ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٧١ ، تحدثنا أكثر من ثلاثين ساعة في خمسة ايام . ثم جمعنا ما روته لي وراجعنا ما نشر وما لم ينشر عنها . وفي ايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (اكتوبر) من العام نفسه ، وضعت هذا الكتاب استناداً الى ما روته لي ليلى خالد .

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ — جورج حجار
جامعة ووترلو ، كندا

مدخل

نزوح الفلسطينيين القسري عن ديار آبائهم وأجدادهم حدث لا مثيل له في العصر الحديث . ورغم مرور ربع قرن على هذا الحدث ، بقيت معظم الوقائع طيّ الكتمان . والصورة التي انطبعت في اذهان الناس ، خصوصاً في العالم الخارجي ، هي تلك التي رسمتها البيانات السياسية والعسكرية الجوفاء ، سواء من جانب الدول العربية أو من جانب الاسرائيليين الصهاينة والمنظمة الصهيونية العالمية . أما الفلسطينيون ، فقلما اتيحت لهم فرصة الكلام على شؤونهم . وكيف لا يكون ذلك ، والذين نصبوا انفسهم وصاة عليهم ووسطاء اكثر مما يحصرهم عد .

وهكذا عقد ابناء جيلي ، ومنهم ليلى خالد والجبهة الشعبية ، ان يأخذوا حقهم في الكلام بصوت عربي ثوري صادق ، يُسمع صداه في السنوات التي ستجيء . انه الصوت التي تأمل قوى الرجعية والظلام ، عربية كانت ام اسرائيلية ام امبريالية ، في ان تسكته الى الابد .

ومن هم المسؤولون عن اضطهاد الشعب الفلسطيني وتشريده واستئصال جذوره ؟ انهم خريجو معتقلات اوشويتز ، و« الرواد » عبدة الاساطير من بناة الدولة الصهيونية . جاؤوا واوروبا موطنهم ، لا بالتكنولوجيا الاوروبية والاميركية وحسب ، بل بما درج عليه الغرب من احتقار لأهل البلاد الاصليين . وهؤلاء ، مع اليهود الفلسطينيين المولدين ، يقبضون على زمام الحكم ، والجيش ، واتحاد العمال ، وكل مؤسسة اجتماعية — اقتصادية في اسرائيل .

وهذا الموقف الذي تقفه الطبقة الحاكمة ازاء تفوقها التكنولوجي والثقافي تزيد في توطيد دعائمه عقلية تقتات بفتات تكالب على العظمة افتعلته لنفسها افتعالا . فالرعب ، في نظرها ، زوبعة توشك ان يطلقها

من عقالها فرسان الجهاد العربي المقدس على صهيون البائسة ، المحاطة من كل جانب ، المسالمة التي لا حول لها ولا طول . وهذا التظاهر بالمسكنة كان وما يزال سلاح الصهيونية العالمية في سعيها الى ابتزاز العون المالي من يهود العالم واحراره المغلوبين على امرهم بعقدة الذنب . وكم تسنى لها ، وهي خادم الامبريالية الامين ، ان تخدع الرأي العام وتكسب الى جانبها حكومات الغرب لانها تعرف كيف تخاطب هذا الغرب .

وها ان نصف قرن أو اكثر ينقضي منذ بدأ العمل البربري المنظم على محو الشعب الفلسطيني من عالم الوجود . وليلى خالد ، أما مرّ ربع قرن على طردها من وطنها ، في ١٩٤٨ ، وهي في الرابعة من العمر ؟ وبيتها في حيفا ، ألا يحتله اليوم صهيونيون اوروبيون يزعمون بأن لهم ، لا لها ولأهلها ، الحق فيه ؟ وماذا جرى لليلى خالد هذه ؟ صارت « لاجئة » بين مئات آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين شردهم الصهاينة من بلادهم ليحتل مكانهم اولئك الذين وقعوا ضحايا البربرية الاوروبية . واذا كانت ليلى بين الذين حالفهم الحظ ، فسكنت مع اهلها في غرفة واحدة عوضاً عن ان تسكن معهم في احد المخيمات ، فهي تظل تعرف بالخبرة الشخصية ما معنى ان يكون الانسان من اللاجئين . وها هي اليوم ثورية ولا شيء آخر ، تكتشف يوماً بعد يوم وجودها الفلسطيني بمعناه الكنعاني الاصيل : بطل ، ومحارب ، وناكر ذات .

ولليلى اليوم مهمة فرضها التاريخ ، ودور لا حيلة لها فيه . وهي للشعب الفلسطيني والعربي رمز انطلاقة المرأة وتحررها ، والمناضلة الوطنية الامينة التي ، مع الجبهة الشعبية ، ستقضي على الطغيان والاستغلال في الوطن العربي . وهي لانصار الثورة في كل مكان ، ذلك الامل المستعاد ، والروح الانسانية المنبعثة ، والكرامة التي وجدت بعد ضياع .

هذا الكتاب أبعد من ان يكون وثيقة تاريخية ، او دراسة علمية في موضوع الصراع العربي — الصهيوني — الامبريالي المعقد ، في ربع القرن الاخير . انه ، بالاحرى ، صورة شخصية لثائرة فلسطينية عاشت في تلك الحقبة كطفل من اطفال الثورة ، وكمشارك فيها ومراقب لها .

ويبقى على الثوريين وعشاق الثورة ان يكتبوا عن ذلك الصراع . وليلى خالد ثورية وذات نزعة انسانية . وهذه حكايتها ، وحكاية شعبها ونضاله في سبيل الحرية .

جورج حجار

القسم الأوّل

سمة العار - الحرمان والاكتشاف

١ — الدرج

تقدموا فقراء الارض غطوا الزمان
بأسمال ودمع ، غطوه بالجسد الباحث
عن دفئه ... المدينةُ اقواس جنونٍ
رأيتُ ان تلد الثورة ابناءها ،
قبرت ملايين الاغاني وجئت
ادونيس

أنا من حيفا . لكني لا اذكر الا القليل عن مسقط رأسي : ملعب طفولتي ودرج بيتنا . كنت في الرابعة حين ابعدوني عنها ، لا لأراها الا بعد سنين . كان ذلك في الواحدة والعشرين من عمري ، يوم التاسع والعشرين من آب ١٩٦٩ ، حين خطفت مع الرفيق سليم عيساوي طائرة امبريالية عادت بنا الى فلسطين لنحج الى وطننا المحتل ولنري العالم اننا لم نتخل عن أرض آبائنا وأجدادنا . ومن المفارقات ان العدو الاسرائيلي واكبنا بطائراته الفرنسية والاميركية الصنع .

ما عرفته عن حيفا عرفته من والديّ واصدقائي وقراءاتي . أمـا الآن ، وقد رأيتها من الجو ، فان صورة محببة لها ارتسمت في مخيلتي . فهي مدينة يدغدغها البحر ، ويحتضنها الجبل ، ويمتد امامها سهل فسيح . وهي مرفأ أمانٍ للمسافر ، وشاطىء في الشمس . ومع انني من ابنائها ، الا انه لا يجوز لي ان اتدفأ بشمسها ، وان اتنشق هواءها ، وان اعيش مع شعبي فيها . فالصهاينة الاوروبيون وانصارهم يعيشون في فلسطين بقوة السلاح ، بعد ان طردونا من وطننا . وهم هناك حيث يجب نحن

ان نكون، لا حيث نحن الآن مشردون ومنفيون . ذلك لانهم يهـود واقوياء ونحن عرب فلسطينيون لا حول لنا ولا طول . لكننا يوماً ما سنمتلك القوة ونستعيد فلسطين ونجعلها جنة للعرب واليهود ولكل محب للحرية .

أحب حيفا ، مثلما اهلي يحبونها ، ومثلما يحبها جميع الفلسطينيين . كان حبي لها ، في بادىء الامر ، عاطفياً . كان كحب الطفل لبلاد ما من نسج الخيال . ولما كبرت واخذت اقرأ وافكر لنفسي ، وجدت أن لي جذوراً تاريخية ، وان لشعبي ماضياً عريقاً في الجهاد ، وان امّي لا تقلّ شأناً عن سائر الامم ، إن لم تكن ارفع وأسمى . وتعلمت ، فوق كل شيء ، ان طبقتي الاجتماعية، هذه التي تضم العمال والعاطلين عن العمل واللاجئين والمظلومين في كل مكان ، قادرة على تحريـر البشرية من قيود الخرافات والتخلف . وكان علي ان أنسى ما بذل نظام التربية الاستعماري من جهد ليغرسه في نفسي . وهو ان لا تاريخ لي ، وان الشعب الفلسطيني لا وجود له ، كما لا وجود لأمة عربية . وفي بحثي عن الحرية ، اكتشفت بعض ابطالنا العمالقة وعصر العروبـة الذهبي ، فادركت كيف تحلل « المؤرخون » بمهارة مآثرنا وحكموا علينا بالفناء .

واتضح لي الدور التاريخي الذي سألعبه ، وهو أن أكون مـن المجاهدين في المعركة التي لا بدّ منها بين الظالم والمظلوم ، والمستغِلّ والمستغَلّ . فقررت ان انضم الى الثورة في سبيل تحرير نفسي وشعبي .

وكم ألهمني في قراري هذا ثائر فلسطيني عاش في الثلاثينات ، هو عز الدين القسام ، ذلك الرجل الذي جسد روح المقاومة ونظم اول ثورة للعمال والفلاحين في الوطن العربي . وفي ١٩٣٥ ، وقد شهـد استمرار خائني شعبه في خيانتهم ، رفع لواء الثورة المسلحة التي ارادها ان تكون بداية الحرب التحريرية ضد الاعداء : الامبريالية البريطانية ، والصهيونية ، والرجعية العربية . وكان الثوار جماعات من العمـال والفلاحين والطلاب والتقدميين ، وكانت ثورتهم هذه ثورة المظلومين .

الا ان البريطانيين بمعونة الصهيونيين والرجعيين العرب تمكنوا من القضاء عليها . وبين ١٩٣٦ و١٩٣٩ فازت الصهيونية بفلسطين ، لا بين ١٩٤٦–١٩٤٨ كما يريد المؤرخون ان يقنعونا . ففي ١٩٣٦ قام الفلاحون بعصيان شمل البلاد كلها ودام من نيسان (ابريل) الى تشرين الاول (اكتوبر). وكان هدف هذا العصيان اثبات عروبة فلسطين بانشاء دولة ديمقراطية ، وطرد البريطانيين ، وايقاف الهجرة الصهيونية الى فلسطين . لكن شيئاً واحداً أسفر عن هذا الصراع ، وهو ان البريطانيين استخدموا احدى وسائلهم المعهودة : اقامة البعثة الملكية التي أوصت في ١٩٣٧ بتقسيم فلسطين . ووافق حزب الدفاع الفلسطيني ، وهو منظمة تأتمر بأوامر الملك عبد الله والبريطانيين ، على هذا الاقتراح . واشتد الصراع ، الا ان المقاومة سحقت على يد القيادة الفلسطينية الخائنة و« فرق السلام » التابعة لها ، ووصاية الحكومات العربية و « وساطتها » ، والتعاون البريطاني – الصهيوني المسلّح . واستشهد عز الدين القسام ، فأدّى استشهاده الى خضة سياسية كبرى . لكن ثورته دفنت ، في آخر الامر ، بأيدي خصومه ، كما ان ذكراه محيت من الاذهان بفعل المقللين من شأنه . والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين انما بدأت حيث انتهى القسام . فجيله شرع في الثورة ، وجيلي مصمم على البلوغ بها الى النصر .

وكان اكثر ما علمته عن ثورة ١٩٣٦ من الكتب ، لكني تعلمت تاريخ شعبي منذ ١٩٤٨ من تجاربي المرّة . ففي ١٣ نيسان (ابريل) من ذلك العام ، تركت حيفا ، اي بعد أربعة أيام من بلوغي الرابعة من العمر . ولم يحتفل اهلي بعيد ميلادي الرابع هذا ، لان ٩ نيسان كان يوم حداد وطني في فلسطين . وأنا الآن في السابعة والعشرين من العمر ، ولم احتفل مرة واحدة بعيد ميلادي . ولن احتفل به حتى اعود الى حيفا . فأنا لم أغادر حيفا بملء ارادتي . والقرار لم تتخذه عائلتي ، بل اتخذه قوم هم خير من يعلم : قوم مضطهدون مطاردون اصبحوا ، بدورهم ، مضطهديّ ومطاردي بني وطني .

كانت عائلتي على صلة ود بجيراننا اليهود . وكنا نسكن في شارع

ستانتون ، وهو على مقربة من الحي اليهودي ، الذي كان أحدث الاحياء في حيفا . وهكذا تعرفت الى الأولاد اليهود ، فكانت تامارا احدى رفيقاتي المفضلات . ولم أكن على علم بأي تمييز بيننـــا ، بل كان في خاطري انني لا عربية ولا يهودية . على ان نقطة التحول في علاقتي بتامارا حدثت في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، حين قسمت الامم المتحدة فلسطين بيني وبينها . فنالت تامارا ٥٦ ٪ من بلادي . (وكان شعبها لا يدعي انه يمتلك الا ٨ ٪ من ارض فلسطين) . وكان ينتظر مني ان اوافق على هذا المطلب واهنيء شعب تامارا ، كما كان ينتظر مني ان اتنكّر لانسانيتي ، واعترف بشرعية المزاعم الصهيونية ، وأرضى بان أصبح لاجئة في بلادي . ومعنى هذا أن الصهيونية العالمية ، والامبريالية الاميركية وحلفاءها حكموا علي بالنفي لانني عربية ، ثم توقعوا ان نخضع لحكمهم هذا ونعمل به . ذلك لاننا اذا عملنا به ، في نظرهم ، تنتهي المزاعم الصهيونية عند حد ، ويتوقف توسعهـــا الاقليمي ، وينقطع سيل الهجرة اليهودية .

وكانت ردة فعل الفلسطينيين على قرار الامم المتحدة في التقسيم انهم اعلنوا الاضراب العام الذي استمر ثلاثة ايام . ولم يؤد هذا الاضراب الى شيء . وخارت قوى الحركة الوطنية العربية ، وكانت لا اكثر من جماعة من الغوغاء. واخذت تنهار المؤسسات التقليدية، دون ان يكون لاتحادات العمال والفلاحين القدرة الكافية على حمل عبء النضال من اجل التحرير . كنا في حالة يأس . ونشطت اعمال العنف هنا وهناك : العرب يقتلون اليهود ، واليهود يقتلون العرب . وكان اليهود على أهبة الاستعداد ، وكانوا يعرفون لماذا يحاربون . أما العرب ، فكانوا يرتجلون اعمال العنف ، ويتولونها افراديا . وكان للصهيونيين صلات ودّ في ما بينهم وصحابة ، فضلاً عن البارود . وكان لهم قوات عسكرية حسنة التنظيم ، ودراية بالغـــة في الحرب النفسية . وكان قادتهم على رأس جنودهم ، بينما كان قادتنا في لبنان او في القاهرة . وهكذا تمكـــن الصهيونيون من انتزاع حيفا منا ونحن غافلون ، خصوصاً بعدما أمر

السير جون غلوب باشا ، قائد الجيش الاردني ، جنوده في حيفـــا بالانسحاب تنفيذاً للمخطط البريطاني الرامي الى اخلاء حيفا وضمان النصر لليهود .

وظن اليهود أنهم ، بالتنسيق الدقيق والاستراتيجية الحربية البارعة ، يقدرون على بلوغ اهدافهم بأدنى ما يكون من الجهد والخسارة في الارواح . فتم لهم ذلك. فمعظم عرب حيفا البالغ عددهم ثمانين الفاً، تركوا المدينة دون ان يستميتوا في الدفاع عنها . وكان ذلك في جو من الارهاب . وبدأ النزوح عن المدينة في ٩ نيسان (ابريل) ، وهو عيد ميلادي الرابع ، واليوم الذي ذبح فيه الصهيونيون اهالي دير ياسين واحاطوا عملهم هذا بهالة من التهويل والتضخيم لينشروا الرعب في السكان الذين لم ينزحوا بعد .

ودبّ الذعر في حيفـــا ، عند مقتل ٢٥٤ شخصاً وإصابة المئات بجراح . وتخوف السكان من ان يكون هذا بداية مذبحة اشد فظاعـــة وهولا . وبعد يومين ، وصل العنف الى عتبة داري . وللمرة الاولى رأيت الموت بأم عيني . ومع انني ما ازال اذكر شعور الخوف الذي اصابني ، الا انني لا اذكر اذا كان القتيل عربياً ام يهودياً . واختبأت تحت الدرج وحدّقت الى الجثة المطروحة خارجاً في الشارع . وارتعبت وتساءلت اذا كان هكذا سيكون عليه مصير والدي .

وحمل انتشار الارهاب ، وسقوط القتلى ، والخوف من المستقبل ، عائلتي ومعظم العرب الى النزوح . فاتجهنا نحن الثمانية مع والدتي الى صور ، في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ . واذكر اني أحسست ، هكذا بالغريزة ، انه يجب ان ابقى في البيت . ولا أحد شرح لماذا نحن ننزح ، وما كنت افهم شيئاً . وبعد ان حزمت والدتي الامتعة وحشرت اولادها في سيارة مستأجرة وتهيأت للمسير ، خطر لها أن تعد اولادها فوجدت انهم ينقصون واحداً . وفي الحال عرف الجميع انني كنت هذا الواحد . فهرعت اثنتان من شقيقاتي للبحث عني ، فوجدتاني مختبئة وراء صندوق التمر . وصاحت بي نوال : « اليهود سيقتلونك اذا بقيت هنا ولم تأت

معنا ! » واستولى علي الغضب ، وبقيت اجهل لماذا نحن ذاهبون الى صور . وودعنا والدي وقبلني قبلة مبللة بالدموع . واذكر صورة اليأس تصغر في عيني كلما ابتعدنا . واذكر أيضاً ان هذه كانت المرة الاخيرة التي رأيت فيها درج البيت .

ولم اشاهد والدي الا بعد شهور ، حين قدم الى صور وهو مكسور الخاطر . وكان عازماً على البقاء في حيفا ، بصرف النظر عمن يسيطر عليها . على ان بيته وتجارته استولى عليهما الصهيونيون حالما دخلوا المدينة في ٢٢ نيسان (ابريل) . فشاهد بأم عينه كيف احتل الصهيونيون دارنا ونهبوا أثاثه ، ثم لم يلبثوا ان طردوه الى مصر .

ومن مصر ، تمكن والدي ان يصل الى صور في اواخر صيف ١٩٤٨ ، وهو خالي الوفاض ، بعد ان عمل ثلاثين سنة بكدّ واجتهاد . وحين لم يسمح له بان يصبح مواطناً لبنانياً ، شعر في اعماقه كيف يكون الانسان مرفوضاً . فهو ، اذ طرد من بلده ، منع من ان يصبح مواطناً في بلد عربي مجاور . وهكذا بقي منفياً في لبنان الى يوم وفاته في ١٩٦٦ . وكان في هذه السنوات الثماني عشرة يحلم بالعودة الى حيفا . وأنا ، ابنته ، احاول اليوم تحقيق حلمه هذا . وسأكون عند حسن ظن ابي ووطني . واذا عجزت انا عن العودة والعيش حرة في فلسطين ، فأولادي سيفعلون .

ويحاول المؤرخون ، كما تحاول الدعايات الغربية الملتوية ، ان يقنعونا بان اهالي حيفا هجروا مدينتهم ، في ما كان رئيس بلديتها اليهودي يدعو الجميع الى التعايش والتعاون . فعلى افتراض ان دعوة رئيس البلدية هذا كانت صادقة ومخلصة ، هل كانت تضع حداً لسفك الدماء وتهجير ابناء شعبي بطريقة منظمة مدروسة ؟ وهل كانت بين ليلة وضحاها تجعل الصهيونيين يغيرون خطتهم الرامية الى قهر العرب واخضاعهم ؟ ولو كان رئيس البلدية صادقاً مخلصاً ، فلماذا لم يأمر الغزاة الصهيونيين من بني قومه بان يتوقفوا عن اطلاق الرصاص ؟ ولماذا لم يحل دون قتل اخوتي واغتصاب اخواتي ؟ واذا كان الصهيونيون

يرغبون في التعايش ، فلماذا أعدوا ، هم والبريطانيون « الابرياء » مئات القوارب لنقل سكان حيفا الى صور وصيدا وعكا ؟ الاّ ان افعال الصهيونيين كانت أبلغ من أقوالهم. هم أرادوا طردنا من حيفا وفلسطين كلها ، وكان لهم ما ارادوا ، فيما هم يوهمون العالم باننا نزحنا عن ديارنا طوعاً واختياراً . ونحن لم ننزح طوعاً واختياراً ، ولو كان الامر كذلك ، فأي قانون او سنّة اخلاقية اعطى الصهيونيين الحق في احتلال بيوتنا ونهب ممتلكاتنا ؟ هذا هو السؤال الذي يجب على المؤرخ الواقعي ان يجيب عليه ، وهذه هي الحقيقة التي يجب على كل يهودي يحترم نفسه ان يعايشها ؟

وكذلك اشيع ان عرب فلسطين أملوا ان يعودوا الى بيوتهم بعد ان تحرر الجيوش العربية « المحتلة » حيفا ، وتطرد اليهود الى البحر ، وتستعيد حقوقها المشروعة . أما عن الجيوش العربية « المحتلة » ، فالواقع ان الدول العربية السبع أرسلت عشرين الف مقاتل تحت أتعس الظروف . كان ينقصهم حسن التدريب والاسلحة الحديثـــة . وكان عليهم ان يواجهوا عدواً يفوقهم في العدة والعدد الذي لم يقل عن ٦٠ الف مقاتل . ولم تكن للعرب قيادة مشتركة ولا ارادة على القتال يصح ذكرها . واذا كان من عمل بطولي ، فبفضل الافراد لا الجيوش . ذلك ان الجيوش كانت ضحية مجتمع في حال النزع الاخير ، بعث بشراذم من الجنود لتواجه عدواً لا ينقصه شيء مما يجب ان يكون عليه الجندي الحديث . وكان في ظن قادة هذا المجتمع الزائل انه سرعان ما يحرز النصر ويطيل في عمره . أما النتيجة ، فكانت ان دخول الجيوش العربية اعطى الصهيونيين عذراً لتوسيع الرقعة التي منحتهم اياها الامم المتحدة بموجب مشروع التقسيم ، فضلاً عن انها اتاحت للملك عبد الله وانصاره من الفلسطينيين ان يمحوا الوطن الفلسطيني من الوجود بضم ما تبقى منه الى الاردن . وهذا كله بالاضافة الى ان « التدخل » العربي بعث في الاسرائيليين الشعور بانهم لا يُغلبون .

واذكر جيداً ان والدتي حذرتني ، عقب وصولنا الى لبنان ، ان لا اقطف برتقالاً من البساتين المجاورة . فتحيرت وسألت عن السبب ، فقالت والدتي والدموع في عينيها : « هذا البرتقال ، يا حبيبتي ، لا يخصنا . انت اليوم هنا لا في حيفا . انت في بلد آخر » . وقبل ان تسرع الى داخل البيت لتمسح دموعها وتخفي خجلها ، نظرت الي بحنان الام وقالت : « من الآن وصاعداً ، محرّم عليك ان تأكلي برتقالاً ليس لنا » . فأطعت ببراءة الطفل ، لكن صدى كلماتها لا يزال في اذنيّ . وللمرة الاولى بدأت اشكك في عدالة وجودنا في المنفى .

وكم اثقلتني ، وانا بعد في الرابعة من العمر ، هموم الحياة والموت ، والعدل والظلم . وكنت ، أنا المثالية التي تسد رمقها بما تقننه لي الامم المتحدة من قوت ، والتي تعيش في غرفة واحدة مزدحمة في أحد ازقة صور ، شاهدة على الهمجية الصهيونية . وأنا اتهم العالم كله بالرضوخ الى مشيئة الذين يعملون على هلاكي .

ولم يكن امام عائلتي ، وانا منها ، الا الاستسلام الى حال من اليأس ، ومن الاعتياد على عيشة مملوءة بالبؤس .

وفي ما نحن هكذا ، كان الصهيونيون يتنعمون بثمار جهودنا في فلسطين . وكانوا ، فوق ذلك ، يشيعون في العالم انهم حين دخولها كانت قفراً خراباً ، تغص بالمستنقعات والرمال ، ثم صارت على ايديهم سهولاً خصبة وأودية عامرة بالظلال . واخذوا يشيعون ايضاً انهم يريدون السلام واننا ، نحن الغزاة العرب ، لا ننفك نتسرب الى فلسطين لنحرق ، ونقتل ، وننهب .

وفي خريف ١٩٤٨ ، ارسلت الى حديقة للاطفال ، اتقاء لشري . فنعمت بعشرة الاولاد ، وكنت جريئة وذات ميول صبيانية . حتى انني كنتَ الاعب الصبيان وأتشاجر معهم . وكانت معلمتنا زينة مليئة بالنشاط ، تحب الاولاد من كل قلبها ، وتعتني بهم كل العناية وتعلمهم محبة الآخرين .

ولم يكن في المدرسة منهج دراسي . كانت مهمتها حضانية محضاً . لكن زينة ، وهي المتمسكة بأهداب الاسلام ، رأت ان تعليمنا القرآن الكريم غرض نبيل . ومن دون ان تلقننا حرفاً واحداً من الابجدية ، اخذت تساعدنا على حفظ آيات من القرآن الكريم عن ظهر قلب . ولم يكن التخرج من هذه المدرسة بالامر السهل ، اذ كان على كل متخرج ان ينشد بعض الآيات على مسمع من الحاضرين . وكم سررت حين اخذت انشد قصة يوسف وكيف هرب الى مصر بالطفل يسوع خوفاً من سيف هيرودس . لكن الفريسيين ، وهم رؤساء الكهنة اليهود نفوه ، في ما بعد ، اسوة بأشباههم الصهيونيين . وما كدت أنشد الآية الاخيرة من هذه القصة ، حتى هرع احد زملائي الاطفال الى امي يبشرها طالباً « الحلوينة » . غير ان والدتي المسكينة لم تكن تملك غير بعض الحلوى . وجرت العادة ان تقام حفلة للمتخرجين امثالي ، لكن دموعي ذهبت عبثاً في اقناع والدتي باقامة حفلة لي ، غير مدركة انها لا تقدر ان تشتري لي فسطاناً ، او لعبة ، او حتى جاربين .

ثم تدرجت في دراستي الابتدائية ونعمت بها ، مستسلمة الى حياة « عادية » في المنفى . ولم يحدث لي في تلك السنوات الاولى من دراستي الا حادث ذو مغزى ، يتصل بالتظاهرات التي تقام في ذكرى ضياع فلسطين . ومع انني كنت على علم بهذه المأساة ، الا ان تظاهرة ١٥ أيار (مايو) ١٩٥١ ، كانت في حسباني تدخلاً في دروسي . ذلك ان المدرسة اغلقت لتلك المناسبة ، لكني لم اشترك في التظاهرة التي اقامتها . وسألت والدتي عما تعنيه تلك التظاهرة ، فاجابتني بغضب : « كفلسطينية كان عليك ان تشاركي زميلاتك في الاحتجاج على احتلال الصهيونيين فلسطين » . فوافقت على ان الاحتجاج مستحسن ، لكني أصريت على ان الدرس أهم . وفوجئت والدتي لهذا الكلام الذي يفوح برائحة الخيانة واخذت تعظني عن ثلاث خيانات وقعت في ثلاثة تواريخ يجب على كل فلسطيني ان لا ينساها : وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، وتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ، واعلان دولة

سرائيل في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ . ومن ذلك الحين صارت هذه التواريخ جزءاً لا يتجزأ من حياتي .

وكانت ١٩٥٢ نقطة تحوّل في حياتي . كنت ما ازال في الثامنة من عمري ، غير ان تزاحم الاحداث وخلفية عالم المنفى الذي عشت فيه أكسباني وعياً سياسياً . وكان اخي اول من جذبني الى السياسة . واني اذكر اول نقاش سياسي بين اخي محمود ووالدي . كان محمود في السابعة عشرة من العمر حين اخذ يروي للعائلة بحماسة كيف تمكنت جماعة من ضباط الجيش المصري الشباب من خلع الملك فاروق . وكان ابي ممن عارض تلك الثورة وأصرّ على ان اولئك الضباط فريق من المتهوسين ، لا يعرفون شيئاً عن السياسة ، ومع ذلك خلعوا ملكاً هبّ للدفاع عن فلسطين في ١٩٤٨ . واستولى الغضب على محمود واخذ يذكّر والدي بان الملك فاروق ليس سوى عميل بريطاني ، خسر الحرب في فلسطين ولم يعمل شيئاً في اربع سنوات لاستعادتها . واضاف محمود قوله : « كان الملك وحاشيته غارقين في الفسق والفساد ، هدروا ثروة مصر على انفسهم لا على الشعب » . وكان افراد العائلة جميعاً يصفقون لمحمود ، لأنه بدا اكثر معرفة بالامور من والدي . وكان جمع وثائق من مجلة روز اليوسف عن هذا الموضوع وألصقها على جدران غرفة الصبيان . فاتى بها وقرأها على والدي ، فاقتنع وهنأ ابنه بفخر على سعة اطلاعه وانضم الى تأييد الثورة . واصبح محمود هو الذي يشرح لنا الاحداث السياسية ، فتعلمنا كلنا ، لا سيما البنات ، كثيراً من خفاياها . ثم ان نيله معونة دراسية في الجامعة الاميركية في بيروت أضاف الى مكانته ، وقربه الى نواة حركة الشباب العرب ، التي زودته بثروة من المعلومات وجعلته ماهراً في التنظيم .

وفي خريف ١٩٥٢ ، التحقت بمدرسة اتحاد الكنائس الانجيلية للاجئين الفلسطينيين . وكانت تلك السنة سنة اكتشاف والتزام . وفي السنوات الثلاث أو الاربع التالية تكونت افكاري الاجتماعية وتمت ارتباطاتي السياسية . وتعاقبت سلسلة احداث هيأت المسرح لنشاطي

السياسي : ريح عاصفة ، وبرد قارص ، وجمع تبرعات لفتاة لاجئة .

كان صيف ١٩٥٢ ممتعاً ، افضى الى شتاء قاسٍ في اوائل كانون الاول (ديسمبر) . وهبت عاصفة اجتاحت مدرستنا التي كانت تؤوي سبعين ولداً فأصيب بعضهم بأذى ، وسيطر الخوف والذعر على الباقين . ووقفت انا صامتة ابكي في وسط الجليد والمطر والدموع والوحل بينما اخذ الاولاد يصرخون ويركضون الى الملاجىء. كان هذا رمزاً ، لوطننا العربي المنهار . وثار ضجيج الاحتجاج وانتشرت انباء هذا الحدث المؤلم . لكن دون جدوى . فالصدقة المسيحية الغربية لها حدودها . فأعيد بناء الخيمة — المدرسة ، وكان هذا هو البديل الوحيد .

وفي ذلك الوقت ، كادت الخيمة ان تصبح في نظري بلا معنى . ولم يمض وقت طويل على هذه الحادثة ، حتى اخذ يتبين لي ان عشرات الالوف من الناس يعيشون دائماً في مخيمات ، لا للتسلية ولا للدراسة فقط . وفي اوائل ١٩٥٣ نزل بصور برد قارص ، فغطى الثلج الابيض الجميل جبال لبنان والجليل . وملأ الوحل والجليد المدينة كلها . فاصابني زكام شديد . ولم يكن هنالك علاج ، وكان علي ان لا انقطع عن الذهاب الى المدرسة بحذائي العتيق . وفي احد ايام شباط (فبراير) العاصفة جاهدت في طريقي الى البيت فوق ركام من الثلوج . وشعرت بالصقيع حتى الموت . ودخلت البيت ابكي بحالة يرثى لها . وصرخت : « لا اقدر ان اتحمل اكثر من هذا . احتاج الى جاربين وحذاء . الحذاء الذي ألبسه حذاء صيفي لا يصلح للشتاء في لبنان » . ونظرت والدتي الي بحنان وقالت : « الا تظنين اني اعرف هذا ؟ » فصحت بها : « اذا كنت تعرفين ، فلماذا لا تشترين لي ؟ » فاجابت بغضب : « اشكري الله لان لك حذاء صيفياً وبيتاً تأوين اليه . غيرك من الاولاد لا يملكون حذاء او بيتاً ، وليس عندهم ما يكفيهم من القوت . هل تفهمين هذا يا ليلى ؟ » فصرخت : « لا ، لا افهم ! » لكني سألتها مستفهمة : « ولماذا ليس عندهم احذية وبيوت وخبز ؟ » فاجابتني والدتي بهدوء : « لا يملكون المال ، لأن آباءهم مثلنا فقراء ، خسروا بيوتهم وارزاقهم في

فلسطين ، ولا مجال لهم للعمل هنا في لبنان . هؤلاء الفلسطينيون ، يا ليلى ، لا اقرباء لهم في مكان آخر من العالم العربي يلجأون اليهم ، لم يبق امامهم الا الصحراء او الاحياء البائسة في المدن العربية ، حيث استمروا على قيد الحياة ، بطريقة ما ، الى ان قامت وكالة غوث اللاجئين التابعة للامم المتحدة . تصوري ماذا كان جرى لنا لو لم يكن لنا اقرباء في صور ، ولم احتفظ ببعض الحلى لابيعها واشتري بثمنها قوتاً لكم في الاشهر الاولى . نعم ، اين كنا الآن ؟ ربما لم نكن على قيد الحياة الى هذا اليوم . وماذا كان يحل بك وبأخواتك لو سقطت ضحية الصهيونيين ونحن في طريقنا من حيفا الى صور ؟ الا تعلمين ان الصهيونيين ذبحوا اهلنا ، أما الذين هربوا ماتوا عطشاً او جوعاً ؟ وفي امكاني ان اسرد عليك الملايين من قصص النكبة والويل ، لكني اريد لك ان تعرفي شيئاً واحداً فقط ، وهو انك غريبة هنا في لبنان ، وان وطنك يحتله الاجنبي . حاربنا ببطولة لانقاذ هذا الوطن ، فخسرنا وطردنا منه . ويجب عليك وعلى اخوتك واخواتك ان لا تنسوا فلسطين ، وان تجاهدوا بكل قواكم للعمل على استعادتها » .

وخيّل الي انني كنت استمع الى قصة حزينة وقعت فصولها في مكان آخر ، لأناس آخرين . وأثّر بي ذلك كل التأثير ، لكني لم اشعر بأني من اشخاص هذه القصة . وبقيت الحال هكذا الى ان فوجئت بحقيقتها في ربيع ١٩٥٣ ، حين كنت في التاسعة من العمر . وذلك اني كنت أحسب نفسي اذكى مخلوقات البشر ، لا يبزني أحد في صفي . لكن اعتدادي هذا بنفسي كذبته زميلة لي اسمها سميرة كنت انظر اليها باحتقار . فجن جنوني واخذت اخاصمها واشاكسها الى ان اخذتني المعلمة يوماً على انفراد وقالت لي كلاماً لن أنساه . قالت ان اولاد الفلاحين الفقراء لا يقلون ذكاء عن افراد عائلتي واصدقائي . واضافت : « هم ابناء فلسطين الصادقون ، لأنهم يعيشون من الارض ويزرعونها ويفلحونها . والفضيلة هي في صلب الذين يعملون في الارض ، والنساء البسطاء هن عصب المجتمعات. وهؤلاء الفلاحون لم ينزحوا عن فلسطين

بمحض ارادتهم ، كالاثرياء الذين يقطنون اليوم الفيللات والقصور في القاهرة وبيروت ، بل أُرغموا على ذلك ليخلوا مكانهم للصهيونيين الدخلاء . انهم هم شعب فلسطين ويجب ان تحبيهم ، وتندمجي فيهم ، وتخدميهم » .

وبعدما انتهت من تلقيني هذا الدرس ، استدعت زميلتي سميرة وأشارت اليها ان تصافحني وتأخذني الى خيمتها لتريني كيف تعيش هي واهلها ومئات آلاف الفلسطينيين . وهكذا فعلت .

وطفت في ارجاء المخيم ، فادركت انني اعيش في نعيم ، واني محظوظة . وتساءلت كم يملأ الغرور والكبرياء اولئك الاثرياء ! وفجأة أصبحت اعي الفروقات بين الطبقات ، في ذلك الربيع المزعج لي . وكلما كبرت ،اكتسبت العقيدة العقلية والمثالية الضرورية لفهم ما شعرت به في ذلك المخيم ، ولماذا يجب القضاء على الطبقية في المجتمع لاحلال الاشتراكية محلهـــا . لكن سميرة ، زميلتي في الصف وفي الطبقـــة الاجتماعية ، وأميرة ، معلمتي والداعية الى سيادة الطبقة العاملة ، علمتاني الدرس الاول في الحرية الحقيقية ، والشعور الانساني الحقيقي . نعم ، علمتاني في بضع ساعات ما تعجز آلاف الكتب ان تعلمني اياه في مئة سنة . وفي ذلك المخيم، رأيت البؤس والشقاء والجوع والمهانة. رأيت الكسيح ، والمعلول ، والمكسور القلب . رأيت الاطفال الحفاة ، المنتفخي البطون ، والآباء المطأطئي الرأس ، والامهات الصفر الوجوه ، الحاملات اطفالهن وهم مرضى . رأيت ما يعنيه الفقر والجوع ، وشعرت بالحرمان ينفذ الى عظامي . ولم أغض الطرف عن الخيم القذرة ، ولم أجفل من مشهد الموت . بل طفت المخيم كله ، احاول ان أشعر شعور ساكنيه . فصلبت وافتديت في وقت معاً . ومن ذلك الحين ، احببت الفقراء ومشيت معهم الى القضاء على عدونا المشترك : الطغاة . وما يزال اكثر من ٧٠٠,٠٠٠ فلسطيني يعيشون في مخيمات اللاجئين هذه ، بعضهم عمال في المدن المجاورة ، ومعظمهم يرزحون تحت ثقل البطالة ويسدون رمقهم بالقليل الذي توزعه عليهم الامم المتحدة ، من دون ان يكون

له رجاء بالخلاص الا بالثورة العربية – الفلسطينية .

وازداد ايماني بنفسي وبزميلاتي الطالبات في ربيع ١٩٥٣ . ففي عشية عيد الاضحى ، تهيأ معظم الطالبات لفرصة اسبوع . وكن يتحدثن عن الالعاب ، والثياب الجديدة ، وما الى ذلك من الهدايا التي لن ينتظرنها . وكانت هنالك فتاة صغيرة جالسة بثيابها الرثة على مقربة مني . لم أكن اعرفها جيداً ، ولم اسألها لماذا هي هكذا حزينة ووحيدة . وكان معلمنا نبيل على علم بأمرها . وبعد انتهاء الدرس ، اخبرنا ان عيد الاضحى على الابواب ، واننا جميعاً ، الا فتاة صغيرة ، سننال الهدايا . وقال : « ليس من روح الاسلام ان لا نقاسم الفقراء ما عندنا ، كما انه ليس من الخلق العربي ان لا نكون كرماء » . فاثارني هذا الأمر وقلت في نفسي : ربما حان الوقت لاقتحام مكاتب وكالة الغوث أو دار الحكومة في صور . لكن نبيل لم يكن يفكر باجراء متطرف من هذا النوع . وقال : « واحدة منكن لن تفرح بهذا العيد ما لم تنل هذه الفتاة الصغيرة ثوباً جديداً لهذه المناسبة . وانا وحدي لا اقدر ان اشتريه لها . فها انا اتبرع بخمسة وعشرين قرشاً ، واذا كانت كل واحدة تتبرع بقرشين او خمسة قروش ، امكننا ان نشتري لحسناء ثوباً جديداً » . ونظرت الطالبات بعضهن الى بعض ، وهن متعجبات من هذا الطلب . أما أنا ، فلم اتعجب. ذلك لانني كنت اعرف ما معنى ان يكون الانسان فقيراً ، بعدما قمت بزيارة المخيمات . فوقفت وقلت : « ها هي خمسة قروش ، « خرجيتي » لاسبوع » . وفعل معظم الطالبات مثلي ، فاشترينا لحسناء ثوباً وسط دموع الفرح . وقررت ان لا ألبس ثوبي الجديد ذلك العام ، لأن آلاف الفلسطينيين لم يكن عندهم ثوب .

وكنت أحب معلمي نبيل ، واعجب بقوته الجسدية وحصانته الخلقية . وكان هو ، بدوره ، يحتضنني ويعاملني كأخت صغيرة . وفي الذكرى الخامسة لقيام اسرائيل ، اي في ١٥ ايار (مايو) ١٩٥٣ ، مشينا معاً على رأس التظاهرة نصرخ بقبضات مرفوعة : « تعيش فلسطين العربية – فلسطين لنا – سنعود ! » وتجمهر الناس ، كباراً وصغاراً ،

في الساحة العامة ليستمعوا الى نبيل يقسم ولاء الاخلاص للعلم ، باسم جميع الفلسطينيين . وخطب في الناس بكلام مقنع ، فقال : «آباؤنا خسروا فلسطين ، لكن جيلنا والاجيال اللاحقة عليهم واجب تحرير وطننا» . وفي ختام كلمته ، طلب من الجموع ان يتجهوا نحو الجنوب ويقسموا امام انفسهم وامام بني قومهم يمين استئناف القتال من اجل فلسطين . وهكذا دخلت مسير الثورة ، كما اخذت عبرة من قطتي سارة . كانت سوداء مثلي ، وكنا لا نتفارق . وكنت اقرأ لها دروسي واصطحبها في نزهة على شاطىء البحر . وكنت اخيط لها ثيابها ، وأغسلها وأمشطها كطفل . وحين ولدت للمرة الاولى ، كنت لها القابلة . وكم أحببت اطفالها ، حتى انني دفنت أحدها عندما مات ، واخذت ازور قبره كل يوم . وذات مرة وجدت دجاجة تنقر الزهور على القبر ، فامسكتها ومن فرط غضبي قرفت رقبتها . واثارت هذه الحادثة ضجة حول البيت ، الى ان قيل للجيران ان دجاجتهم اعتدت على حق ملكيتي . واصرت والدتي على ان اتخلى عن القطط ، ففعلت بعدما وجدت من اوزعها عليهم لتربيتها . واخذت الطبيعة مجراها ، فحبلت قطتي سارة مرة ثانية . فاصرت والدتي ايضاً على ان لا يتحول بيتنا الى مستشفى مرة ثانية ، وهكذا امسكت القطة ووضعتها في كيس واوصت عمي بأن يحملها ويرمي بها على مسافة بعيدة . وكم بكيت وناشدت امي ، لكنها لم تلن . فحمل عمي القطة وقام بالمهمة . وبقيت نحو سنة بلا قطة .

وفي ربيع ١٩٥٤ ، صرت في العاشرة من عمري . وفي صباح يوم أحد ، وانا في طريقي الى البيت من المدرسة، صدفت قطتي سارة تتمشى بجلال على رأس قنطرة بناء متهدم . فهجمت عليها ، غير متأكدة من انها كانت هي ، واحتضنتها وعدت بها الى البيت . وكم فرح اهلي وحسبوا ان عودتها اشبه بالمعجزة . وفي اليوم التالي ، طلب منا المعلم ان نكتب مقالاً في موضوع مهم حدث لنا في حياتنا . فسررت كثيراً لهذه الفرصة التي اتيحت لي ، لأكتب في موضوع عودة «حمامتي الى الفلك» . وفيه سردت حكاية الطوفان أشبهه بسيل الصهيونيين الذين

اغرقوا فلسطين ، واشبه قطتي بـ « حمامة السلام » التي بشرت بنهاية الطوفان . فاذا كانت قطتي قدرت على ان تجد طريق العودة الي بعد سنة من التيه ، كيف لا أجد انا طريق العودة الى فلسطين الحرة ؟ ورأى معلمي ، وهو فلسطيني ، ان العاطفة في هذا المقال نبيلة ومثالية ، الا انه حاول ان يلقنني موقفاً اكثر واقعية و« علمية » ازاء قضية فلسطين . على ان فلسطين ، لفتاة في العاشرة ، كانت حلماً يثير المخيلة ، لا هدفاً في متناول اليد .

وفي ١٩٥٠ ، عزمت اميركا على توسيع نطاق معاهدة حلف شمال الاطلسي (ناتو) ، فيشمل عالمنا . وكان غرضها من وراء ذلك اطفاء شعلة الثورة ، و« حماية » النفط العربي ، والحفاظ على مصالحها الاستراتيجية ، وهي التي خلقت اسرائيل ، وصانتها ، وزودتها بالسلاح . وقام جون فوستر داليس ، وزير خارجية اميركا ، بزيارة للشرق الاوسط في اذار (مارس) ١٩٥٣ . وكانت اميركا في ذلك الحين في قبضة الماكارثية ، مما حمل داليس ، وهو العدو اللدود للشيوعية ، على المجيء الينا لـ « انقاذنا » من الخطر الشيوعي وجعلنا مواطنين « ديمقراطيين » مطواعين في « العالم الحر » . وكانت خطته انشاء حلف اقليمي مرتبط بناتو ، وفي الوقت نفسه يجد حلاً لما يسمونه « النزاع العربي — الاسرائيلي » ، من شأنه ان يضمن استمرار النفوذ الامبريالي الغربي واحتكاراته النفطية في المنطقة .

وكان رد جيلي على محاولات داليس : « لا ! » وتكاتف جميع قوى الاحرار على تفشيل خططه . وكان من اللائق ان تبدأ المعارضة في الجامعة الاميركية في بيروت . غير ان داليس ، فضلاً عن انصاره المحليين ، كان على جهل بمدى عمق الشعور القومي الذي استحوذ على البلاد . وقاد الطلاب القوميون النضال في سبيل التحرر تحت لواء حركة الشباب العرب . ولم يكن يرهبهم الموت ، ولا سلاح الجنود

الذين حاولوا صدهم وحماية داليس . فاقتحموا النطاق المضروب وكادوا يذبحون تنين الرأسمالية . وانفجر البركان حين دنت الجماهير من هدفها . واطبق الجيش والدرك والبوليس السري على الطلاب ، فاعتقلوا العشرات وجرحوا المئات . واشترك اخي محمود في هذه التظاهرة ، ثم عاد يسرد على مسامع العائلة ما جرى .

ومع ان البلاد اهتزت الى اعماقها ازاء قساوة جنودها ، الا ان عاماً من التحرك القومي كان يجب ان ينقضي ، بالاضافة الى مقتل حسّان ابو اسماعيل ، زعيم الطلبة في الجامعة الاميركية في بيروت ، قبل ان تستيقظ البلاد وتنقذ نفسها من اخطبوط الحلف الاميركي المقترح : حلف بغداد . وكان مقتل حسّان ابو اسماعيل، على الاخص ، فظيعاً لأنه جرى امام الجامعة الاميركية ورفضت ادارة الجامعة الاحتجاج عليه . وفجأة ، اصبح الناس يفهمون معنى المؤسسات الغربية الديمقراطية ونواياها السياسية ازاء الشرق الاوسط . على ان احداث الخمسينات لم تصل الى ذروتها الا بحرب قناة السويس في ١٩٥٦ ، حين هجمت بريطانيا وفرنسا ، بالتعاون مع اسرائيل ، على مصر للقضاء على عبد الناصر وفرض سلام بن غوريون على الامة العربية . وهكذا ديس البيان الثلاثي الذي اعلنته بريطانيا وفرنسا واميركا في ٢٥ ايار (مايو) ١٩٥٠ ، باقدام فريقين من الموقعين بامضائهم عليه . وهو البيان الذي ضمن صيانة الحدود الاقليمية والسيادة الوطنية لكل من الدول في الشرق الاوسط ، والتزم بالاسراع الى نجدة المعتدى عليه . وما كان يداس بالاقدام ، لو لم يصبح عديم النفع للصهيونية .

وكان ان فشل الغرب في حمل العالم العربي كله على الخضوع الى نظام تحالفي تحت جناح اميركا . بل بخلاف ذلك ، أدّى سعيها هذا الى استقطاب القاهرة ، بزعامة عبد الناصر ، حركة الوعي القومي ، وصيرورة بغداد نوري السعيد مركزاً للقوى المعادية للثورة وعاصمة لدعاة « الحزام الشمالي » . وخلاصة الامر ، ان داليس وايزنهاور ، ايدن ومكميلان ، بن غوربون وموشي ديان ، لم يكونوا ، تماماً ،

ذلك الشر الذي لا يشفع فيه شيء . ذلك انهم فتحوا ، ولو بفظاظة ، عيوننا على حقائق الأمور . ونحن نعترف لهم بهذا الجميل . وهكـــذا اخذنا نعيد النظر في اسس مجتمعنا . ولم يبق على العرب ان يجتازوا فترات طويلة من التوهم للتمييز بين الصديق والعدو ، ولكشف العدو في الداخل وفي الخارج .

٢ – التربية والثورة

« خلق الانسان حرّاً ، وفي كل مكان يرسف بالاغلال » .
روسو

تدربت ، كعضو في حركة القوميين العرب ، على وعي الماضي والحاضر والمستقبل . فالشعوب والمجتمعات المتخلفة تفتقر الى وعي الحاضر والمستقبل ، مع ان هذا الوعي لا بد منه ، في سبيل السيطرة على حياتنا وبيئتنا . ونحن لا نقدر ان نتغلب على الماضي ونظرياته العائقة الا بالوعي الحر . والشعوب المتخلفة تعيش بالقضاء والقدر . وهي تحنّ الى « عصر ذهبي » بائد . وانا وشعبي نشكو من هذه النقيصة ، لكننا في الوقت نفسه نعيش مع سير التاريخ ، محاولين ان نقرر مستقبلنا ، لا الرزوح تحت نير الماضي .

وكان من نتائج احتلال فلسطين من جانب الامبريالية والصهيونية انها اجبرت بعضنا على اعادة النظر في الاساس الذي يقوم عليه مجتمعنا . فوجدنا ان مجتمعنا فاسد ، ورجعي ، ومتمسك بالتقاليد الرثة البالية . وهكذا كانت هزيمتنا هي خلاصنا وطريقنا الى البعث والتجدد . فلم تعد المسألة مسألة ترميم ، بل انشاء جمهورية اشتراكية جديدة تشمل العالم العربي من اقصاه الى اقصاه .

وعلينا إما ان نقبل هذا التحدي وإما ان نرفضه . فاذا قبلناه ، اصبح علينا ان نتجه نحو الجبال ، والى اكواخ الفلاحين ، والى الاحياء الفقيرة البائسة في المدن . أما اذا رفضناه ، فيمكن لنا ان نعيش حياة « هانئة » في عبوديتها تحت نير الصهيونية والامبريالية ، فنقابل بين حياة الرخاء

التي نحن فيها اليوم بالتي كنا عليها قبل ان « يحررنا » موشى ديان . وفضلاً عن ذلك ، يمكننا ان نعزي انفسنا بالقول نحن الآن في سلام وهدوء ، وعندنا « ديمقراطية » تحت حكم موشى ديان وجرافاته اكثر مما كان عندنا تحت حكم الحسين وكتائبه البدوية .

عندما جاءت ١٩٥٥ ، كنت على وعي بالقضايا الراهنة والخطط المقبلة . وفي ربيع تلك السنة ، نلت شهادتي الابتدائية وتهيأت لدخول المدرسة الثانوية . كان عمري ١١ سنة ، وعمر اسرائيل سبع سنوات . وكالعادة ، احيينا ذكرى مرور العام السابع على تشريدنا من بلادنا بالهتاف ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية العربية ، ولا شيء آخر .

وفي هذه الاثناء ، كانت اسرائيل تبذل هذه الاعوام السبعة في دعم جبهتها الداخلية ودمج سكانها « الافريقيين الاسيويين » من اليهود . ومدت اسرائيل يد « السلام » الى العرب في ١٩٥٤ ، لكن حكومة موشى شاريت سقطت تحت ضربات بن غوريون الداعي الى التصلب . وقبل ان تسقط حكومة شاريت ، كانت تورطت في مؤامرة خادعة قل مثيلها في تاريخ الديبلوماسية . وهذه المؤامرة التي عرفت بـ « قضية لافون » استهدفت تفجير السفارتين الاميركية والانكليزية وسواهما من المصالح الاستراتيجية الغربية في مصر ، لاقامة البرهان على عدم استقرار النظام المصري ، ولاقناع حماة اسرائيل بضرورة البقاء في قناة السويس وعدم الجلاء عن السودان . وتوخى الاسرائيليون ، طبعاً ، ان يجعلوا هذه الجريمة تظهر كأنها من فعل المصريين . ولسوء طالعهم ، قبض عليهم بالجرم المشهود وافتضح امرهم . فكان ان أصيبت اوضاع اسرائيل السياسية بهزة عنيفة استمرت عقداً من السنين .

وبدأ التوسع الاسرائيلي ، جدياً وعملياً ، بضم المناطق المجردة من السلاح ، بموجب اتفاق الهدنة المعقود في رودس ، في ١٩٤٩ ، كما بدأ بالاستمرار على طرد العرب من اسرائيل واخضاع الاقلية العربية الباقية فيها . والاهم من هذا كله شروع اسرائيل في اتباع سياسة الثأر الجماعي . وكان ذلك في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٣ ،

يوم الهجوم على قبية ، وبلغ ذروته في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥ ، حين غزت اسرائيل قطاع غزة وضربت القواعد العسكرية المصرية وقتلت وجرحت اكثر من مئة وخمسين شخصاً . على ان هذا الغزو لم يسفر عن النتيجة التي كانت تتوخاها اسرائيل . ذلك لان عبد الناصر لم ينسحب من القطاع ، بل على العكس ، التف حوله العالم العربي بأسره . وما ان جاء خريف ١٩٥٥ ، حتى عقد صفقة شراء اسلحة من تشيكوسلوفاكيا ، وبذلك كسر طوق الاحتكار الغربي وبدأ يتجه نحو تحقيق الوحدة العربية .

وكان ان تبلور كل شيء في ذلك الخريف . فطار ألن داليس ، مدير المخابرات المركزية الاميركية وشقيق جون فوستر داليس ، الى القاهرة في محاولة لاقناع الرئيس عبد الناصر بعدم تنفيذ صفقة الاسلحة التشيكوسلوفاكية . وكانت هذه البادرة التي ندد بها القوميون العرب حلقة اولى في سلسلة المحاولات التي قام بها الامبرياليون الاميركان للقضاء على عبد الناصر .

ولم تخف ، حتى على اولاد المدارس ، احداث تلك السنة . فكنت اتتبع هذه الاحداث بشغف وأتشبع بالحجج التي كانت تساق ضد السياسة الغربية . وفي هذه الاثناء تحسّن وضع عائلتي المالي ، وعمّ ارجاء بيتنا الهدوء ، وانتقلنا الى شقة بثلاث غرف ، ولم يعد الجوع يتهدد حياتنا . وكانت اثنتان من شقيقاتي في العمل ، كما ان والدتي أحسنت استثمار مدّخراتنا . وشعرنا جميعاً ان العرب يتخذون ، بعد طول الانتظار ، خطوات اولى لاستعادة فلسطين . وكنا ما نزال نؤيد الحركة العربية بكل قلوبنا .

ثم جاءت ١٩٥٦ ، فكانت سنة السنوات في تاريخ العرب الحديث . ففي تلك السنة ، توفق النظام الناصري ، بمساعدة الضغوط الخارجية والداخلية ، الى اجلاء آخر جندي بريطاني عن ارض مصر . وعندئذ قرر داليس وايدن ان يعملا على اسقاط عبد الناصر ، لأنه كان يسير في اتجاه حيادي ، عوضاً عن ان يسير في ركاب السياسة الغربية . فأخذوا

يعالجونه بالضغوط الاقتصادية ، لكنه لم يخضع . ذلك انه بدأ يشعر بقوته الكامنة وبتوق الجماهير العربية الى قائد جبار ملهم . وعجز داليس وايدن عن فهم التغيرات التي طرأت ، فظنوا انهم ، اذا لم يقدروا على اسقاط عبد الناصر ، لا شك قادرون على اخضاعه بالرجوع عن اعطائه القرض الذي وعد به ، وقدره سبعون مليون دولار ، لمشروع بناء سدّ اسوان . فردّ عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس في ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦ . وفجأة ، هبّ العملاق العربي من سباته وسدّد سهام غيظه الى الغرب . واصبح عبد الناصر معبود الجماهير العربية ، كما اصبحت الناصرية مذهباً عم خبره العالم كله . ودهش الغرب حين رأى ان البحارة العرب قادرون على تسيير دفة العمل في القناة مثل زملائهم الغربيين ، إن لم يكن افضل . ووقف العالم يرى ويسمع . وتوافد كبار ساسة العالم الثالث على القاهرة ، معلنين عن تضامنهم مع العرب . وعندما جاء روبرت مانزيس ، رئيس حكومة اوسترالیا ، الى القاهرة حاملاً إنذار رابطة المستفيدين من القناة ، قابله عبد الناصر بالرفض الحاسم . وصفق العرب جميعاً وهلّلوا ، ورأوا في ما كان يجري بارقة امل . ووقفت اوروبا واميركا مشدوهتين ، بينما أصبح عبد الناصر عملاق العالم الثالث الاسمر . ثم وقع العدوان الثلاثي المشؤوم على مصر ، في ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ ، لكن عبد الناصر بقي مسيطراً على القناة ، وقابضاً على زمام الحكم . وكانت اسرائيل ، بهذا العدوان ، تستهدف مع بريطانيا وفرنسا تحويل المد العربي وفرض نظام امبريالي على عالمنا .

وبلغ العدوان على مصر نهايته في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ . وفي ذلك اليوم ولد طفل جديد في عائلتنا ، اسميناه عبد الناصر تيمناً بالرئيس جمال عبد الناصر ، وليكون رمزاً لساعة النصر الاولى ، منذ هزيمة ١٩٤٨ . وكان المولد الجديد ، الولود الثاني عشر لعلي خالد .

وكانت ايام ذلك الخريف اكثر ايام طفولتي اثارة للمتعة . وشغلنا بجميع ضروب النشاطات ، حتى لكأن المدرسة عائلة واحدة ، وجميع

اهالي صور قبيلة واحدة ، والعالم العربي باسره دولة واحدة . كـــان وقتاً يذكر ليعاد ، مليئاً بالفخر والثقة بالنفس . غير ان العدو ما زال على الابواب .

وبين ١٩٥٦ و١٩٥٩ كانت فترة تدربي على العمل السياسي . ومع انني أحسست بنشاط واهتمام سياسيين في بيتنا منذ ١٩٥٤ ، الا انني لم اتفهم جيداً مغزاهما ، ولم اشترك اشتراكاً فعلياً في النقاش الدائر. وكان اخي محمود عضواً في حركة القوميين العرب ، وكثيراً ما كان يسند الينا مهمة توزيع المناشير والملصوقات في صور . وانضمت شقيقتاي زاكية ورحاب الى الحركة في ١٩٥٦ او ١٩٥٧ ، وكانتا تعملان فيها بنشاط بالغ . أما انا فانضممت اليها في ١٩٥٧ ، من دون ان ادرك ان ذلك يعني اكثر من الكتابة ، وتوزيع المناشير ، والاشتراك في التظاهر والقاء الخطب . ونشطت الحركة عندما اشيع في ١٩٥٧ ان تركيا تتأهب لاعتداء على سوريا واسقاط النظام التقدمي بالنيابة عن اميركا . واتخذنا مقررات عديدة ، لكن وجود منظمة للشباب تتولى العمل كان ينقصنا . وكنت آنذاك على هامش الحركة ، فسألت شقيقتي عن بعض المعلومات فرفضتا البوح الي بشيء ، لأنني لم اكن بعد عضواً كاملاً في الحركة . غير ان حماستي للانضمام الى المحررين والتزامي العاطفي بالقضية حال دون اي تشاؤم كان ربما يخالجني عن عدم كوني عضواً عاملاً فيها .

وفي ١٩٥٨ ، بطل تحت نيران الجيش اللبناني اي تمييز بين من كانوا اعضاء في الحركة وبين من لم يكونوا . وكانت صور في حالة الطوارىء . واخذ انصار فلسطين والعروبة المزيفون يكشرون عـــن انيابهم عقب قيام الجمهورية العربية المتحدة في شباط (فبراير) ١٩٥٨ . ولحماية انظمتهم المنهارة ، انشأ الهاشميون في العراق والاردن اتحاداً مضاداً ، ربما بتشجيع من الغرب . وقامت سياسة المحاور في طول العالم العربي وعرضه : الوحدة العربية في وجه السيادات الاقليمية ، والثورة في وجه الرجعية ، والقاهرة في وجه بغداد . وفي هذا الوضع السياسي ، عزم الرئيس اللبناني كميل شمعون ، حبيب الديبلوماسيين الغربيين ،

على العمل لاعادة انتخابه رئيساً للمرة الثانية . غير ان حركة القوميين العرب ، فضلاً عن القوى الاخرى من تقدمية ورجعية ، اخذت تبذل الجهد في عرقلة التعديل الدستوري الذي اقترحه انصاره تمهيداً لوصوله الى مبتغاه . فكان من نتائج هذا النزاع الذي اشتركت فيه القوى الاجتماعية ، والتجار والسياسيون الانتهازيون بين الفريقين ، نشبت حرب اهلية في ١٠ ايار ، بعد يومين من اغتيال نسيب المتني ، الصحافي اللبناني المعروف .

وكانت المعارضة في صور لحركة القوميين العرب ضعيفة . وكان سهلاً علينا ان نحتل المدينة وندير شؤون الحكم فيها لصالح الشعب والثورة . غير ان الجيش كان مسيطراً على مدخل المدينة الشمالي ، حيث اقام معظم خصوم الحكومة ، بمن فيهم عضو مجلس النواب وقبيلته وانصاره . وكانت النقمة تشتد في صور ، منذ ٢ نيسان (ابريل) ١٩٥٨ ، حين صرع الدرك برصاصهم معن حلاوي ، احد الزعماء المحليين . ذلك ان معظم اهالي صور رأوا ان مصرعه عمل لا لزوم له ولا سبب . واعتبر نادي التضامن في صور ، فوق هذا كله ، ان مقتل حلاوي بمثابة اعلان حرب على حركة القوميين العرب ومحاولة من جانب السلطات اللبنانية لاخضاع المدينة واحباط جهود القوميين . وبرهنت الاحداث على صدق موقفهم هذا . ذلك ان منع التجوّل اعلن لثلاثة ايام ، قام فيها رجال الامن باعتقال « المحرضين » . ولما تنبه الاهلون الى ما كان يجري ، تمردوا على اوامر منع التجول وهاجموا مركز الشرطة وأخلوا سبيل الموقوفين . وفي هذه المرّة ، وقع محمد قاسم ، المناضل المعروف ، صريع الرصاص ، كما انني خبرت للمرة الاولى كيف يكون الانسان على قيد شعرة من الموت .

ومع انني اشتركت في كل تظاهرة في صور ، بين ١٩٥٢ و١٩٥٨ ، فما يزال يخيّل الي ان ذلك كان ممتعاً حقاً . ولم أرَ بأم العين قتيلاً ، منذ ذاك الذي سقط صريعاً أمام دارنا في حيفا . أما معن حلاوي ، فقتله رصاص رجال الدرك اللبناني وهو محمول على الاكتاف في تظاهرة

كان يهتف فيها بشعارات قومية . وكذلك محمد قاسم ، حين حاول رجال الدرك اعادة فرض منع التجوّل على المدينة . وكنت بجانبه اناوله حجارة يرميهم بها . وركضت عند مصرعه اطلب النجدة . وجاءته النجدة وهو ما يزال على قيد الحياة ، فحملناه الى المستشفى في سيارة عتيقة . وظننت انه سيشفى . ولما خرج الطبيب بعد دقائق من غرفة العمليات سار نحونا بخطى وئيدة واخذ يعزينا محاولاً اخفاء دموعه . وللمرة الاولى عرفت خسارة رفيق في المعركة . واستولى علي البكاء اياماً . وحزنت المدينة اسفاً على فقدان رفيقين عظيمين وشيعتهما تشييع الابطال . لكن هذا لم يكن الا بداية الفجيعة التي حفل بها صيف ١٩٥٨ . ذلك ان قوات شمعون اقتحمت المدينة كزمرة من المرتزقة وراحت تعيث في المدينة ، حاملة الينا بركة السلاح الاميركي . وفي ذلك الصيف لا اذكر اني نمت ليلة بكاملها من دون تقطع . كنت جندياً في الثالثة عشرة ، ومهمتي الحراسة وقضاء بعض الواجبات السياسية والعسكرية . وكنت حريصة على ان اكون جندياً صالحاً .

وبينما انقسم اللبنانيون ، بعضهم على بعض ، تبين بوضوح ان اصابع عديدة كانت تضغط على الزناد . وفي ١٦ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، نزل الجنود البحارة الاميركيون في لبنان ، وذلك بعد مرور يومين على قيام الشعب العراقي بخلع الاسرة الهاشمية الحاكمة والفتك بنوري السعيد وعبد الاله ، وهما أشد العملاء اخلاصاً لبريطانيا . وشهد الشعب العربي في لبنان جبروت الاسطول السادس الرهيب . ولسوء طالع اميركا ، كان الوقت فات لاعادة نوري السعيد وشركاه الى الحكم . لكن جنودها بقيت في لبنان ، فاوقفت الحرب الاهلية واعلنت شعار « لا غالب ولا مغلوب » . ووضع المعلقون السياسيون العرب كتباً عديدة من وحي هذا الشعار .

وكان من نصيبنا ، نحن في صور ، ان صيف ١٩٥٨ لم يلحق بنا الدمار كما توقعنا ، وذلك بفضل اتفاق محلي واهن وشفهي مع الجيش ، سيطرت بموجبه حركة القوميين العرب على وسط المدينة ، بينما احتفظ

الجيش بمواقعه في ضواحي المدينة . وكان ضرب مراكزنا المستمر بالقنابل يثير اعصابنا ويدب الذعر في قلوبنا . والى جانب ذلك ، فكثيراً ما قطع الجيش مدد الطعام عنا . لكننا كنا نتدبر أمرنا . وفي فترة ما ، انقطع الغذاء عن قطاعنا وتدنت معنوياتنا تحت تأثير الجوع ونيران مدافع الجيش . وكان في منزلنا نحو عشرة كيلوات من الطحين ، فعزمت على خبزها لإطعام المقاومين . لكنني عدلت عن ذلك. عجنتها كلها وقليتها بالزيت . وهكذا أصبحت تكفي لإطعام كتيبة بكاملها ، لا بضع عشرات من المحاربين . ومرت في خاطري صورة يسوع وهو يبارك الارغفة الخمسة والسمكتين ليطعم الجماهير . لكنني لم أصنع اية معجزة .

وجاء الدور الحاسم في هذا العمل ، حين قمت بايصال الخبز الى الصفوف ذلك اني وقعت بين نار الفريقين ، كل فريق يحسبني من الاعداء . انما يبدو ان أحداً منهما لم يكن على استعداد لقتلي . وكم ادهشتني سرعة ازيز الرصاص من حولي ، ومشاهدة معركة حقيقية ، خصوصاً وانا في وسطها . ولحسن طالعي ان أحد الرفاق عرفني من بعيد ، فأشار الى رجاله بالتوقف عن اطلاق الرصاص .

وفيما بعد ، تعلمت درساً آخر من دروس الحرب : كنت على استعداد لخنق اي جندي لبناني تقع يداي عليه ، حين دخل جندي الى بيتنا يطلب شربة ماء . فاجبته بانني أؤثر ان اعطيه سما يقتله على ان اعطيه جرعة ماء تطفىء عطشه . ففوجىء بكلامي هذا وقال : « ماذا يجعلك تفعلين هذا ؟ » فقلت : « لانكم تقتلون رجالنا ! » فابتسم واجاب بحذر : « لو كنا ، يا آنستي ، نصوب رصاصنا الى رجالكم والى المدينة ، لكان كل شيء الآن كومة من الرماد والانقاض . لدينا أوامر باطلاق الرصاص ، ونحن نطيع هذه الاوامر . لكننا لا نصوبه الى شيء ، لاننا لا نرمي الا الى تخويف رجالكم وايقافهم عند حدهم ، لئلا يحاولوا الهجوم علينا أو العبور الى الجانب الخاص بنا من المدينة . قولي لرفاقك ان يقعدوا حيث هم ، والا اضطررنا الى نسف قطاعهم بكامله » .

وكنت اصغي مع والدتي الى هذا الكلام ، فاجبته بأنه كاذب ، وانه يستحق الموت من العطش والجوع . لكن والدتي تحننت عليه وامرتني بأن اعطيه شربة ماء لقاء الخبر السار الذي حمله الينا . ففعلت ذلك بتردد ، مصرة على انه جندي عدو ويجب ان يعامل على هذا الاساس ، وصحت : « يجب ان نأخذه اسيراً » . واشار الى بندقيته وهو على الباب يضحك من تهديدي . ثم تحداني ان أعبر الى جانبه من المدينة اذا كنت على هذا القدر من الجرأة والشجاعة . وناشدته والدتي ان لا يطلقوا النار هكذا بضراوة على المدينة ورجالها المقاتلين ، فأكّد لنا ، بدوره ، انه لبناني يحب وطنه ولا يريد ان يراه يخرب .

وفي ١٩٥٨ ، وقد برهنت عن طيب معدني في المعركة ، حق لي ان أطلب ترشيحي لعضوية حركة القوميين العرب . وكانت والدتي مستاءة جداً من النشاط السياسي الذي كانت بنات العائلة يقمن به ، لكنها لم تمانع في ان يأخذ اخي محمود مكانه في صفوف المحاربين في الخنادق ، وفي ان يعود الى البيت في آخر الليل او يذهب في مهمات سياسية مجهولة تستغرق الاسابيع . ذلك ان محمود ، في نظرها ، رجل يعمل عمل الرجال . هكذا نشأت وتربت . وقالت ايضاً إنها تخشى كلام الجيران المعيب على اشتغال النساء في السياسة . وكانت تتحسب من ان يصبح العزل الجماعي من نصيبنا اذا خرجت اي منا عن الطريق المألوف . وكانت شقيقتاي تؤكدان لها انهما ناضجات وقادرات على تدبير أمورهما بأنفسهما ، وان الذين تتعاملان معهم هم رجال محترمون ، ذو اخلاق ومبادىء سياسة رفيعة . غير ان والدتي لم تقتنع . اما والدي ، فكان حائراً ومتخوفاً بعض الشيء ، لكنه مال الى جانبنا . وفي آخر الامر ، تعاون هو ومحمود على نجدتنا . فاقنعا والدتي بأن لا تعترض سبيل العمل السياسي الذي تقوم به شقيقتاي وكانت حجتهما في ذلك اننا حين طردنا من فلسطين ، لم تكن الصهيونية تميز بين الرجل والمرأة . والنساء كن يؤلفن اكثر من نصف الشعب الفلسطيني ، وهن ايضاً طردن من بلادهن . ودرّب الاسرائيليون نساءهم على القتال ومنحوهن

حقوقهن المدنية . واذا اردنا نحن ان نتغلب على الاسرائيليين ، فعلينا ان نحاربهم بسلاحهم . واستسلمت والدتي امام هذا السؤال الاخير : « هل تريدين تحرير فلسطين ؟ » فاجابت : « نعم » دون ما تردد . وقال لها محمود : « واذن ، لا يجوز لك ان تمانعي في اشتراك بناتك في الحياة السياسية . ألا توافقين ، يا امي؟ ». فابتسمت والدتي واجابت : « لا امانع في اشتراك زكية ورحاب . أما هذه الطفلة السياسية (واشارت الي) يجب ان تلزم البيت » . وهكذا اصبحت ضحية هذا الاتفاق ، لكن حق المرأة في العمل السياسي أقرّ به .

وكان من نتائج اقرار هذا المبدأ انه سيُسمح لي يوماً ما ان اتساوى بشقيقتي في تطبيقه . والى ان يحين الوقت ، عزمت على ان اتابع نشاطي السياسي في الخفاء . وفي ١٩٥٩ ، حين علمت والدتي انني اصبحت عضواً كاملاً في حركة القوميين العرب ، حاولت منعي من حضور الاجتماعات . ولم اشأ ان اجرح شعورها بالتلويح لها متباهية ببطاقة عضويتي ، فقلت لها انني كنت افعل ما فعلته دائماً ، وهو تأييد الحركة . لكنها لم تقتنع . وفي مساء أحد الايام ، كان هنالك اجتماع مهم صممت على حضوره ، فلجأت الى الحيلة . فاغتسلت ولبست بيجامتي لأوهم والدتي انني لن أخرج من البيت في تلك الليلة . ولعلها حسبت انها ربحت معركتها معي . وحين دنت ساعة الصفر ، بدأت بتنفيذ خطتي وانا بعد في بيجامتي ، فذهبت الى والدتي في المطبخ وقلت لها بلا مبالاة : « أحس بالضجر ، يا أمي ، وأرغب في زيارة صديقتي في بيتها المجاور » . فلم تعترض . وهكذا اسرعت الى مكان الاجتماع في نادي التضامن . ودهش سائر الاعضاء حين دخلت القاعة واخذت مكاني وانا في بيجامتي ، وحسبوا ذلك وقاحة وقلّة أدب . وعبثاً دافعت عن نفسي بذكر الاسباب التي حملتني على خرق قواعد الحشمة . فغادرت الاجتماع ناقمة على تزمت الرجال ونفاقهم . وساءلت نفسي : « كيف نحرر فلسطين والوطن العربي ، اذا كنا نحن انفسنا غير متحررين ؟ كيف ننادي بالمساواة ونبقي نصف الجنس البشري — اي الجنس

اللطيف – في القيود والاغلال ؟ » وعزمت على ان اثير هذه المسألة في نادي التضامن في صور . ولم تعرف والدتي بذهابي الى ذلك الاجتماع ، لكنها سرعان ما اقنعت نفسها بقبول رسالتي هذه في الحياة ونزلت عند مطالبي . ومضى عقد من السنين قبل ان تبدأ حركة القوميين العرب بالافادة افادة تامة من طاقات المرأة .

وكانت مدرسة اتحاد الكنائس الانجيلية غير مجهزة للتعليم الثانوي وما بعده . فكان علي ان انتقل الى مدرسة أخرى لمتابعة دراستي . فوقع الاختيار على مدرسة البنات في صيدا ، حيث اعطيت الفرصة للمرة الاولى لأتصرف تماماً على هواي . ورافقتني حريتي هذه الجديدة ، لكنني انزعجت بعض الشيء لأن قوانين المدرسة تقضي بان تعيش الطالبة في القسم الداخلي مدة سنتين قبل ان تصبح مؤهلـــة لامتحان البكالوريا . وكان هذا يعني انني سأخسر سنة واحدة من السنتين اللتين ربحتهما حين بدأت بالدراسة . على انني حسبت ان اعادة الصف الخامس الثانوي لم يكن بالمأساة ، وعزيت نفسي بأن ذلك يتيح لي فرصة للقيام بنشاط سياسي عظيم .

لكن خريف ١٩٦٠ ، كان موعد اجتماع قمة دولي في الامم المتحدة ، لا مجال فيه للتنافس الحاد بين القوى أو للحروب الاقليمية . كان كل شيء يبدو هادئاً وباعثاً على النظر ملياً في الامور . وذهب الرئيس عبد الناصر الى الامم المتحدة ، وبدا هناك أقل عنفواناً مـــن ١٩٥٦ . فالديبلوماسية ، على ما يظهر ، حلت محل الثورة . ولعل العالم الثالث بلغ حد الشيخوخة قبل اوانها . وكانت الجزائر هي البقعة المتأججة الوحيدة في العالم العربي . وهكذا كان علي ان اكيّف نفسي في بيئة اجتماعية وسياسية جديدة ، بعد تلك السنوات المضطربة في صور ، بانتظار مجيء مسيح ثوري آخر . فلم يجيء . وكانت فلسطين في حاجة اليه . لكن الجبهة الشعبية لم تخرج الى حيز الوجود الا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ .

كان وقت الفراغ في صيدا طويلاً ، والنشاط قليلاً . وها انا هنا ،

لا في مكان يقتصر سكانه على الفلسطينيين . وكانت هذه المدرسة معادية لكل ما هو سياسي ، اي قبراً لكل ثوري . وكان سكناي في منزل يضم اثنتي عشرة طالبة غيري ، في جملتهن بعض الفلسطينيات ممن حسبت انني اقدر على التفاهم معهن . لكنه اتضح لي ان فلسطين لهن شيء من الماضي السحيق . كان همهن ان يحصلن على « العلم » وينعمن بزواج سعيد . ولم أيأس ، بل حاولت أن اعود نفسي على طريقة حياتهن . وكنت في طبيعتي مرحة احب الناس ، لكنني وجدت نفسي وحيدة بين هؤلاء الطالبات الاحدى عشرة . وتشجعت حين استرعى انتباهي وجود طالبة اخرى وحيدة مثلي . كان اسمها « ماكنايت » ، وهي زنجية اميركية تكبدت عناء السفر من اميركا لتعمل مدرسة في صيدا . وادهشني ذلك في البداية ، الى ان اطلعت على سبب مجيئها . ففي لبنان تعامل كانسان وتعطى حقها من الاحترام الذي درجنا على إعطائه للمعلم في العالم العربي . اما في اميركا فهي ، بسبب من لونها الاسود ، ادنى من مرتبة الانسان .

وسرعان ما توطدت عرى الصداقة بيني وبين الآنسة ماكنايت . وكان طبيعياً لفتاتين سوداوين في صيدا ان تتكاتفا وتتبادلا العون والعزاء . وما أحلى ما كانت عليه الآنسة ماكنايت . كانت فتاة سريعة الخاطر ، مليئة بالحيوية ، لا تغيب عن ثغرها الابتسامة وهكذا كانت نموذجاً لما يجب ان تكون عليه شقيقة كبرى . غير اننا اختلفنا في وُجهة النظر السياسية . وكم شق عليها كراهتي لليهود ، فأوصتني بالعزوف عن اطلاق الاراء المتسرعة . وقالت بان اليهود ليسوا كلهم صهيونيين ، بل ان بعضهم ضد الصهيونية . وفكرت طويلاً بهذا التمييز وحاولت ان اقنع نفسي به .

ودنا الاحتفال بذكرى وعد بلفور (٢ تشرين الثاني ، نوفمبر) وتقسيم فلسطين ، ٢٩ تشرين الثاني) . فسنحت الفرصة لمعرفة أين يقف كل من في تلك المدرسة . فأخذت أحرض على القيام باضراب يشمل المدارس كلها ، على الطريقة التي درجت عليها في صور ، احتجاجاً

على الوعد والتقسيم . وكانت مدرستي في صور تقود التظاهرات وترغم المدارس الاخرى على الاقتداء بها . لكن مدرستي في صور غير مدرستي في صيدا . وتفهمت الآنسة ماكنايت موقفي هذا ، الا ان فكرة القيام باضراب عام ، وحمل المدارس على اغلاق ابوابها ، وتنظيم التظاهرات والهجوم على مراكز الشرطة ، لم يرق لها . كانت متخرجة من مدرسة مارتن لوثر كينغ الداعية الى اللاعنف . لذلك آمنت بالصلاة وتربية العدو . أما انا ، فكنت ثورية محاربة ، ولدت في صميم العنف الثوري .

وبالرغم من اختلافنا في الرأي ، بقيت عرى الصداقة متينة بيني وبين ماكنايت . فهي ، كأحد ابناء جنس مضطهد ، لم يكن في وسعها الا ان تعطف على قضيتي . فاستعملت نفوذها لاقناع رئيسة المدرسة ، وهي عربية لبنانية ، بأن تسمح لي بتنظيم تظاهرة سلمية على ارض عربية تأييداً للقضية الفلسطينية . فوافقت الرئيسة بتردد ، اعتقاداً منها انها بذلك تمنن جيرانها الفلسطينيين . على ان التظاهرة أُرجئت من تشرين الثاني (نوفمبر) الى ١٥ أيار (مايو) ١٩٦١ ، وهو الذكرى الثالثة عشرة لقيام دولة الصهاينة . وفي تلك المناسبة القيت اول بيان لي عن فلسطين في حفل عام .

في ذلك البيان تكلمت عن تاريخ فلسطين والصهيونية وآمالي في المستقبل . فقلت ان الصهيونية كمفهوم سياسي ظهرت الى الوجود عند مطلع القرن العشرين ، وكانت في البداية فكرة دينية تنطوي على رغبة اليهود المتقدمين في السن ان يحجوا الى اورشليم لقضاء ما تبقى من حياتهم والموت في الارض المقدسة . والصهيونية ، كتعبير ، صاغها بن أشر في ١٨٨٦ ، وهو يهودي اوروبي لم تطأ قدماه ارض فلسطين . وبقي على هرزل ان يبدأ بالناحية السياسية من الصهيونية في كتابه « الدولة اليهودية » . وكان هرزل نمساوياً مندمجاً في بيئته ، لم يعن الا قليلاً باليهود ، قبل ١٨٨٠ . لكنه بعد ان كتب ، كمراسل سياسي ، عن

محاكمة درايفوس في باريس ، انضم الى الحركة الصهيونية . ذلك انه استاء كثيراً عندما رأى فرنسا ، وهي أرقى بلد في اوروبا ، تضطهد اضطهاداً صارخاً أحد ابناء طائفته وتجعل منه قميص عثمان في جريمة هو براء منها . وشعر هرزل ان اليهودي لا يصير إنساناً عادياً ويعيش حياة الطمأنينة والامان الا في دولة يهودية . وهكذا عمد الى بذل كل قواه وعلاقاته الرأسمالية لحشد اليهود الاوروبيين . فدعاهم الى المؤتمر الصهيوني الاول في بازل ، في ١٨٩٧ . ووافق هذا المؤتمر على مشروع ، فخرجت المنظمة الصهيونية العالمية الى حيز الوجود برئاسته . وسعى هرزل الى الحصول على مساعدة قيصر المانيا في سبيل تحقيق حلمه . وسافر الى استنبول في طلب تأييد الباب العالي . وكان يقول ان الرأسمال اليهودي ، والمعرفة والمهارة اليهوديتين ، وما الى ذلك ، يوضع كله تحت تصرف برلين واستنبول اذا فتح الباب العالي امام اليهود ابواب جنوبي سوريا ، وفلسطين . لكن الباب العالي رفض هذا الطلب ، خوفاً من ردة فعل الرعايا العرب .

وهكذا اضطر هرزل الى البحث عن المعونة في مكان آخر ، فوجدها في بريطانيا . وكانت بريطانيا دولة استعمارية تحتل مصر والسودان والخليج العربي . وكرر هرزل على مسامع بريطانيا ما يقدمه اليهود لها من منافع لقاء تأييدها ، وساق الحجة تلو الحجة على ان دولة يهودية في فلسطين من شأنها ان تكون سداً منيعاً في وجه اية ثورة عربية ، وحارساً محلياً لمصالح بريطانيا في المنطقة ، بما في ذلك قناة السويس وطرق المواصلات الى الشرق الاقصى . وهكذا كان منذ البداية أن فكرة قيام دولة اسرائيلية انما بيعت للدول الغربية على انها أسفين يبقي العرب منقسمين . ورحبت بريطانيا بالتعاون مع البرجوازية اليهودية العالمية واقترحت انشاء الدولة اليهودية في مناطق داخل الارجنتين ويوغندا . ومع ان هرزل كان يفضّل انشاء الدولة اليهودية في فلسطين ، الا انه وافق على يوغندا واقنع زملاءه في مؤتمر المنظمة اليهودية العالمية المنعقد في ١٩٠٣ . وبعد حين ، مات هرزل وقبر معه مشروع يوغندا . واقترحت بريطانيا

ايضاً منطقة العريش في مصر ، على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وعلى مقربة من فلسطين . لكن غلاة اليهود رفضوا هذا الاقتراح . (في خريف ١٩٧١ ، اصبحت اسرائيل تحتل كل فلسطين ، بالاضافة الى العريش وسينا ومرتفعات الجولان) .

وفي هذه الاثناء انشئت المستوطنات اليهودية في فلسطين وتسلل اليها آلاف اليهود ، بسبب قصور الحكومة العثمانية وفساد ادارتها . وحين جاءت ١٩١٧ ، وهي السنة التي فيها انتزع اليهود من بريطانيا وعد بلفور ، كان عدد اليهود في فلسطين لا يزيد عن ١٠ ٪ من مجموع السكان . ومع ذلك ، بلغ من صفاقة واضعي وعد بلفور ان يشيروا الى شعبنا على انه « السكان غير اليهود » ، عوضاً عن ان يشيروا الى اليهود على انهم اقلية يجوز ان يكون لها حقوق دينية في فلسطين . وكان البريطانيون ، عندئذ ، اقوياء ويحبون ان يكون لهم اصدقاء اثرياء . اما اليهود ، فكانوا على اتم الاستعداد لدفع اي ثمن ، وعقد اية صفقة وبذل اية تضحية وارتكاب اية جريمة ، لقاء الوصول الى هدفهم . وهكذا فعلوا ، فقامت دولة اسرائيل في ١٩٤٨ على اشلاء الشعب الفلسطيني . ومما سهّل نجاحهم بهذه السرعة اقتسام بريطانيا وفرنسا الشرق العربي فيما بينهما وجعله سبع دويلات فرضوا عليها «وصايتهم» . ثم عمد الحلفاء الى سحق الحركة القومية العربية والقضاء على العناصر الثورية التي اطلقت الشرارة الاولى للثورة العربية في ١٩١٦ .

وما هو اهم من هذا ان بريطانيا سمحت للصهيونيين بأن يقيموا سلطة مزدوجة معها فلسطين ، بينما انكرت ذلك على العرب . وهكذا مال الميزان في صالح الصهيونية . ولاحباط هذه المؤامرة ، نهضنا للثورة مراراً على الانتداب والاستيطان الصهيوني ، وقاتلنا في سبيل استقلالنا الوطني. لكن العدو كان في صفوفنا ، وكانت طبقتنا الحاكمة مسؤولة، في آخر الأمر ، عن خيانتنا . وكان الاضراب العام في ١٩٣٦ نموذجاً بليغاً ، قام به الفلاحون والعمال واجبروا الطبقة العليا على الانضمام اليهم . وهم انما فعلوا لاجهاض الثورة وتضحيتها على مذبح منافعهم

الخاصة . وحين نشبت حرب ١٩٤٨ ، تركنا حكامنا وزعماؤنا في مهب الريح . وهكذا كنا بلا قادة ، ومشتتين ، ولا نصير لنا . فلا عجب ان يقتلع الصهيونيون بلادنا من قلوبنا ، دون ما عناء وبثمن بخس .

وكان من نتائج افلاس قادتنا الاقطاعيين وانهيار بنياننا الاجتماعي ان لاحت في الافق العربي تباشير الانظمة العسكرية . وهي انظمة تقدمية ، اصلاحية ، عروبية . وفي هذه الاثناء ، استمر الصهيونيون في اقامة مجتمع عرقي ، خاص بهم ، حيث الصهيونيون الشرق — اوروبيون ، والبولونيون ، والروس ، يسيطرون على الحكم ، والاحزاب السياسية ، ونقابات العمال ، والادارة الحكومية ، والحقل التجاري . واصبح اليهود الافريقيون — الاسيويون هدف التمييز العنصري ، والاستغلال الطبقي ، والاحتقار الاوروبي . أما عرب فلسطين ، وهم اصحابها الشرعيون ، فوضعوا تحت الادارة العسكرية واستعملوا ، الى جانب اليهود العرب ، مصدراً رخيصاً لليد العاملة .

وختمت بياني هذا بالدعوة الى تحرير فلسطين . ذلك ان حالة من هذا النوع لا يمكن استمرارها ، وعلينا ان لا نسمح لها بالاستمرار . ونحن قادرون على وضع حد لها بالوحدة العربية وتحرير فلسطين . وهدفنا هذا يمكن ان نبلغه اذا توسعت الجمهورية العربية المتحدة واصبحت الدول العربية كلها دولة واحدة . فمن واجبنا ان نناضل في سبيل امة عربية واحدة ، ومن اجل الوحدة والحرية والاشتراكية . وعلينا ان نقهر عدونا الاول ، اميركا ، مصدر صواريخ هوك الاسرائيلية ، والاستيلاء على مواردنا النفطية . وعلينا ان نقتدي باخواننا الجزائريين لتحرير فلسطين . والحياة لفلسطين العربية الثائرة .

وصفق الطلاب لبياني بكل قلوبهم . وبدا انهم اعجبوا باطلاعي على تاريخ فلسطين والتزامي بالوحدة . وفي تلك اللحظة لم يكن أحد منا يتكهن بانقسام الجمهورية العربية المتحدة في ٢٨ ايلول (سبتمبر)

١٩٦١ ، بانسحاب سوريا منها . وهكذا خيبت امل العرب في الوحدة واجبرت الشعب الفلسطيني على اعادة النظر في خططه الرامية الى تحرير فلسطين . على ان انقسام الجمهورية العربية المتحدة لم يكن سوى خيبة امل مؤقتة . ذلك لأنه اسفر عن نشوء الثورية الفلسطينية ، فاذا بالمنظمات الفلسطينية المختلفة تنبت في كل مكان وتنمو في السنوات الثلاث او الاربع التالية . واطل فجر جديد على الشرق العربي ، بينما الغرب العربي اخذ يشق طريقه الى الاستقلال في الجزائر بقوة السلاح .

وفي ذلك الربيع نلت شهادة البكالوريا ورجعت الى صور في الصيف ، على امل ان اتابع دراستي في الجامعة الاميركية في بيروت عند حلول الموسم الدراسي المقبل . وكانت صور في ذلك الصيف بؤرة الروح القومية ، يثار ويناقش فيها كل ما يخطر بالبال من قضايا تتصل بمستقبل العروبة . على ان حركة القوميين العرب كانت في فوضى . لكننـــا تشجعنا لان عبد الناصر كان يصنع الصواريخ والاساطيل . وفي ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٦٢ ، أحيا عبد الناصر ذكرى مرور عشر سنوات على الثورة المصرية باستعراض الصواريخ المصنوعة في مصر ، وكذلك البوارج والدبابات والطائرات . ثم اعلن امام العالم ان الصواريخ المصرية تصل الى جنوب بيروت . وحيّا هو وعبد الحكيم عامر القوات المسلحة ، كما لو كان كل منهما ستالين وتشرشل وروزفلت في شخص واحد . واستولى علينا الحماس وقلنا : ها ان اسرائيل ، بعد طول انتظار ، اصبحت على مرمى الصواريخ العربية . واعلن عبد الناصر ايضاً ان الاسطول المصري اقوى من اي اسطول في شرق البحر المتوسط ، فاعتقدنا ان الوقت ربما حان للانتقام حتى من تركيا لمذابحها في الحرب العالمية الاولى .

وعندما جاء صيف ١٩٦٢ وجدت نفسي مرة ثانية وجهاً لوجه امام مشكلة كوني امرأة فلسطينية عربية . فالنساء في الغرب يتكلمن على نوعين من الاضطهاد : الطبقي والجنسي . أما انا ، فكان عليّ ان اواجه اربعة انواع : القومي ، والاجتماعي (ثقـــل التقاليد والعادات) ،

والطبقي ، والجنسي . وفي تلك المرحلة من حياتي كنت ميالة الى قبول الاضطهاد لانني امرأة . وكانت عائلتي تدعي المساواة ككل عائلة عصرية ، من دون ان تمارسها . ومع انني نجحت في امتحان البكالوريا بامتياز ، بينما فشل اخي محمود ، الا ان عائلتي أصرت على ارساله الى الجامعة عوضاً عني . لكنني ، في آخر الامر ، تمكنت من دخول الجامعة الاميركية في بيروت ، بفضل اريحية اخي محمد الذي كان يعمل مهندساً في الكويت . وكان معدل علامتي ٨٧ ، وهو أمر يخولني الحصول على مساعدة دراسية ، غير انني ، لسبب ما ، حرمت منها . لكنني فرحت باجتياز امتحان الدخول ، وسارعت الى تسجيل اسمي خوفاً من تحويل اتجاهي نحو العمل المكتبي العقيم ، او الزواج وانتاج الاولاد .

وحين وصلت الى بيروت في اواخر آب (اغسطس) ١٩٦٢ ، لم اكن املك من حطام الدنيا سوى خمسين ليرة لبنانية . وظننت ان في امكاني ان اسجل اسمي وادفع ما علي بالتقسيط . على ان دائرة التسجيل في تلك الجامعة لم تكن تؤمن بهذا المبدأ الاميركي . وعبثاً ذهبت حججي لاقناعها بتسجيلي ، لئلا يحتل مكاني طالب آخر . لكن فتاة تعمل في الدائرة اخذتها الشفقة علي ، فسألتني : « كيف تنوين الحصول على الرصيد المطلوب منك ، يا آنسة ؟ » فاجبتها : « لي اخ في الكويت وعدني بدفع نفقات دراستي اذا نجحت في امتحان الدخول . وها انا نجحت » . فقالت لي : « اذهبي وابرقي الى اخيك ! » وهكذا فعلت ، ثم جلست انتظر . ومر يوم قبل ان يصلني علم بأن المال في طريقه الي . فابتسمت لنفسي بارتياح : كان اخي ، ككل خيار العرب ، يبر بوعده . واسرعت الى الجامعة ودفعت القسط الذي علي .

وفي الجامعة تابعت اربعة موضوعات مطلوبة من طلاب « الفرشمن » : الكيمياء ، والادب العربي ، واللغة الانكليزية ، والرياضيات . وكان معلم واحد فقط من معلمي من اصل عربي ، لكنني لم أجد اي فارق بينه وبين المعلمين الثلاثة الآخرين . كانوا كلهم اميركيي المظهر والسلوك والتصرف ، اشبه باولئك الذين يصلحون

جواسيس في المخابرات المركزية الاميركية ووزراء . ولا ادري ايهما كان اهون الشرين .

وكانت دراستي الشكلية في الجامعة الاميركية ، اما دراستي الفعلية ، فكانت في قاعة محاضرات النادي الثقافي العربي في بيروت وبين صفوف حركة القوميين العرب . ففي النادي الثقافي العربي تعرفت الى كبار المثقفين العرب ، من امثال جوزيف مغيزل ، رئيس النادي ، ومحسن ابراهيم ، رئيس تحرير جريدة الحرية والناطق الرسمي باسم حركة القوميين العرب . والتقيت هناك ايضاً تيسير قبعه ، رئيس اتحاد الطلاب الفلسطينيين العام . وجماعة الطلاب والمثقفين الذين اجتمعت اليهم في تلك السنة الدراسية يحتلون الآن مراكز قيادية في الجبهة الشعبية واليسار العربي .

اما الجامعة الاميركية ، فكانت لي بمثابة مقبرة . ذلك انها معهد لتخريج اولاد الاثرياء في الشرق الاوسط ، ونادٍ اجتماعي للنخبة الاستعمارية في العالم العربي . فحكومة الطلاب ممنوعة ، والادارة اشبه بشركة اميركية كبرى . وكان الطلاب الذين لا يدفعون اقساطهم المدرسية كاملة يمنعون من حضور الدروس ، وكان النشاط الوحيد المسموح به على ارض الجامعة هو الرقص ، واقامة الحفلات ، والتمثيل المسرحي . ولم يكن يؤذن بالنوادي السياسية المفتوحة ، او بالتظاهر ، او بالاحتفالات السياسية ، أو بدعوة محاضرين زائرين .

وكنت اقيم في بناية جويت ، وهي نزل خاص بالطالبات ، حيث تقاسمت غرفتي مع فتاة اميركية اسمها جودي سينجر . وكم ادهشتني حياتها الاجتماعية . ففي اسبوع واحد ، كانت تخرج ثلاث مرات مع ثلاثة اصدقاء مختلفين وتقبّل كل واحد منهم بالعاطفة ذاتها التي تقبّل بها الآخرين ، وذلك في البهو الكبير امام الكثيرات من الطالبات . وسألت جودي كيف يمكنها ان تفعل ذلك ، فاجابت بلامبالاة : « كله عال ، ولهو اميركي بريء لا قيد له ولا شرط » . وضحكت معجبة بتفلتها الاخلاقي .

وكنت انا وجودي اكثر من فتاتين تتقاسمان البيت في غرفة واحدة . كانت تحاضرني عن طريقة الحكم الاميركية ، والقيم والنظام الاجتماعي ، وكنت احاضرها عن العرب . وكانت متحررة مولعة بالرئيس كنيدي ، وكنت معجبة بالرئيس عبد الناصر . ووضعت صداقتنا على محك الامتحان في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٢ ، ذلك الشهر الحاسم في اميركا والعالم العربي . ففي ٢٢ منه هدد كنيدي بغزو كوبا ، ما لم تنزع الصواريخ السوفياتية من قواعدها وتشحن من كوبا . وكان عبد الناصر في الثاني منه ارسل رسمياً قوات من الجيش المصري الى اليمن لدعم النظام الجمهوري الذي اسقط المتخلف القديم . وطال الجدل الحاد بيني وبين جودي في هذين الحدثين . ومع اننا افدنا منه كل الافادة ، إلا ان احداً منا لم يقتنع بوجهة نظر الآخر .

كانت جودي ترى ان من حق اميركا ان تطالب بنزع الصواريخ من كوبا ، لانها تهدد أمن بلادها . أما انا ، فكنت ارى ان من الاجرام والوحشية ان تهدد اميركا بحرب نووية ماحقة ، ما لم تفز بما تطالب به .

واعتبرت جودي ان ارسال قوات عسكرية عربية الى اليمن هو بمثابة غزو . أما انا ، فاعتبرت ذلك واجباً اخلاقياً مترتباً على الرئيس عبد الناصر ، وبادرة نبيلة من شأنها انقاذ الثورة من خصومها الفاسدين . واصرت جودي على ان عبد الناصر رجل طموح ، هدفه الاستيلاء على نفط الخليج لاستخدامه في تعزيز مجده الشخصي . وكان ردي على ذلك ان لنا حقاً في هذا النفط ، وانه يجب ان يستخدم لخير العرب . وقالت جودي بأن نشاط عبد الناصر جزء من خطة سوفياتية ترمي الى احتلال العالم العربي . فشرحت لها اننا لا نناضل في سبيل طرد القوى الاستعمارية والامبريالية من منطقتنا لتسليمها على طبق من فضة الى قوة جديدة جبارة .

وهكذا كانت جودي مواطنة امبريالية ، مهما انطوت عليه آراؤها من نزعة تحررية ومثالية . وكنت انا فتاة عربية فلسطينية لا وطن لي ، اعيش في المنفى ، في مستوطنة اميركية قائمة في رأس بيروت . كان

لها ان تخسر كل شيء ، وكان لي ان اربح كل شيء . فالحق ان وعي الانسان الاجتماعي رهن بأوضاعه الاجتماعية .

ومع ان النشاط السياسي كان محرّماً على أرض الجامعة ، والعمل الذي كان يقوم به اتحاد الطلبة الفلسطينيين ضعيفاً وبطيئاً ، إلا اننا التزمنا بسياسة المواجهة في ربيع ١٩٦٣ . وكان اعلان الجمهورية الفلسطينية في مدينة نابلس هو الذي اتاح لنا الفرصة . وغني عن القول ان نابلس ، قبل هذا الاعلان وبعده ، كانت تحت قبضة الملك حسين وجنوده البدو . على انه كان هنالك قلق يعكس استياء الفلسطينيين من الحسين ، ومن الدول العربية ، ومن الاوضاع الاجتماعية عموماً . وفضلاً عن ذلك ، برزت منظمات فلسطينية جديدة على المسرح السياسي ، مما حمل الدول العربية في الخريف على البدء بالكلام على الوحدة الفلسطينية . أما نحن في الجامعة الاميركية ، فقمنا بتظاهرات تؤيد المطالب الفلسطينية بمكان لها تحت الشمس . واعارت ادارة الجامعة ، في البداية ، اذناً صمّاء لنشاطنا ، على امل ان يكون ما حدث في الربيع ما هو الا ظاهرة عابرة .

ودفعنا الى الاسراع في العمل ما أشيع عن ان السفارة الاردنية استدعت الطلاب الفلسطينيين وانذرتهم بسحب جوازات سفرهم الاردنية ، اذا هم لم يكفوا عن اثارة الاضطراب . وكان ردنا على ذلك مضاعفة التظاهر ، مما اسفر عن ازدياد اثره ونطاقه ، بحيث كاد يشمل جميع السياسيين القدامى في بيروت وقسماً مهماً من الطلبة الاجانب . (وكانت هذه هي المرة الاولى التي اشترك فيها الطلبة الاجانب في نصرة قضية الفلسطينيين منذ ١٩٤٨ ، حين قدم الرئيس دودج احتجاجاً الى الرئيس ترومن على انشاء دولة اسرائيل ، فعزل من منصبه) .

وشمرت ادارة الجامعة عن ساعدها لاتخاذ اجراء مضاد . وفي مثل هذا الجو المتوتر العاصف ، اقترح اتحاد الطلبة الفلسطينيين ان تشكّل لجنة طالبية لتمثيل الطلبة الفلسطينيين امام السفارة الاردنية . وشكّلت اللجنة ، وكان في عداد اعضائها بعض كبار الطلبة الاجانب . ووقع

الاختيار علي انا ايضاً . وفي اليوم نفسه ، سارعنا الى السفارة الاردنية وقلنا للسفير اننا مصممون على ذبحه من الوريد الى الوريد اذا سحب جوازات سفرنا . وتوليت معظم الكلام يؤيدني زملائي في كل حرف منه . وبعد وصولنا الى السفارة بلحظات ، قام رجال الدرك اللبناني بتطويق السفارة ، كما اجتاح الغرفة التي كنا مجتمعين فيها عدد كبير ممن بدا عليهم انهم رجال مسلحون تابعون للمخابرات . وظهر ان السفير كان على علم بكل شيء ، مع انه انكر استدعاء رجال الشرطة . وفي حضور اعضاء اللجنة كلها ، اضطر الى تبديل موقفه والقول لرجال الشرطة اننا لسنا عصابة من المجرمين ، بل لجنة طالبية تقوم بزيارته . وهكذا خرجوا من الغرفة .

واستأنفت تهديداتي العنيفة واصررت على الحصول من السفير على تأكيدات تضمن عدم الغاء جوازات سفرنا . فقال السفير ان لا تعليمات لديه باعطاء مثل هذه التأكيدات ، الا انه مفوض بتكذيب ما اشيع عن نية الحكومة الاردنية في الغائها . ثم طلب الينا تصديقه في ما يقول . وشعرت بنشوة النصر ، فشربت القهوة العربية مع السفير واكّدت له اننا سنعود اذا اتخذت اية اجراءات ضد الطلبة الفلسطينيين . واذ كنت احدثه بالانكليزية ، خيّل اليه انني غير عربية . لكنني ، وانا اودعه ، خاطبته بالعربية مؤكدة له انني عربية وفلسطينية ، وان كل امرأة عربية ستكون مثلي في المستقبل . فابتسم بحنان الابوة وحيانا مودعاً .

وفي ذلك الربيع ، كان عليّ ، مرة اخرى ، ان اواجه مشكلة كوني امرأة ، ذلك ان حركة القوميين العرب قررت ان تدرب اول فرقة شبه عسكرية من طلاب الجامعة . وكنت في طليعة الذين قدموا طلب الانضمام الى هذه الفرقة . وصعب على المسؤولين ان يرفضوا طلبي ، نظراً لسجلي الحافل بالخبرة والنشاط وكوني عضواً في اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة الفلسطينيين . الا انهم لجأوا الى المداورة ، فحاولوا اقناعي بالعدول عن رغبتي هذه ، وذلك لقساوة الطقس ، والارهاق الجسدي ، والحرج الذي يثيره وجودي مع افراد تلك الفرقة . فأكّدت

لهم انني مستعدة للتغلب على كل هذه المصاعب ، مما اضطرهم ، في آخر الامر ، الى قبول طلبي .

كان النشاط السياسي ممنوعاً على أرض الجامعة ، غير ان حركة القوميين العرب قامت كمنظمة سريّة على اساس الخلايا . وكنت مسؤولة عن توزيع المناشير في بناية جويت والصاق البيانات على الاشجار في تلك المحلة . وكان ذلك في الخفاء ، إما في الصباح الباكر أو في سكون الليل . وصدف مرة ان قبض عليّ احد الحراس ، وبعد ان انذر وهدد ، تبين انه من اعضاء الحركة السريين . وكم سرني ان اعثر بزميل في منتصف ذلك الليل . وأصبح منذ ذلك الحين يزودني بالمعلومات الخاصة بأوقات الامان . وكان عقاب القبض عليّ ، الطرد من الحركة بلا محاكمة . وكنت اعمل وحدي في بناية جويت ، فاضع المناشير في صناديق البريد واندد ، في الوقت نفسه ، بهؤلاء الذين يفرضون علينا قراءة مثل ذلك الكلام السخيف . وكان بعض الطالبات يتصدّين لي ، بين الحين والآخر ، ويدافعن عن واضع المناشير ، بحجة ان ذلك يتيح لهن الاطلاع على ما يجري والالمام بمختلف الآراء . وكم افدت من هذه الحيلة في معرفة الطالبات اللواتي كن ذوات ميل سياسي .

ولم أكشف أمر عقيدتي القومية أو التحاقي بمنظمة سرية للطلبة كمجموع . لكن الادارة لم يكن ينقصها الدهاء ، فعرفت انني احمل لواء القومية في بناية جويت . وذات مرة بعدما وزعت علناً بعض المناشير الخاصة بذكرى مرور خمس عشرة سنة على قيام دولة اسرائيل ، استدعتني العميدة الى مكتبها وحدثتني بانكليزية سريعة ، غاضبة ، متأمركة ، تجاهلت انني فهمت منها حرفاً . فغضبت كيف لا تعرف طالبة في الجامعة اللغة الانكليزية ، واستدعت سكرتيرتها للعمل كترجمان.

وسألتني العميدة اذا كنت اطلعت على قوانين الجامعة ، فأجبت بالايجاب . ثم سألتني : « هل تعلمين انه ، بموجب المادة السادسة ، يجوز طردك لانك وزعت مناشير سياسية دون ما اذن ؟ » فاجبت : « نعم » . فقالت : « لماذا فعلت ذلك ؟ »

وببراءة قلت لها انني لا اعتبر ما كنت أوزعه ذا صلة بالسياسة . فتناولت احد المناشير من يد السكرتيرة وقرأت فقرات منه بصوت عال ، ثم قالت : « الا تنطبق على هذا المنشور احكام المادة السادسة ؟ » فاجبت بانني لا أعلم كيف يكون المنشور السياسي وانا ، على كل حال ، لا افهم ماذا كانت تقول . فشرعت العميدة المتحررة المسكينة تشرح لي ان المنشور السياسي هو بيان يفسر ، ويدافع ، ويدعو الى موقف سياسي . فوافقت على ان شرحها رائع ، لكنه لا ينطبق على هذه القضية ، لان فلسطين والدفاع عنها أمر حيوي حي . ففلسطين في نظري ، ليست موضوعاً سياسياً . انها مسألة حياة او موت ، ولا يجوز لاحد ، خصوصاً اذا كان اميركياً لا يعرف العربية ، ان يعلمني كيف اتصرف في هذه المسألة وكيف اناضل من أجل بلادي . لكن العميدة اعتبرتني طالبة مشاكسة تحتاج الى تأديب ، فهددتني بالطرد . فما كان مني الا ان اخذت اصرخ في وجهها بالانكليزية واتهمها بأنها عميلة المخابرات المركزية الاميركية ، وانها في الجامعة تخدم مصالح البنتاغون والاحتكارات البترولية . وخرجت من مكتبها وانا اهتف : تحيا فلسطين ! تحيا حركة القوميين العرب ! تحيا الثورة !

وفي ربيع ١٩٦٣ ، أنهيت صف « الفرشمن » لكن بدون امتياز وكان املي ان اعود الى الجامعة لمتابعة دراستي ، غير ان المال لم يكن متوافراً . فكان عليّ ان افتش عن عمل . وجعلني انقطاعي مؤقتاً عن متابعة الدراسة اعيد النظر في قيمة تحصيلي العلم ، على وجه الاجمال . فخطر لي ان هذه القيمة لا تساوي شيئاً ، وان بعض شرارات الحياة في سنوات دراستي كانت تلك التي تتصل بالنشاط السياسي الثوري ، وذلك خارج المنهاج الدراسي . وفي السنوات الثلاث او الاربع الاولى ، وجدت متعة فائقة في مطالعة التاريخ والادب . لكن هذه المتعة تحولت في السنوات الاخيرة الى الرياضيات والكيمياء ، فعزمت على التخصص بالعلوم الصيدلية او بالزراعة . فالزراعة ضرورة قصوى . ذلك لاننا اذا عدنا الى فلسطين ، فسنحتاج الى زراعة الارض على اسس علمية

لنبرهن للعالم ان في وسعنا استغلالها افضل من الصهيونيين .

وفي السنوات الثلاث الاولى من دراستي الثانوية قرأت عن شخصيات تاريخية مهمة : لنكولن ، ونابوليون ، وهتلر ، ولينين . فاعجبت بها جميعاً ، بادىء الأمر . وللوهلة الاولى أعجبت بلنكولن كرجل متحرر في زمنه ، وبلينين كأعظم صانع للتاريخ ، يتبعه مايو ، وهو ، وغيفارا . وخُيِّل اليّ انني اعجبت بهتلر لانه كان عدوّاً لليهود ، لكنني وجدت فيما بعد انه صنف العرب في ادنى مراتب الشعوب قبل الغجر واليهود . وكم دهشت لفتوحات نابوليون وقدرته على اجتياز جميع المصاعب ، الى ان اكتشفت انه فعل ذلك كله في سبيل مجده الشخصي .

وفي الادب قرأت لديكنز وشو ، فاحببت آثارهما ، حتى انني حاولت مرة تقليد شو في إحدى مقالاتي . وصرفت النظر عن شكسبير ، لانني اعتبرته مؤلفاً معقداً ، يعشق الفخفخة والمباهاة . ومن الشعر العربي أحببت شعراء العصرين الاموي والعباسي . وهذا كل ما اتذكره من دراستي . وحيث انه كان لي متسع من الوقت في ١٩٦٠ — ١٩٦١ ، فانني طالعت ما كتبه غاندي . وكم احببت نزاهته الاخلاقية ، لكني شعرت انه ولد عبداً وظل طول حياته عاجزاً عن ان يتخطى عبوديته .

اما بخصوص العلاقات الشخصية والاجتماعية ، فاني عشت حياة « عادية » بالنسبة الى فتاة عربية . ولمدة ست سنوات ، تعلقت بزميل لي فلسطيني يمت بنشأته الى الفلاحين . كان حذره الشديد من الفتيات امراً اثار في البداية ، حب الاستطلاع عندي . لكني اكتشفت ، فيما بعد ، كرهه للمرأة ، وان هذا الكره نجم عن مشاهدة أمه يغتصبها الجنود الاسرائيليون ، فيما كانت عائلته في طريق الهرب من منطقة صفد في ١٩٤٨ . وما ان أصبح قادراً على ان يعيل نفسه ، حتى هجر أمه . ومن يوم ذهبت الى الجامعة الاميركية لم أره او أسمع عنه . ولعله الآن في عداد محاربينا أو ضحايانا . او لعله فقد الامل واستسلم الى عيشة بائسة في احدى المدن العربية .

وكان لي من اعاشره تماماً ، لكني لم اقع في غرام أحد . وكلما كبرت ، زاد تعلقي بالثورة .

٣ – اللجوء الى الكويت

في الكويت ، كما في الخليج العربي ، كل شخص غير كويتي
هو اجنبي ، ما عدا الانكليز والاميركان واذنابهم .

كاتب قاروني

نشأت فكرة القومية العربية في القرن التاسع عشر . وكان روادها بعض الأدباء والكتاب الأحرار الذين اطلعوا على الفكر الاوروبي في الجامعات البريطانية والفرنسية . وسارع الى تبني هذه الفكرة جماعة الطلبة والمصلحين ، فأسسوا النوادي العربية . وهكذا كان المثقفون العرب في الطليعة . وانضم الجنود والضباط في الجيش العثماني الى المثقفين في مطلع القرن العشرين ، لا سيما عندما عمد العثمانيون الى اتباع سياسة التتريك . وكان القوميون العرب ، في ذلك الحين ، يفتقرون إلى وضوح الفكرة القومية في اذهانهم ، فضلا عن وجود مخطط معين يشمل الشعب العربي كله . وكانت الفكرة القومية « شرقية » لا غربية ، بمعنى انها تتناول دول الهلال الخصيب ، لا شمال افريقيا . حتى ان رجالا بارزين من امثال جمال الدين الافغاني ، الذين دعوا الى « الانبعاث الاسلامي » ، قصروا عن التمييز بين العروبة والاسلام . وعزز مفهومهم هذا سيطرة الغرب على المنطقة ، وزاده تعقيداً مناداتهم بالمبادىء الديموقراطية الحرة في العالم الاسلامي .

ونظر الافغاني واتباعه الى المعضلات التي واجهت الاسلام على انها معضلات مدنية ومجتمعية ، ورأوا ان غزو نابوليون مصر في ١٧٩٨ وما تبعه من استيلاء فرنسا على المغرب العربي واحتلال بريطانيا مصر ، ما هو الا عودة الى الصراع بين الاسلام والمسيحية في القرون الوسطى .

وهكذا كان الحل عندهم واضحاً : على العالم الاسلامي ان ينهض ، كجماعة ، في وجه الغرب ويتغلب عليه . والاسلام والعروبة شيء واحد ، وعلى جميع المسلمين ان يتكاتفوا . ومرت ثلاثة عقود من السنين ، فاذا بالاسلام والعروبة ينفصلان ويتبين ان كلا منهما مفهوم يختلف عن الآخر . وكانت المناسبة التي جرى فيها هذا الانفصال ، مما يثير الاهتمام . ذلك انها جعلت العرب مشدوهين ، عزلا وفي موقف الدفاع . كانوا يعرفون كيف يتصدون للغرب « المسيحي » وكيف يواجهون تحديه ، اي باعلان الجهاد المقدس . أما الآن ، فابناء دينهم ، الاتراك ، يحاولون تتريك الشرق العربي الذي حكموه من القرن السادس عشر الى القرن العشرين .

وكانت ردة فعل العرب مليئة بالمفاجآت الاليمة حقاً . وكان عليهم ان يتعلموا في سرعة ان المسلمين ليسوا كلهم اخوة ، وان الاتراك ليسوا عرباً ، وان العالم لم يعد يسيّره غلاة رجال الدين ، بل الرأسماليون ، وان الدول والاحزاب تسعى الى التحالف على اساس المصالح المتبادلة لا العلائق الدينية ، وان على العرب ان يغيروا نظرتهم الى العالم او يبقوا مستعبدين . ولم يكن للعرب حزب معين يتصدى لهذه القضايا ، بل كان هنالك افراد مثقفون وجماعات في بيروت والقاهرة ودمشق . وكان هنالك ايضاً ضباط قوميون في الجيش العثماني ، ممن انشأوا حزب « تركيا الفتاة » . وكان هؤلاء الضباط يعاملون معاملة سيئة من جانب سائر المنضمين الى هذا الحزب ، بعد ان اتضحت نواياه في ١٩٠٨ وتبين انه يعارض فكرة اللامركزية القائمة على الاستقلال القومي الذاتي . وهكذا كان هؤلاء الضباط ، والمثقفون ، والطلبة ، نواة الثورة العربية الكبرى في ١٩١٦ . واسفرت هذه الثورة عن اعلان دولة عربية في دمشق ، في ١٩٢٠ . غير ان هذه الدولة سرعان ما قضي عليها وتشتت زعماؤها . ووقع القسم « الشرقي » من العالم العربي تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي ، بعد ان كانت بريطانيا وفرنسا قسمتاه فيما بينهما بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو . فكان لبنان وسوريا من نصيب

فرنسا ، والعراق وفلسطين والاردن من نصيب بريطانيا . ثم قضي على القوميين العرب العلمانيين ، واغري الانفصاليون بالمناصب الرسمية والالقاب الملكية . فنـــال الهاشميون واتباعهـــم النصيب الاوفر بصيرورتهم مطية لبريطانيا ، يستغلون الدين والقبلية للحفاظ على سلطتهم . غير ان فكرة القومية بقيت وحدها على قيد الحياة ، بعد انقسام الشرق العربي الى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا . ومنحت فلسطين للصهيونية بموجب وعد بلفور ، وبذل الانتداب البريطاني على فلسطين جهده لتنفيذ هذا الوعد .

ثم مر نحو نصف قرن قبل تلقيح فكرة القومية بمضمون اجتماعي . وفي هذه الفترة جرت قلاقل واضطرابات ، ونزلت ثلاث هزائم بالانظمة الاقطاعية والبرجوازية الصغيرة القائمة . وكان الصهيونيون هم المنتصرون في كل منها ، ولو انهم كانوا في الوقت نفسه يحفرون قبورهم الى اعمق . وبين ١٩٢٠ و ١٩٤٨ ، حاول القوميون تعزيز مفهوم القومية على اسس علمانية متحررة . ففشلوا في ذلك كل الفشل ، لأنهم والطبقات الاقطاعية التجارية والحاكمة جميعاً كانوا يفكرون بعقلية متأثرة بالنظريات الرأسمالية الغربية ويتنافسون على كسب ود الغرب والفوز برضاه . وكانوا جميعاً ايضاً مفروضين فرضاً من فوق ، بحيث انهم عجزوا عن اشراك الجماهير في المناهج التي وضعوها . ويمكن القول ان للقوميين العلمانيين ولنظرياتهم التحررية قيمة تاريخية في انهم اظهروا فشلهم واقنعوا كالوفد المصري مثلا ، الشعب العربي ، دون ان يدروا ، بأن الغرب عدوهم اللدود. وبكلمة اخرى ، بقي العرب ضعفاء ومنقسمين ، كما بقي الغرب مسؤولاً عن ضعفهم وانقسامهم . ويبدو ان الغرب لم يعط انصاره فرصة تطوير مجتمع رأسمالي في العالم العربي ، فظل الحكام العرب بعيدين عن رعاياهم ، كما كان اسلافهم العثمانيون . وفي هذه الحالة من الوهن ، تمكنت الصهيونية من تعميق جذورها وتوجيه الضربة القاضية الى الاقطاعية التجارية العربية في ١٩٤٨ . فكان من نتائج ذلك نشوء فكرة قومية برجوازية صغيرة عكست نفسها في

اول حزب وحدوي ، هو حزب البعث العربي ، كحركة اجتماعية ديموقراطية . وكان هذا الحزب الذي تأسس بين ١٩٤٣–١٩٤٧ للدعوة الى « البعث العربي » تطوراً مهمّاً اذا ما قيس بالحركات الماضية التي دعت الى « البعث الاسلامي » . ذلك انه دبّ الحيوية في القومية العربية وزودها بمضمون علماني . وفوق ذلك ، ربط حزب البعث العربي فكرة الوحدة العربية بمفهوم العدالة الاجتماعية ووضع الاشتراكية من جديد على جدول اعمال الامة العربية . وكان شعاره : حرية ، وحدة ، اشتراكية . ولسوء طالع حزب البعث ان تراث الثورة العربية لم ينته اليه ، لان مبادئهلم تأخذ في حسابها التناقض القائم بين الحرية الديموقراطية وبين الاشتراكية ، فمرت مرور الكرام بالعلاقة بين الاشتراكية وبين حشد الجماهير وتنظيمها ، وآثرت التنظير الفردي والحكام على ما يقتضيه الواقع من نظر اجتماعي وعمل جماهيري . وحيث ان حزب البعث ولد مراهقاً فكرياً ، وجد نفسه عاجزاً عن التغلب على تلك العقبات والاندماج في المجتمع الذي سعى الى تمثيله . وفي الستينات اصبح قادته العسكريون انقلابيين غير قادرين على تأليب الجماهير حولهم ، فاعتمد الضباط على زملائهم الضباط ، والمدنيون على صلاتهم العشائرية ، والمثقفون على سامعي احاديثهم في المقاهي والصالونات . وما ان جاءت ١٩٧٠ ، حتى أصبح البعث حزباً بالاسم ، لا أداة ثورية لتغيير المجتمع العربي .

وهكذا فقدَ حزب البعث ، في نظر الكثيرين من القوميين العرب ، الدور التاريخي الذي كان له في الاربعينات . ذلك لان فلسطين لم تكن همه الاول ، ولانه افتقر الى فهم النضـــال الثوري والتنظيم الصارم . وحاول اولئك القوميون العرب ، في ١٩٤٨ ، ايجاد بديل لحزب البعث كأداة تاريخية لتغيير المجتمع العربي ، فأنشأوا « كتائب الفداء العربي » . وبين ١٩٥٢ و ١٩٥٧ عرفوا باسم « الشباب العربي » . وفي ١٩٦٢ دعوا انفسهم حركة القوميين العرب ، حتى اذا جاءت ١٩٦٧ زالوا فعلياً من الوجود . وفي ١٩٧٠ انشأوا حزب العمل الاشتراكي العربي

خلفاً لحركة القوميين العرب ، كحزب وحدوي . واخذت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ محل الفرع الفلسطيني لحركة القوميين العرب التي انشئت في ١٩٦٢ . وكانت هذه الحركة في بدايتها مجموعة من القوميين المتحمسين تقتات على افكار ساطع الحصري الداعية الى ان القومية تقوم على اللغة والتاريخ لا اكثر ولا أقل . وفي ١٩٦٣ كانت الحركة في حالة فوضى ، فطرح على بساط البحث تحويلها الى حركة ثورية يسارية . وكانت الاشتراكية بدأت تصبح محور الاهتمام . وهذا المطمح ، بالاضافة الى ما ينطوي عليه من تحديات فكرية واخلاقية ، هو الذي أعملت الفكر فيه كعضو في الحركة آنذاك . وكانت نواة الحركة مؤلفة في الاربعينات من جماعة من الطلاب ومتخرجي الجامعة الاميركية في بيروت . وكان ابرز اعضائها الدكتور جورج حبش ، والدكتور وديع حداد ، وهاني الهندي ، واحمد الخطيب ، كما كان معظم مؤسسيها من الفلسطينيين الذين استولت عليهم فداحة نكبة ١٩٤٨ وهولها .

وأمد قيام الدولة الصهيونية تلك الحركة بالحافز الضروري للنمو . وكان قادتها شعبيين ، معادين للامبريالية ، ومن غلاة القوميين . وكانت القومية ومكافحة الامبريالية شغلهم الشاغل ، كما كانت اسرائيل عدوهم الاول ، والجماهير اهم نصير لهم . واستناداً الى هذه المواقف ، ناضل هؤلاء القوميون الشباب في الخمسينات ضد التورط في الاحلاف الغربية . وضد الهاشميين في الاردن والعراق ، وضد دعاة الافكار الرأسمالية من العرب . وفيما كانت الحركة تتطور وتنمو ، وصل عبد الناصر مكانة مرموقة في العالم الثالث بعقد صفقة شراء اسلحة تشيكوسلوفاكية وتأميم قناة السويس . واعترافاً بهذه المنجزات ، انضوى القوميون تحت لواء الناصرية وصفقوا لها في السنوات العشر التالية . واتضح في ذلك الوقت بجلاء ان عبد الناصر وحركة القوميين العرب كانا متحالفين كلاهما يؤمن بالتعاون الطبقي ، وبالوحدة القومية ، وبآراء غامضة في الاشتراكية التعاونية ، وبتسلم النخبة زمام الحكم في مفهومهما

للقيادة ودور الدولة في الاقتصاد . وكان الفارق الوحيد ان عبد الناصر كان في الحكم وغير قادر على تخطي احوال بيئته وظروفها ، بينما كانت حركة القوميين العرب خارج الحكم ، مما جعلها ، عندما آن الاوان ، تنقلب على تلك المبادىء الاوليخاركية ذاتها . وكان عبد الناصر يفتخر بأنه يستغل الضغوط من الشرق والغرب ، ويتباهى بأنه واقعي وعملي في ممارسة السلطة . لكن قادة حركة القوميين العرب ، من جهة اخرى ، كانوا « حركيين » ، بمعنى انهم كانوا اكثر من عبد الناصر تقبلا لتيارات الفكر الحديث ، واقدر منه على تفهم الواقع والتكيف بـــه . وفي اواسط الستينات ، اصبحوا من دعـــاة المقاومة المسلحة والاشتراكية العلمية . وغاب عبد الناصر في ١٩٧٠ ، جندياً ديبلوماسياً ، لا داعية الى الحرب الشعبية .

وفي هذه الاثناء ، اي في فترة التعاون الحميم بين عبد الناصر والحركة ، كان صلة الوصل بينهما ضباط سوريون من امثال عبد الحميد السراج والعقائدي المصري ابو النور . وكانت العلاقة ودية ، وانما على نحو علاقة الولد بابيه . وتم الاتصال المباشر ، للمرة الاولى ، في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦١ ، حين زار هاني الهندي عبد الناصر ، نزولا عند طلبه . واثار الهندي بعض القضايا الاساسية مع عبد الناصر ، تتعلق بانسحاب سوريا من الجمهورية العربية المتحدة ، وبمستقبل الثورة العربية . لكن اهتمامات عبد الناصر ، في ذلك الحين ، كانت تحولت الى « الاشتراكية المصرية » . وفي نيسان (ابريل) ١٩٦٤ ، اجتمع الدكتور جورج حبش ، امين سر الحركة ، الى عبد الناصر ، فأعجب بشخصيته الرائعة وقدرته على فهم القضايا والاشخاص . وجرى الحوار بينهما في فترة كانت القومية العربية تتخذ ابعاداً واسعة ، وكان عبد الناصر تعافى من حسرته الشديدة على انفصال سوريا . وبالاضافة الى ذلك ، كانت الطرق الى القدس بدأت تتشعب اساسياً وفي علانية . واذن ، لعله من المفيد ان نشير هنا الى ان حركة القوميين العرب لم تسبق عبد الناصر والناصرية في الوقت وحسب ، بل انها

ايضاً لم تصبح يوماً من الايام اداة دائمة طيعة ، أو انها توقفت عند الناصرية . ونحن نعترف ان حركة القوميين العرب كانت نصيراً وحليفاً للناصرية في مرحلة الثورة القومية — وهيهات ان نعتذر او نندم على ذلك . والى جانب ذلك ، فان الافتراق بين عبد الناصر والحركة ، ولا نقول الخصومة ، وقع حول قضية اليمن الجنوبية في اواسط الستينات . ذلك ان وضعاً نشأ وحاول عبد الناصر ان يحصره ويبقيه تحت سيطرته . فساعد على انشاء جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل ، وهي جماعة مؤلفة من الاتحاديين والقوميين الذين توجههم بريطانيا ، بزعامة سنجاق . لكن حركة القوميين العرب أيدت فرعها في اليمن الجنوبي على انه الممثل الشرعي لليمنيين الجنوبيين . وبدأ النزاع المسلح في الأرياف ، فانضم الفلاحون الى الثورة ، بينما كانت جبهة التحرير تتسلط عليها الانوار وبريق القاهرة والمساومات الجارية مع الانكليز . ثم طرد الانكليز واعلنت جمهورية جنوب اليمن الشعبي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ . وبعد بضعة ايام ، تبخرت الجبهة وزالت من الوجود . وهكذا كانت الناصرية تنكمش وتضيق آفاقها ، بينما اخذت حركة القوميين العرب تحل محلها بتوسيع قاعدتها وآرائها الاجتماعية . وفي فترة بعد حرب حزيران ، أصبح ثوريو الحركة محط آمال الجماهير ، ومصدر قوة الفقراء والضعفاء والبؤساء في العالم العربي . وباختصار ، كان السؤال الذي طرح نفسه كما يأتي : من سيحكم ، الضباط ام الشعب ؟ ونحن اعضاء حزب العمل الاشتراكي العربي نقول : الشعب . لذلك نجزم ان الثورة آتية ، ولذلك كرست حياتي كلها لهذه الثورة .

في ربيع ١٩٦٣ ، كانت اسرائيل في الخامسة عشرة من العمر . وعوضاً عن ان تستأنف الناصرية ايقاد شعلة الروح العربية وتسير قدماً في حمل رسالتها التاريخية بعد انقسام الجمهورية العربية المتحدة ، آثرت

ان تنكمش على ذاتها ، وتطغى ، وتنصرف الى ادارة الامور . واذ كانت برجوازية النظام الاقتصادي ، فانها استنفذت نفسها تاريخياً ، بالرغم من « تدخلها » في اليمن (تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٢) ، والميثاق القومي في ايار (مايو) ١٩٦٢ . واصبح شعار النظام المصري عبارة عن دهاء سياسي ، وتقدم اقتصادي ، واستقرار سياسي . ونشرت الجمهورية العربية المتحدة اعلاناً في « النيويورك تايمس » تدعو فيه مستثمري الاموال الاحتكاريين الى المشاركة في مشاريعها الحكومية الرابحة . وذهبت تلك الايام التي كان يتكلم فيها عبد الناصر فتتوقف المصانع الغربية لفقدان النفط ، او يطلق الشعارات فتهب الجماهير الى احتلال السفارات او احراقها ، أو يعامل رؤساء الحكومات الغربية كسعاة البريد ويندد بهم امام الناس . لكننا ، بالرغم من ذلك ، بقينا من مؤيدي عبد الناصر الى ١٩٦٧ .

وينطوي النظام الاجتماعي الناصري على ميثاق يعد ببناء الجمهورية العربية المتحدة على اساس الاسلام ، والديموقراطية ، والتعاون ، ويعترف بسيطرة الدولة على الاقتصاد ، ويقر بدور « البورجوازية الوطنية » ، ويمنح الفلاحين والعمال نصف مقاعد مجلس الامة ، ويعطي الموظفين مسؤولية استشارية في ادارة اعمالهم ، على ان ينالوا مكافأة مالية على اساس الارباح . وهكذا حولت الناصرية مصر الى « جنة » ينعم فيها الضباط ، والمديرون ، والموظفون . وفي ١٩٦٥ ، قال عبد الناصر ، بصراحة عرف بها محمد حسنين هيكل ، للمؤتمر الوطني الفلسطيني ان « لا خطة عنده لتحرير فلسطين » . اضف الى ذلك ان الوحدة العربية كانت في ربيع ١٩٦٣ تبعث لمدة ثلاثة اشهر ، حين وافق العراق ومصر وسوريا على انشاء جمهورية عربية متحدة تدب فيها الحيوية والنشاط . وجرت المباحثات في هذا الصدد في القاهرة ، بعد ان استولى البعثيون على الحكم في العراق (٨ شباط) وسوريا (٨ آذار) ، وهم الذين كانوا شركاء عبد الناصر في ايام الجمهورية العربية المتحدة في ١٩٥٨ . ودعا البعثيون لدعم انظمتهم الى الوحدة

العربية والتعاون بين « القوى التقدمية » ، فتعذر على عبد الناصر تجاهل هذه الدعوة او معارضتها ، لئلا يتهم بالعمل ضد الوحدة العربية . ولكن بعد اعلان الجمهورية العربية المتحدة في ثوبها الجديد ، عاد البعثيون الى قواعدهم واخذوا يضطهدون الناصريين الى ان ابعدوهم عن السلطة تماماً . وفي اوائل تموز (يوليو) اظهر عبد الناصر استياءه بنشر التسجيلات الصوتية لوقائع المباحثات في جريدة الاهرام ، وهي لسان حال الطبقة المصرية المتوسطة . وتم ذلك في حلقات ، كان محمد حسنين هيكل ، رئيس التحرير ، يجري عليها رقابته ويعلق عليهـــا بطريقة تشير الى ان عبد الناصر لا ينوي تنفيذ الوحدة المتفق عليها في الخريف الفائت . وكشف نشر تلك الوقائع حقيقتين : الاولى ، ان عبد الناصر لا يريد ان يعترف بأحد نداً له ، او ان يخضع «المصالح القومية » المصرية للمصلحة العربية المشتركة . والثانية ، ان البعثيين لم يكونوا مخلصين وصادقين ، وانهم لم يثقوا بعبد الناصر ، وانهم اعتبروا انفسهم خلفاء الناصرية التي شارفت على الزوال . وفي السنوات التالية ، اصبحت البعثية ، هي ايضاً ، نظاماً قائماً على الضباط . وهذا ، بالاضافة الى حوادث يكاد لا يصدقها عقل ، حير القوميين العرب وادهشهم واثار تساؤلهم .

ولما جاء ربيع ١٩٦٣ ، وجدت نفسي غير قادرة على الرجوع الى الجامعة الاميركية في بيروت ، في الخريف ، فكان علي ان اقرر ماذا افعل . وكان هنالك بعض مجالات العمل ، لكن ليس في لبنان . وكنت في التاسعة عشرة ، ولا نية لي ان أجد لنفسي زوجاً أخدمـــه . ولم يكن بامكاني البقاء في البيت خاملة كسولة . وفي وسط هذه البلبلة ، وقعت حادثة عائلية جعلتني اطلب ملجأ خارج لبنان .

وكان مضى على عائلتي ١٥ سنة منفية من وطننا الحبيب . وحيث ان حالة الحرب قائمة بين الدول العربية واسرائيل ، فاننا لم نر وجه اي

من اقربائنا في حيفا او مجدل القاروم . ذلك ان شروط السفر كانت قاسية جداً . غير ان والدي تمكن ، بعد عناء شديد ، من الذهاب الى القدس عند بوابة مندلبوم . وانتظر هناك ثلاثة ايام ، لكن احداً لم يأت . ومرت بضعة اسابيع ، قبل ان يهيأ له موعد آخر . لكنه كان في هذه الاثناء اصيب بالفالج ، فلم يتمكن من الذهاب .

على ان والدتي ذهبت وحدها . وكان اللقاء كابوساً من الاسلاك الشائكة . وحين شاهدتها جدتي لأبي قادمة وحدها ، ظنت ان ابنها توفي ، فانهارت اعصابها . وجرى حوار واسع بين امي وبعض اقربائها استغرق نحو ساعة واحدة . ولم يذكر فيه شيء غير تبادل التحيات واسترجاع ذكريات عابرة . وعدنا من ذلك اللقاء ونحن في نقمة شديدة على الصهيوني المغتصب .

فماذا افعل ، والحالة هذه ؟ وأين اذهب ؟ كانت الكويت المجال الوحيد .

في صيف ١٩٦٣ كان صوت العرب يبث اذاعاته من القاهرة الى اربعة اطراف الدنيا ، وتملأ الصحف العربية اعمدتها بالكلام على فكرة الكيان الفلسطيني . وجذبت هذه الفكرة عدداً كبيراً من الفلسطينيين وانا في جملتهم ، ولو لم تجذبهم المنظمة التي قصد بها ان تجسد هذه الفكرة ، اعني منظمة التحرير الفلسطينيـــة . فهذه المنظمة اقامتها جامعة الدول العربية في كانون الاول (يناير) ١٩٦٤ لتهدئة الفلسطينيين ، ريثما يهيئوا لهم اسباب التحرير . وفي ذلك الوقت ، قل من ادرك اجتماعات القمة العربية على حقيقتها . وهؤلاء القلائل كانوا بلا سلطة .

واجتمع رؤساء العرب وملوكهم بفخفخة وأبهة في القاهرة . ومع انهم قرروا ان لا يجابهوا اسرائيل ، استدرجوا شعوبهم الى الاعتقاد انهم كانوا يعدون العدة للحرب . فاصدروا أوامر عسكرية مشتركة لا قيمة لها . وبعد مرور اسابيع ، فشلوا والقوا اللوم على لبنان ، زاعمين

انه لم يسمح للقوات العربية باحتلال مواقع استراتيجية على ارضه ، كأنما سوريا والاردن وافقا على هذا الاقتراح وقاما بتنفيذه ، وكأنما لبنان وحده كان العقبة . وخصصوا ١٣ مليون دولار لتحويل مجرى الاردن ، مع ان هذا المبلغ لا يكفي لحفر خندق ، وانشأوا منظمة التحرير الفلسطينية ليلهوا بها الفلسطينيين ، فوثق المؤمنون بنوايا القيادة واخلاصها .

وكان هذا كله خداعاً ، كما اظهرت حرب حزيران ، بما لا يقبل الشك . ذلك ان منظمة التحرير الفلسطينية ولدت مشلولة إن لم تكن ميتة . فلا الدول العربية سمحت للفلسطينيين بالاستقلال في العمل ، ولا هي سعت سعياً كافياً لحماية مصالحهم . وكانت هذه المنظمة تتألف من بقايا طبقة اجتماعية زالت ، فاعطي زعماؤها مناصب في المنظمة اعترافاً بولائهم لمختلف مؤتمرات القمة . وبكلمة اخرى ، كانت منظمة التحرير الفلسطينية هيكلا عظمياً معروضاً في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة . فلا هي كانت طليعة ثورية تقود الصراع لتحرير فلسطين ، ولا هي كانت لواء تلتف حوله جماهير « اللاجئين » الفلسطينيين .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٦٣ ، سافرت الى الكويت تخالطني مختلف المشاعر ، ويعوزني أمل أكيد بوجود عمل . ومضت ثلاثة أشهر ، وانا انتظر رداً على طلبي العمل في وزارة المعارف الكويتية . وجاء الرد في منتصف كانون الاول (ديسمبر) ، فاذا هو يعرض علي عملا في الجهرة ، وهي مكان يبعد نحو خمسين كيلومتراً عن مدينة الكويت ، حيث يقيم اخي محمد .

وفي غضون تلك الاشهر الثلاثة ، تسنّى لي أن أنعم النظر في الوضع العام في العالم ، وفي معنى الحياة ، خصوصاً بعد مصرع الرئيس جون كنيدي في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) . ولا اعرف لماذا اثر فيّ

مصرع هذا الرجل الذي كان رئيساً لدولة ساعدت على استمرار تشريدي من بلادي ، وساهمت في تعزيز القضية الصهيونية التي اكرهها. ثم انه كان سياسياً مترفاً ، ينتمي الى طبقة عدو ، اعطى مراكز حساسة في حكومته لثلاثة على الاقل من غلاة الصهيونيين اليهود . فضلا عن انه وافق على غزو كوبا في نيسان (ابريل) ١٩٦١ . وعلى رغم ذلك ، فانني بكيت ، انا الفلسطينية الثورية العنيدة ، عندما سمعت خبر مصرعه .

وحضرت المأتم في التلفزيون وشاهدت الاميركيين ينتحبون . وحتى ذلك الحين ، كنت اتصور الاميركيين شعباً من السفاحين واللصوص ، قادراً على ارتكاب اية جريمة يتخيلها العقل . وغيرت رأيي قليلاً ، لكن ضراوة ليندن جونسون ونفاق نيكسون عززا الصورة الاصلية . ولعلني بكيت على كنيدي لأنه ، على نحو ما ، كان يمثل شباب اميركا الذين أحبوه واعجبوا به كثيراً . او لعلني كنت اعتقد ، كبعض العرب ، ان كنيدي كان ، بفعل عازماً على ان يعيد الى الفلسطينيين حقهم ، كما تشير الى ذلك الرسائل التي تبادلها مع عبد الناصر . والى جانب هذا كله ، فقد تكون الدموع التي ذرفتها ردة فعل انسانية لم تقدر نقمتي على ايقافها الا بعد فوات الأوان . ولست آسفة على اني ذرفت تلك الدموع .

كانت « الجهرة » لفتاة من الجامعة الاميركية في بيروت مدينة تبعث ، خارجياً ، على الضجر . كنا كلنا « اجانب » في نظر الحكومة الكويتية العربية ، مع ان كل واحد منا جاء من العالم العربي . وكان الجانب الضاحك من المدرسة التي عملت فيها وجود مختلف اللهجات « الاجنبية » . وكان الفلسطينيون والمصريون والسوريون اكثر الموجودين هناك عدداً . وكانت هذه هي المرة الاولى التي احتك فيها ، عن كثب ، بالمصريين . ووجدت ان الفلسطينيين كالسوريين ، باستثناء رئيسة المدرسة سعاد ، وهي سيدة بيروقراطية معقدة تحب التسلط ، كانت ، وهذا أقل ما يقال فيها ، موظفة تنبطح أمام وزارة التربية وتعمل على تطويع زميلاتها بشبكة من المخبرين . وتشابكت الامور في نظري ،

لانني لم أكن اعلم شيئاً من أمر الأدوار والقوانين . ولم اكن أميز بين الحاكم والمحكوم ، كما انه لم يكن لدي اية فكرة عن التقاليد والاعراف البيروقراطية . وهكذا انقلب عالمي رأساً على عقب . وانقسم زملائي : فريق يتلذذ بعذابي ، وفريق يتضايق مني كبرهان على جبانتهم أو يعجبون سراً بتمردي . كانوا جميعاً عبيداً يرتجفون أمام سيدهم ويسجدون له .

وفي « الجهرة » لم يسمح لنا بترك المدرسة من دون اذن خاص ، وذلك خلال الاسبوع . أما في مساء الخميس ، فكان يسمح لنا بزيارة الاقارب والمبيت عندهم . ولم يكن هناك دور للسينما ، أو عشراء للهو وتمضية الوقت ، او متحف تطالع فيه ، أو نشاط سياسي مسموح. كنا ، حقاً ، خصياناً في نظام شرقي قائم على الطغيان .

وأذكر حادثة ظهوري بلباس قصير الاكمام . وكانت هذه هي المرة الاولى التي وجدت نفسي فيها وجهاً لوجه امام السلطة . ذلك ان الرئيسة هددت بطردي لأنني ظهرت بهذا المظهر الممنوع في الكويت ، برغم حرارة الطقس . فتحديتها بأن اكشف من جسدي اكثر ممـــا فعلت . واستولى عليها الغضب ، لكنها عجزت عن تنفيذ ما هددتني به . وانتهى الامر بالاتفاق معها على طلب نقلي الى مدرسة اخرى . وسرني ذلك ، مع انني أسفت لفقدان الاصدقاء القلائل الذين كسبتهم في الجهرة .

وانعكست في اولاد الجهرة دلائل الحرمان الثقافي الذي يصيب شعباً ريفياً وصحراوياً بعيداً عن العمران . لكنهم كانوا يتقدون ذكاء وفطنة . وكانت المدرسة هي النافذة الوحيدة التي يطلون منها على العالم الخارجي . وكانوا في حاجة الى ان يتعلموا ابسط مبادىء العيش في مجتمع يتطور بسرعة ، والى ان يتنبهوا الى العبودية التي تنطوي عليها حياة المدن . ولكني ، عوضاً عن ذلك ، كنت اعلمهم الانكليزية والعلوم . على انني اغتنمت كل فرصة من اجل الدعوة الى قضيتي السياسية . وكان التلاميذ يتجاوبون معي تجاوباً حسناً .

ولم اكشف عن علاقتي بحركة القوميين العرب ، فلو فعلت لكان ذلك بمثابة انتحار سياسي . ذلك ان السيدة الرئيسة كانت تفرح ، عندئذ ، لاستعمال سلطتها . وهكذا آثرت ان اعالج الأمر بحكمة وروية . فكنت اربط كل قضية بالعالم حولنا وبالقضية الفلسطينية ، حيثما امكن .

ثم جاء الربيع ، فوجدت الدول العربية تثير الضجيج لقيام اسرائيل بـ « سرقة » مياه نهر الاردن . وعمدت ، في الظاهر ، الى تهيئة اسباب تحويل مجرى النهر ، ولكن بعد عشر سنوات من التأخير . ولم تتخذ اي اجراء عسكري لمنع الاسرائيليين من تنفيذ خطتهم . على ان بعض الحوادث الطفيفة وقعت على الحدود ، فأرعد العرب وازبدوا مهددين بالثأر . واستمرت هذه المهزلة نحو سنة ، فيما كانت اسرائيل تعمل ، دون ما عائق ، على اتمام مشروع التحويل . فاغتصبت ما يكاد يكون كل مياه النهر .

وفي هذه الاثناء قرر اصحاب الفخامة الرؤساء ، واصحاب الجلالة الملوك ، ان يعينوا احمد الشقيري رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطيني ، دون ان يستشيروا الشعب الفلسطيني او يفاضلوا بينه وبين مرشحين آخرين .

ذلك ان الشقيري كان رجلهم المفضل . فبامكانهم الاتكال عليه في القاء البيانات النارية الضرورية لاستهواء الجماهير الفلسطينية ، دون ان تؤدي الى وقوع اية ازمة ، او تسفر عن تنظيم الفلسطينيين وتدريبهم على القتال . ذلك ان قيادة منظمة التحرير فرضت من فوق وكانت مسؤولة امام من هم فوق ، لا امام الشعب الفلسطيني الذي انشئت لتمثيله . وقام الشقيري بجولة في الاقطار العربية ، الى ان وصل الى الكويت . وهناك حاول ان يجمع الفلسطينيين حول الاشتراك في جمعية تأسيسية لانتخاب برلمان فلسطيني . واتصل الشقيري في الكويت

بالاشخاص الذين يعرفهم – اي ابناء الطبقة الاجتماعية العليا في فلسطين – والذين اصبحوا الآن يحتلون مناصب ثانوية ، كمهندسين ومديرين ، أو يعملون في حقل التجارة . أما ابناء « اللاجئين » – اي المدرسين ، ومهرة الصناع واشباههم ، والعمال – فلم يحفل الشقيري بالاتصال بهم . كان ينتظر منهم ان يصفقوا للقرارات « الحكيمة » التي اتخذها القادة العرب ، ويوافقوا بلا مناقشة على انتخاب ممثليهم « هم » ، ولكن من فئة « افضل » منهم . وحيث ان الفلسطينيين في الكويت وفي انحاء الخليج العربي لم يكن يسمح لهم بالتجمع المنظم ، فانه كان من العسير ان تعرف ، بدقة ، مشاعرهم الجماعية . وهذا الوضع أتاح لبعض الانتهازيين من الافراد « تمثيل » الفلسطينيين .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات ، ومن المخاوف التي كانت تساورني ، فاني قمت بدعاية واسعة في المدرسة ، أحث بها الفلسطينيين على انشاء فروع لمنظمة التحرير الفلسطينية . غير انني لم اوفق ، لان معظم الناس في الجهرة كانوا عرضة للشكوك والهواجس . ومع اني شاركتهم في هذه الشكوك والهواجس ، الا انني حسبت ان هذه المنظمة خير من لا شيء ، لا سيما ان الحكومة الكويتية اعترفت بها كممثل رسمي للفلسطينيين وسمحت للفلسطينيين بالانضمام اليها ، شرط ان يبقوا خارج حلبة السياسة الكويتية . على ان رئيسة المدرسة لم تتلق تعليمات بهذا الصدد ، واعتبرت ان النشاط السياسي تحرمه قوانين المدرسة . فاستدعتني الى مكتبها وطلبت مني ان اوقف نشاطي . وقالت انني لبنانية ، احمل جواز سفر لبنانياً ، ولا شأن لي بفلسطين . واستمعت الى اقوالها دون مقاطعة ، فلما انتهت وقفت وقلت لها : « ايتها الرئيسة ، كان شعبك المطواع ، الفاسد ، اللامبالي ، مسؤولا عن خسارة فلسطين . وامثالك من المحترفين اضطهدوا الفلسطينيين اكثر مما اضطهدهم الصهاينة . ومدرستك هذه الشبيهة بالمقبرة خنقت نمو الفهم والذكاء . وانت تنتمين الى معسكر العدو . واذا نحن لم نقض على اسيادك وعلى الخائنين امثالك ، فيزداد الخراب والدمار في الوطن

العربي . وانت ، في نظري ، اشد خطراً من الاعداء المعروفين . ولنفرض انني مواطنة لبنانية ، لا اكثر ولا أقل ، فهل ذلك يبرؤني من واجباتي ومسؤولياتي كمربية ؟ وهل يمحو انتمائي العربي ؟ فانا ، أيتها الرئيسة ، عربية ، فلسطينية ، لبنانية ، عربية ، مصممة على رفع لواء القضية العربية هنا في مدرستك وفي كل مكان . ولا قوة إلا الموت تقدر على منعي . فتصرفي كما يحلو لك . وانا لن ارضخ ، ولن اتراجع » .
وخرجت من مكتبها وصفقت الباب ورائي . وكان ذلك لمرة أخيرة.

وفي ٢٨ ايار (مايو) ١٩٦٤ افتتح الملك حسين المؤتمر الوطني الفلسطيني في القدس . وكان اعضاؤه البالغ عددهم ٣٥٠ شخصاً يمثلون مختلف فئات الشعب الفلسطيني ، لكن معظمهم من التقليديين . ومنعت السلطات الاردنية عدداً من « المتطرفين » البارزين من حضور المؤتمر . وانتخب المؤتمر لجنة تنفيذية مؤلفة من سبعة اعضاء ، فصادقت على احمد الشقيري رئيساً للمنظمة ، واصدرت بياناً على شاكلة ميثاق وطني يجسد مبادىء طبقتنا الحاكمة المفلسة الفاشلة ، وانشأت عدداً من اللجان الفارغة لتعدّ للثورة المقبلة وتدير شؤونها . واحتلت منظمة التحرير الفلسطينية مقعد فلسطين في مقر الجامعة العربية في القاهرة . واستمرت القمة العربية في عقد جلساتها في خريف ١٩٦٤ . وما مضت سنة ، حتى توقف القادة انفسهم عن تصديق اكاذيبهم ، على الرغم من أن عملاءهم ظلوا ينسجون الخطط بخيوط شعرية ونثرية برّاقة .

وفي اواخر حزيران (يونيو) ١٩٦٤ ، رجعت الى لبنان . وفي السنوات الست التالية قضيت ما يشبه الاجازة السنوية . فهناك عدت الى النشاط السياسي السري وشعرت بالارتياح بعد العزلة التي منيت بها في الجهرة ، والحر الذي اثار اعصابي في الكويت . ولاحظت ان حركة

القوميين العرب في بيروت بدأت تتشقق وتتفسخ . على ان هذه الاختلافات العميقة في داخل الحركة تجمدت باسم وحدة الصف ، والمرونة ، والعلائق الشخصية . وكانت الفوارق الجدية الخاصة بالعقيدة ، والتخطيط ، والتنظيم ، والصفات الشخصية ، كانت تنفجر بين الحين والآخر ، الى ان وقع الانقسام بعد خمس سنوات .

ولما اقترب الخريف ، تهيأت للعودة الى الكويت . ولمرة ثانية ، كان علي ان اسكن في الثكنة ، لا عند اخي . فان تسكن امرأة وحدها في الكويت أمر لا يتصوره عقل . وفي مدرسة « شعب » وجدت ان مستواي انخفض من تعليم الصفوف الثانوية الى تعليم الصفوف الابتدائية ، وهكذا انقضت خمس سنوات وانا محرومة من التبشير بمبادىء السياسة في صفوف يحضرها المراهقون . وغلبني الاستياء في البداية ، الا انني سرعان ما استسلمت لهذا الواقع . ولم يكن لي حيلة في تغيير وضعي التعليمي . وكانت الاستقالة أشر من أن اكون في عداد العاطلين الكثيرين عن العمل من زملائي العرب .

كان تلاميذي ممتعين حقاً ، ومعظمهم من أصل ايراني ، هاجر والدوهم الى الكويت طلباً في تحصيل الرزق . وكانت المدرسة تعمر باولاد الطبقة العاملة الراغبين في الدراسة وفي الجد والاجتهاد . وكان الوجود بينهم يبعث على البهجة ، الا انهم لم يكونوا على شيء من الاهمية لي سياسياً . لذلك حصرت جهدي في ان اعلمهم بعض النواحي الرئيسية من القضية الفلسطينية ، كوعد بلفور ، وتقسيم فلسطين ، وقيام اسرائيل الصهيونية . ولم يقع اي اصطدام في هذا الشأن على مستوى الادارة او المعلمين . فمنذ ١٩٦٥ ، كانت الادارة ومعظم المعلمين تؤيد « فتح » . ولم يجد الذين ناصروا الجبهة الشعبية مثلي يلاقون اية صعوبة في التعايش . ومع ان الجو كان يسمح بالحوار وابداء الافكار بحرية ، لا انني لم أبح بحقيقة انتمائي السياسي .

وكانت مدينة الكويت مركزاً كوزموبوليا اذا ما قيس بالجهرة . ودرجت على زيارة أخي محمد في عطلة الاسبوع ، حيث اقوم باتصالاتي

مع حركة القوميين العرب ، مع ان الحركة كانت في حال الفوضى . وكنا في الكويت اقرب من المدنية ، لكننا كنا أبعد ما يكون عن حياة بيروت الصاخبة ومجالسها الفكرية وشوارعها الحديثة . لذلك كانت فترة اقامتي في الكويت فرصة للتأمل اكثر منها للجمود والخمول . وكان لي متسع من الوقت للمطالعة والتفكير ووضع الخطط للمستقبل . على ان معظم زملائي كانوا يعيشون حياة لامبالية ، همهم تعزيز معنوياتهم بجمع المال وصرفه . وكان بعضهم يرسل قسماً عادلا من رواتبهم الى ذويهم ويمارسون حياة الزهد والتقشف . أما انا ، فكنت مولعة بالسياسة والتبغ ، ولا حاجة لي الى اي شيء آخر في مجال اللهو والتسلية .

في اول كانون الثاني ١٩٦٥ ، بدأت « فتح » عهداً جديداً في تاريخ فلسطين . ونظر البعض الى ذلك على انه طليعة الثورة الفلسطينية الحديثة . فالمقاومة المسلحة التي طالما جرى الحديث عنها في المجالس وقام بها الافراد والفئات القليلة العدد ، خرجت اليوم الى حيز الوجود في شكل هجمات يومية على عقر دار العدو . نعم ، كانت حركة القوميين العرب تقوم منذ ١٩٥٣ بعمل استكشافي ، ومنذ ١٩٥٥ بارسال الفدائيين الى فلسطين المحتلة . وكان « العصر الذهبي » للنشاط الفدائي في اواسط الخمسينات ، حين كان الفدائيون يجوبون الارض المحتلة كما يحلو لهم . ومع ان الحكومة المصرية كانت تلعب دورها في تمويل الفدائيين وتسليحهم ، الا ان العمل الفدائي كان مقتصراً على الفلسطينيين دون سواهم ، وهم الذين يعرفون جيداً مسالك الطرق ومواقع المدن . وبلغ من نجاحهم في ذلك أن اسرائيل استغلت في ١٩٥٦ نشاطهم كذريعة للانضمام الى بريطانيا وفرنسا في العدوان على قناة السويس . وبعد تسوية ١٩٥٧ وجلاء القوات الاجنبية عن مصر ، منع عبد الناصر كل نشاط فدائي . حتى ان رصاصة واحدة لم تطلق عبر الحدود المصرية —

الاسرائيلية مدة احدى عشرة سنة . وادارت مصر شؤون قطاع غزة وراء ترس الامم المتحدة ، كما ان الدول العربية بدت كأنها تتولى حراسة اسرائيل في تلك الفترة ، فامتنعت هي ايضاً عن تشجيع النشاط الفدائي .

وفي خريف ١٩٦٤ ، تعززت حركة المقاومة المسلحة . ذلك ان منظمة التحرير الفلسطينية برهنت على انها لم تكن الوسيلة المطلوبة . وتراجع القادة العرب ، تدريجاً ، عن وعودهم في التحرير . واخذت العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة واميركا تسير من سيء إلى اسوأ ، فهدد الرئيس جونسون بايقاف بيع الحنطة لمصر . وشعر السوريون انهم محاصرون من مصر والعراق ، فاخذوا يقومون باعمال هدفها إحراج عبد الناصر . وخابت آمال الفلسطينيين باخوانهم العرب . وهكذا ادت كل هذه العوامل الى دب الحيوية في صفوفهم . وكان الرأي العام يطالب بوجوب القيام بعمل ما . وصدف ان عبد الناصر كان يواجه المتاعب في علاقاته مع اميركا ، مما جعله يقدم على دعم المقاومة كوسيلة للضغط على اسرائيل ليعزز موقفه ازاء اميركا . وكان عبد الناصر ، عادة ، يملك موهبة استغلال القوة لصالحه . ومما يثير الاهتمام ان عبد الناصر لم يتوقع ظهور حركة كحركة فتح . ولعله ظن ان منظمة التحرير الفلسطينية ستكون صورة طبق الاصل لحركة الفدائيين في اواسط الخمسينات . لكن حركات المقاومة التي بدأت تنشأ الآن وتطغى على منظمة التحرير كانت غير خاضعة للجامعة العربية . ذلك انها كانت من صنع جيل جديد من الثوريين ، يحرصون على استقلالهم الذاتي ويكرهون التبعية للانظمة العربية القائمة . ثم انه نادوا بقيام الفلسطيني المستقل وأصروا على حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم . وفي البداية حاولوا تجاهل فتح . ثم اخذوا يتهمونها بانها عميلة المعاهدة المركزية (سانتو) ، بل انهم صنفوها على انها جناح يميني سري لحركة الاخوان المسلمين . وكانت ، كلما الصقوا بها التهم ، تحلو في عيون الفلسطينيين . وازداد تصميم الفلسطينيين على الكفاح المسلح بازدياد

بيروقراطية منظمة التحرير الفلسطينية واعتمادها على الطبقة العليا . وهكذا قدحت الحركة الجديدة شرارة الامل في النفوس ، لأن الكفاح المسلح هو طريق الخلاص الوحيد . وكان عليّ ، كفلسطينية ، ان اؤمن بالبندقية ، كتجسيد لانسانيتي وعزمي على تحرير نفسي وابناء بلادي . فعلى كل فلسطيني يحترم نفسه ان يصبح ثورياً .

وتسربت اخبار الحركة الثورية الى الكويت بمختلف السبل . وكرست الصحف العراقية والمصرية والاردنية صفحاتها للتنديد بـ« الجناح اليميني المتطرف » الذي لا يرى رأي عارف وهيكل والحسين . وبايقاف بيع القمح للجمهورية العربية المتحدة في ١٩٦٦ ، اخذ عبد الناصر ينظر الى فتح نظرةً اكثر ودّاً ، لا سيما بعد ان وقف الحسين في وجه كل محاولة لتنظيم جيش التحرير الفلسطيني على الارض الاردنية . وفيما كان القادة العرب يتراجعون عن التعهدات التي اخذوها على انفسهم في مؤتمر القمة ، بدأوا يختلفون فيما بينهم ويلومون بعضاً بعضاً على عدم تنفيذ « المقررات » . وعمد عبد الناصر الى تأييد فتح لأنه كان يشاركها في اهدافها ، لا لأنه آمن فجأة باعتماد الحرب الشعبية والكفاح المسلح . ومن هذه الزاوية ، قسم عبد الناصر العالم العربي قسمين : تقدمي ورجعي ، واعلن نفسه زعيم التقدميين . وقرر السعوديون ، بتحريض من واشنطن ، ان يرفعوا لواء الدعوة الاسلامية في وجه « الخطر الشيوعي » ، فاصبح الملك فيصل على رأس القائلين بعقد « حلف اسلامي » يجمع الدول الاسلامية كلها وربطها بواشنطون . وانتهت حرب اليمن في خريف ١٩٦٧ بعد خمسة اعوام على « الثورة » . وذهب « الثوريون » اليمينيون ضحية في مؤتمر الخرطوم (٢٩ آب — اول ايلول) باسم التضامن العربي واحتفاء بالمعونات المالية التي تعهّدت بها دول النفط لعبد الناصر والحسين . وانسحبت القوات المصرية البالغ عددها خمسين الفاً من اليمن ، تاركة تلك البلاد في مهب رياح التقاليد والرجعية .

وكان مضى على الفلسطينيين ١٧ سنة من النفي والتشريد ، على امل

ان تنقذهم القيادة العربية . لكنهم في ١٩٦٥ قرروا أن يتحرروا بانفسهم لا ان ينتظروا معونة أحد . واخذت فتح تحتل محور حياتنا ، بالرغم من النقائص والمشكلات العديدة . غير أن فضيلتها الكبرى لا يقدر أحد على نكرانها ، وهي انها منظمة محاربة ، في وقت كان الآخرون يكتفون بالكلام على الحرب . وهي منظمة انشأها الفلسطينيون لحمل لواء الكفاح المسلح . وبعضهم فعل هذا . أما أنا ، فلم أكن بعد على استعداد .

في ١٩٦٥ اتسع نطاق اهتماماتي السياسية كثيراً . وبفضل ذلك الكوبوي القادم من تكساس ، اعني ليندن جونسون ، اضطررت الى ان اعرف الكثير عن فيتنام واميركا اللاتينية . فالى جانب الجزائريين ، كان الفيتناميون مصدر الهام لي . ها هو شعب صغير يحارب اعظم امبراطورية في التاريخ ويقهرها . وكلما صعّد جونسون ضرب فيتنام بالقنابل ، وكلما وعده قواده باحراز النصر اذا هو شدد الضرب ، كنت ازداد غضباً على نفسي لعجزي عن القيام بشيء يعرب عن الاحتجاج أو القضاء على الوحشية الاميركية . وظل شعب فيتنام البطل صامداً ، يجعل من نفسه قدوة للفداء والتضحية في سبيل العدالة والحق . وهكذا كان على الفلسطينيين أن يتعلموا سر هذا الشعب ، الا اذا ارادوا ان يبقوا « لاجئين » غارقين في الذل والعار .

وكم كرهت الحكومة الاميركية . وازداد كرهي لها ، حين رأيت ادلاي ستيفنسون في نيسان (ابريل) ١٩٦٥ يدافع عن غزو الجمهورية الدومينيكانية . ولم أصدق عيني وهما تشاهدان البطل « الحر » في عهد ايزنهاور يعدد اسماء « ٧٥ شيوعياً » بين انصار الكولونيل فرنسيسكو كامانيو ، زعيم المتمردين . وارسلت الحكومة الاميركية عشرين الف مقاتل الى عاصمة تلك البلاد لحماية « حياة الاميركيين وممتلكاتهم » ، كذريعة لسحق الحكومة الثورية . وكدت انفجر من الضحك حين سمعت من الاذاعة البريطانية ان صحيفة « كريستشن

ساينس مونيتور » حققت في أمر اولئك « السبعة والخمسين شيوعياً » ، فوجدت ان معظمهم اموات ، أو في السجن ، او في النفي . و « حررت» القوات الاميركية تلك الجزيرة واجرت انتخابات « حرة » ايد فيها الشعب الطيب حكومة من كبار المزارعين ، بزعامة « بالاغير » . وتم هذا كله ، طبعاً ، إكراماً للتحرر ، والمجتمع الصالح ، والحكم الاميركي .

وفهمت من الغزو الاميركي المباشر لفيتنام والجمهورية الدومينيكانية انه مقدمة للعودة الى سياسة السطو الاستعمارية القديمة التي سرعان ما تمتد الى الشرق الاوسط . ولم استطع ان اتكهن متى يتم ذلك على يد اميركا او حليفتها المحلية . وبدا لي ان الولايات المتحدة الاميركية كانت في مركز الهجوم ، كلما نادى الاتحاد السوفياتي بالتعايش السلمي وحاول ان يمارس سياسة الود . ومن البرازيل الى فيتنام ، ومن الجمهورية الدومينيكانية الى الجزائر ، ومن مالي الى اندونيسيا ، ومن بوليفيا الى اليونان ، كان الاسطول الاميركي ، والطيران الاميركي ، والمخابرات الاميركية ، تسحق المنجزات التي تمت في فترة ما بعد الحرب العالمية الاخيرة ويوقف مجرى التاريخ . حتى ليمكن القول ان الستينات كانت ذروة الجبروت الاميركي . أما السبعينات ، فستكون فترة الانهيار والخراب التام .

كانت ١٩٦٦ سنة حزن شديد على وفاة والدي ، بعد اربع سنوات من المرض . واحسست بأسى عميق على فقدانه ، وفي خريف تلك السنة ، كاد يكون كل معلم في المدرسة يلبس ثياب الحداد اسفاً على فقدان عزيز له . فكنا جميعاً تعساء . وزيادة على تعاستي ، انا شخصياً ، طردت الحكومة الكويتية اخي محمد لنشاطه السياسي ، كما ان اسرائيل استأنفت سياسة « الانتقام الجماعي » .

ذلك ان اسرائيل ادركت ان عبد الناصر في موقف ضعيف ،

فقررت اختبار الارادة العربية باستغلال عمليات فتح في الارض المحتلة للهجوم على الاردن . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) قام الاسرائيليون بهجوم انتقامي وحشي على « السمو » فهدموا البلدة كلها وقتلوا وجرحوا العشرات . وكان الرد العربي على ذلك صفراً . فالقيادة العربية المشتركة حبر على ورق . وكل ما فعله العرب هو الشكوى الى الامم المتحدة ، حيث صدر قرار آخر بلوم اسرائيل وانتقادها ، وذلك بموافقة اميركا . وبعد بضعة اشهر ، اي في نيسان (ابريل) ١٩٦٧ ، امتحنت اسرائيل ايضاً مدى قوة الحلف الذي عقدته سوريا مع عبد الناصر ، فاسقطت بعض الطائرات المقاتلة السورية ، دون ان يتحرك جناح طائرة واحدة من طائرات الميغ المصرية . ولم يقف الاسرائيليون عند هذا الحد ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فتحدوا عبد الناصر في ايار ، فوقع في شباكهم . وخلال اسبوع واحد من حزيران (يونيو) ذبح الجيش المصري ، وتحول سلاحه الى حطام ، وهبطت قوته « المتفوقة » في الشرق الى الحضيض . وهكذا تبخرت احلام القوميين العرب في ساعتين وخمسين دقيقة ، وهي المدة التي استغرقها الطيران الاسرائيلي لتحطيم السلاح الجوي المصري على الارض في ٥ حزيران ١٩٦٧ . وبذلك انتهت حقبة من التاريخ ، فشلت فيها طبقة اجتماعية في حماية المصالح العربية ، لجهلها وقلة فطنتها . وفقد المحارب العربي كل معنوياته . والناصرية ، ان لم يكن عبد الناصر ،اصبحت في عالم الاموات .

وكنت اتوقع انتصار العرب ، فلم اصدق هذه النتيجة . لكني صدقتها حين قدم عبد الناصر استقالته في ٩ حزيران ١٩٦٧ . وأفقت من حلمي ، فحطمت الراديو وغرقت في فترة طويلة من الصمت . ها عالمي ينهار . وخيل الي ان كل عربي اصبح الآن عبداً . والاسباب التي كنت هيأتها للعودة الى فلسطين للاحتفال باسترجاع الوطن ذهبت مع الريح . ولم تكن لي رغبة في العودة الى بيروت . وبقيت منكمشة على نفسي نحو شهر ، ثم قررت السفر الى لبنان للتحقق مما حدث .

وروى لي اخي وليد آخر التطورات في حركة القوميين العرب . وفي خريف ذلك العام ولدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

وفي ما يأتي خلاصة ما جرى في ربيع ١٩٦٧ :

في ١٢ ايار (مايو) هدد أشكول وقواده بالزحف على دمشق لاسقاط البعثيين « الحمقى » . وفي ١٤ ايار ، اعلنت المصادر المصرية والسوفياتية عن حشد قوات اسرائيلية ضخمة على الحدود السورية . واقترح اللواء عامر القيام بهجوم على اسرائيل في ذكرى مولدها التاسع عشر ، فرفض عبد الناصر . وفي ١٧ ايار ، طلب عبد الناصر سحب قوات الطوارىء الدولية ، فلبت هذه الطلب في غضون يومين . وفي ١٨—١٩ ايار ، استعرض عبد الناصر قواته ، وهي بثياب الميدان وفي طريقها الى الجبهة ، امام السلك الديبلوماسي الغربي في القاهرة . وفي ٢٢ ايار ، اي بعد مرور احدى عشرة سنة على العدوان الثلاثي على قناة السويس ، عادت القوات المصرية الى شرم الشيخ واعلنت الحصار على التجارة البحرية الاسرائيلية . وكان عبد الناصر في ذلك يطلق كل سهامه ويتحدى جميع الاعداء . وكم ابتهجت حين ظهرت الحيرة على الاسرائيليين ، كأنما كانوا في حالة فوضى وتردد . وفي ٢٦ ايار ، قام سفيرا اكبر دولتين في العالم ، اميركا والاتحاد السوفياتي ، بزيارة عبد الناصر واكدوا له انه اذا لم يبدأ باطلاق الرصاص ، فالاسرائيليون لا يبدأون . واخذت الدول البحرية تصيح وتضع الخطط في رعاية اميركا . لكنهم لم يحركوا ساكناً . وبدا كأنما عبد الناصر يقبض بيد من حديد على زمام الموقف . واسرع الحسين الى القاهرة ، معلناً مؤازرته واستعداده للتحالف مع عبد الناصر ، على أمل ان ينال نصيبه من مغانم الحرب . ودعا عبد الناصر صحافة العالم الى مؤتمر صحافي ، خاطب فيه اسرائيل بقوله : « اهلا وسهلا ، نحن مستعدون . تعالوا وحاربوا ! ». وفي ٢ حزيران (يونيو) ، اي قبل ثلاثة ايام من ابتداء

المعركة ، أخبر بعض «الاصدقاء» عبد الناصر بأن الاسرائيليين سيبدأون بالهجوم صباح ٥ حزيران . وكنا كلنا نعتقد ان الزحف على حيفا وتل ابيب لن يستغرق اكثر من اسبوع . لكن النتيجة برهنت ان الزحف على السويس لم يستغرق الا ستة ايام . وفي هذه الاثناء ، بدأ الاسرائيليون بالهجوم ولم يتسن للصقر المصري ان يطير عن الارض . وتحول سلاح الجو المصري الى حطام ، بينما كان الطيارون يحتفلون بعيد ميلاد ابنة الاميرال ، مع ان حالة الاستنفار مضى عليها ثلاثة ايام. وفي ٥ و ٦ و ٧ حزيران اذاع راديو القاهرة ونشرت الصحف المصرية خبر اسقاط مئات الطائرات الاسرائيلية ، واحتلال المدن ، واقتراب ساعة النصر . وهتفنا للنصر العربي . وفي ٨ حزيران ، ساد الصمت ، فادركنا في الحال ان الوضع ليس على ما يرام . وحين اتخذت الامم المتحدة قراراً بايقاف اطلاق النار ، وافق عليه عبد الناصر . وفي ٩ حزيران قدم استقالته . وهكذا رمت الجمهورية العربية المتحدة سلاحها ، وانقلبت الرياح في صالح اسرائيل . وبلغ الحلم نهايته .

وفيما كان المسؤولون يلوحون بالحرب من اذاعات القاهرة وتل ابيب وسائر العواصم ، كنا نحن في الكويت نقيم التظاهرات تأييداً للوحدة العربية والقيادة العربية المشتركة . وتبرعت مع سواي من الذين لهم خبرة في التمريض بالذهاب الى جبهة القتال . فرفضوا تبرعنا . والذين كانوا يدخنون التبغ الاميركي سارعوا الى طرحه جانباً . وغلب علينا الوهم حين علمنا ان الكويت ، هذه الدولة الصغيرة ، ارسلت جنودها لدعم الحصون العربية والاشتراك في معركة المصير . وفي ٥ حزيران ، يوم الحساب ، ذهب المعلمون الى المستشفى ليتبرعوا بدمائهم . وكنت طيلة شهر اصغي الى الانباء ، ساعة فساعة ، وها هي الساعة الاخيرة على الابواب . هل هي ساعة النصر أم الهزيمة ؟ كانت ساعة الهزيمة ، وعلى نطاق لم يحلم به حتى الاسرائيليون . واستقال عبد الناصر فاعادته الجماهير الى الحكم . وعاش بعد ذلك ثلاث سنوات او يزيد .

وكان صيف ١٩٦٧ فارغاً من الاحداث . كل امل زال . لم يقع

شيء ، أو يكاد ، ليعيد الي الثقة . وعدت الى الكويت مع زملائي . واولئك الذين كانوا في الضفة الغربية عادوا بروايات مرعبة ، فكان اثرها عميقاً في كل واحد منا . وكانت هذه الروايات ملأى باخبار الوحشية الاسرائيلية . وكلما سمعت تفاصيلها المعهودة ، كالاغتصاب والنهب والسلب واستعمال قنابل النابالم ، اشتدت نقمتي وحمي غضبي . لا شيء الآن يزيل العار عن العرب او يحرر الارض المحتلة . وكل تلك الخطب والبيانات والتحركات الديبلوماسية ومؤتمرات القمة وما الى ذلك ، لن يقدم او يؤخر قيد شعرة . وما بذلته من جهد في الهلال الاحمر ، وما تبرعت به من مال أو جمعته من متبرعين آخرين ، تقلص الى لا شيء . وفي ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) صادق مجلس الامن الدولي على احتلال اسرائيل الدائم لبلادي ، بموافقة الدول العربية . ذلك انه منح اسرائيل حق استعمال الممرات المائية ، وحق الحصول على « حدود آمنة ومعترف بها » لقاء حل مشكلة « اللاجئين الفلسطينيين » والانسحاب الى حدود ما قبل ٤ حزيران . لكن اسرائيل أصرت على ان يستسلم العرب استسلاماً تاماً .

وكأنما اريد لي ان ازداد يأساً . ففي ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ ، اغتيل تشي غيفارا ، بطلي ، على يد عملاء المخابرات المركزية الاميركية . وكانت حرب حزيران ضعضعت وجودي وعرت كياني . أما اغتيال غيفارا ، فهز ضميري . ها ان ثورياً ارجنتينياً حارب مع فيدل كاسترو في كوبا وساعد في انتصار الثورة في اول كانون الثاني الثاني (يناير) ١٩٥٩ ، بعد مرور ثماني سنوات احتل مكانة دولية مرموقة . وكانت شخصيته تكاد تساوي شخصية كاسترو . الا انه ضحى بمنصبه كوزير للصناعة ، حين اصطدمت آراؤه الشخصية بآراء كاسترو . وعوضاً عن ان يجعل من هذا الخلاف قضية عامة تزعزع كيان الثورة في كوبا ، آثر البحث عن بلاد اخرى تحتاج الى نشاطه

الثوري . فطاف البلدان الافريقية، وتصاحب مع بن بيللا، وعمل في الكونغو ضد خلفاء تشومبي الانفصاليين واعوانه من المرتزقة الاوروبيين. لكن النفوذ السوفياتي اخرجه من الكونغو ، فحط رحاله في بوليفيا مع ستة عشر رجلا من رجاله ، حيث جاهد احد عشر شهراً في سبيل اسقاط ديكتاتورية بيريانتو. غير ان ما تنطوي عليه جغرافية البلاد من صعوبة ، وعدم تجاوب الفلاحين مع دعوته ، ومقاومة الكتائب المسلحة التي دربها الاميركيون ، حكمت على مخططه بالفشل الذريع . غير ان غيفارا تجرأ على الوقوف في وجه اميركا ، فكان جزاؤه الموت في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، لا على ايدي الكابتن برادو والكولونيل سلنيش ، كما ارادوا العالم ان يصدق ، بل على ايدي جونسون وهامفري . ويمكن ، في نظري ، تبرير استشهاد غيفارا ، بقيمتها العظمى للثورة العالمية . ذلك ان حياته كانت تجدداً دائماً ، وسلوكه قدوة مثلى ، والتزامه تاماً لا نقصان فيه . وهو أمر يجب على كل حركة ثورية ان تتفهمه كل التفهم . وان روح «المغامرة والمثالية» التي اتصف بها ضرورية للتذكير بمناعة الروح الانسانية في عالم يشل فيه الخوف من اميركا الملايين ، ويجمد نشاط دول كبرى ، ويقعد عن العمل ثوريين اعلنوا ثوريتهم على رؤوس الاشهاد .

والحق ان غيفارا عاش بطلا ، ومات بطلا . ومع ذلك ، فأنا كثورية ، كنت قابعة بعيداً في الكويت ، حين افتقر شعبي الى ثوريين وابطال على شاكلة غيفارا .

وهكذا عزمت على الانضمام الى الثورة .

القسم الثاني

اعلان انسانية جديدة ـ المقاومة والثورة

٤ – الطريق الى حيفا

كانت الجماهير العربية ، لسنوات عديدة ، تعلّق آمالها على عبد الناصر في التحرر من الصهيونية ومن الاضطهاد والظلم . لكن الناصرية ، بعد هزيمة ١٩٦٧ ، سقطت الى الحضيض .

وفيما كان موشى ديان جالساً في مكتبه بانتظار مخابرة تلفونية من القاهرة تعرب عن رغبة عبد الناصر في عقد صلح دائم مع اسرائيل ، كان زعماء الناصرية والبعثية يفسرون هزيمتهم على انها نتيجة «الاهمال ، والاعتداد بالنفس ، والضعف في القيادة العسكرية » ، عوض ان يذكروا الاسباب الحقيقية لانتصار اسرائيل الساحق ، وهي انحطاط الاسس التي يقوم عليها المجتمع العربي ، وفساد الطبقة الاجتماعية ، وعدم كفاءة القيادة . وفي هذه الأثناء كان الصهيونيون يعزون انتصارهم الى القدرة الالهية وتفوق شعبهم المختار وتمرسهم بالتقنية الغربية ، والى ما هنالك .

لكن عبد الناصر ، لعوامل عجزت عن فهمها القوى الامبريالية ، لم يقم بتلك المخابرة التلفونية المتوقعة . ذلك انـــه أبى ان يستسلم ، ولو فعل لكـــان احرقه الشعب المصري في وسط القـــاهرة . والحق ان اي زعيم عربي لا يتجرأ على عقد صلح في المستقبل مع ديان او اي طاغية صهيوني آخر ، ما لم يكن ينوي الانتحار . على ان الشعب الفلسطيني هو الذي خابر ديان ، ولكن بالقنابل في وضح النهار . وهكذا دخل الفلسطينيون الى الميدان قوة جماعية حاسمة ، وصمموا على صنع تاريخهم ، والتحدث عن انفسهم بانفسهم ، والقبض على زمام مصيرهم . وما ان حدث ذلك بالفعـــل ، حتى تكاتف المصريون والاميركيون ، والاسرائيليون والروس ، والديغوليون والبريطانيون ،

وقوى « السلم » جميعها ، وعزموا على القضاء علينا .

وفي عشية حرب حزيران ، بدا للناظرين من الخارج ان الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي في طريق الاصطدام . لكن الذين في الداخل ويعرفون بواطن الامور كانوا يرون خلاف هذا الرأي . وهذا ما جاء في كتاب عن الموضوع وضعه مستر فيلي :

« من ثلاث سنوات وتسعة اشهر بقي الخط الذي يصل الكرملين بالبيت الابيض هادئاً والحمد لله ، لا يحمل الا رسائل تجريبية وتهاني متبادلة لمناسبة حلول العام الجديد . ثم جاء صباح الخامس من حزيران بنبأ صاعق ، وهو ان الاتحاد السوفياتي استعمل الخط لغرض جدّي للمرة الاولى . لكن الرسالة كانت مطمئنة حقاً : سيقف الاتحاد السوفياتي على الحياد في حرب الشرق الاوسط ، شرط ان تحذو اميركا حذوه . وبكلمات حذرة ، اجاب جونسون بالموافقة » .

وكانت « كلمات جونسون الحذرة » طريقة بسيطة لجعل باب الاختيار مفتوحاً . ذلك ان المخابرات المركزية ، وجماعة البنتاغون ، وموظفي وزارة الخارجية ، اكّدوا له ان اسرائيل ستربح الحرب في اربعة ايام . فلو لم تصدق حساباتهم ، لتدخلت اميركا دون ريب . ويقول الكاتب مستر فيلي ، استناداً الى مصادر وزارة الخارجية الاميركيـــة والبنتاغون ، انه كان يتعذر على اميركا ، لعوامل اخلاقية وعملية ، ان لا تتدخل . ويعلل اسباب ذلك بالقول :

« اسرائيل هي احدى البلدان الديمقراطية القليلة في آسيا والشرق الاوسط . وحيث ان العالم ينظر الى الولايات المتحدة كحامية لاسرائيل ، سواء ارادت الولايات المتحدة ان تكون كذلك او لم ترد ، فان تدمير اسرائيل ، بمعونة الاتحاد السوفياتي ، دون ان ترفع الولايات المتحدة إصبعاً لنجدتها ، يثير عاصفة من الرعب في العالم اللاشيوعي من اقصاه الى اقصاه . ثم ان اسرائيل ، اذا سقطت ، لن تبقى اية بلاد صديقة للغرب في مأمن من عبد الناصر والروس » .

فاذا كان قرار « عدم التدخل » قد اتخذته الدولتان العملاقتان في

الخامس من حزيران ، وبدا انهما كانا على اتفاق لا على خصام ، فما قيمة تلك المعارك الكلامية في الامم المتحدة ، ولماذا عقدت تلك الجلسة الطارئة للجمعية العامة بدعوة من الاتحاد السوفياتي ؟ فهل كان ذلك كله لخلق جو نفسي يمهد سبيل الدولتين العملاقتين الى استئناف العودة الى تسليح الطرفين المتخاصمين في الحال ؟

وفي ١٩ حزيران ١٩٦٧ ، تكلم كوسيغين في الامم المتحدة ، وكان على رأس وفد طويل عريض ، فاتهم اسرائيل بالعدوان ، وطالب بانسحابها الى حدود ما قبل ٤ حزيران ، وحثّ الامم المتحدة على حمل اسرائيل على دفع تعويض عن الاضرار التي لحقت بالعرب . وكان الرئيس جونسون ، قبل ان يتكلم كوسيغين هذا الكلام بساعة واحدة ، لخص الموقف الاميركي من قضية الشرق الاوسط بخمس نقاط هي : حق الحياة لجميع شعوب المنطقة ، والعدالة للاجئين ، واحترام حقوق الملاحة ، واعطاء الامم المتحدة معلومات عن شحن الاسلحة الى الشرق الاوسط ، واحترام استقلال دول المنطقة وسيادتها الاقليمية على اساس السلام . وهذه النقطة اوحت ايضاً بـ« الاعتراف الطاغي بما للاديان الثلاثة الكبرى من مصالح في الاماكن المقدسة من القدس » .

وبلغ من التشابه بين هذا الموقف الاميركي وبين الموقف الاسرائيلي في البيان الذي القاه ايبا ايبان في الجمعية العامة ، ما يحمل على الاعتقاد ان الاقلام التي صاغت تعابيرهما اقلام واحدة . وفي اية حال ، كان كلا الموقفين موقف الظافر . ومن الواضح لماذا اعتبرت الدول القزمة في الامم المتحدة — من افريقيّة ولاتينيّة واسيويّة — ان جونسون وايبان وقفا موقفاً معقولاً ، وحيادياً ، وسمحا في حالة النصر . وحيث ان السوفيات كانوا الى جانب المهزوم واستعاضوا عن القيام مع العرب بعمل مشترك بالكلام الدعائي ، لم يبق امامهم الا السبيل الذي اتبعوه . ورفض الجميع ، من مشتركين في هذه المسرحية ومن مشاهدين ، ان يأخذوا علماً بما يأتي :

(أ) أن جميع المتكلمين في الامم المتحدة باسم فلسطين انكروا كيان

الفلسطينيين كشعب وصنفوهم كلاجئين ،

(ب) وانهم جميعاً نظروا الى الصراع على انه بين الدول العربية ودولة اسرائيل ، عوض ان ينظروا اليه على انه صراع بين العرب والصهيونية ، وبين شعب مظلوم وظالميه الامبرياليين .

(ج) وانهم جميعاً اقترحوا نوعاً من الحلول السياسية الاقليمية بين الكيانات السياسية القائمة ، عوض ان يعملوا الفكر في ايجاد مجتمع جديد يتاح فيه للعرب واليهود تقرير مصيرهم بانفسهم في نطاق جمهورية عربية اشتراكية متحدة .

وهكذا كان ان جميع المقترحات التي قدمت لم تلق من الفلسطينيين سوى الرفض . ذلك ان كل اقتراح يفرض مسبقاً استمرار وجود الدولة الصهيونية في وسطنا هو اقتراح يناقض الثورة العربية الاشتراكية .

ولم يكن كل ذلك الكلام في الامم المتحدة الا سفسطة . فقبل المهزوم وقف اطلاق النار على اساس المغانم التي حققها المنتصر . ولم تصدر الامم المتحدة اي قرار يطالب اسرائيل بالانسحاب ، بل اكتفت بتعيين مراقبين على ضفتي قناة السويس . وشرعت اسرائيل ببناء مستوطنات شبه عسكرية في جميع المناطق التي اشير اليها اولاً بـ« المحتلة » ثم بـ« الواقعة تحت الادارة العسكرية » ، واخيراً بـ« المحررة » . وعاد الاميركان والسوفيات الى الجمعية العامة في دورة انعقادها العادية في الخريف ، فكرروا الكلام الصارخ نفسه ، وتبادلوا الاتهامات الصاخبة نفسها ، واتخذوا القرارات التي لا يخرج مضمونها عن مضمون ما سبق من قرارات . وتكلم المندوبون العرب كأنهم هم المنتصرون وطالبوا بانسحاب اسرائيل الكامل . واستندوا في حججهم الى مبادىء الاخلاق والعدالة الغربية ، غير مدركين ان هذه المبادىء نفسها هي التي كانت تبرر « تسامح » الصهيونيين ازاء العرب . وفي نهاية المطاف ، اتخذ مجلس الامن ، بموافقة جميع الاطراف المعنية ، قراره الشهير تحت

رقم ٢٤٢ ، بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ . وهذا هو نصّه :

« ان مجلس الامن ،

يعرب عن اهتمامه المتواصل بالوضع الخطير في الشرق الاوسط ،

ويصرّ على تحريم التوسع الاقليمي بالحرب ، وعلى الحاجة الى السعي نحو سلام دائم يتيح لكل دولة في المنطقة ان تعيش في امان ،

ويصر ، بالاضافة الى ذلك ، على ان جميع الدول الاعضاء التزمت ، عند موافقتها على ميثاق الامم المتحدة ، بتطبيق المادة الثانية من هذا الميثاق ،

ولذلك ، فانه :

١ — يؤكد ان العمل باحكام الميثاق يتطلب اقامة سلم عادل دائم في الشرق الاوسط على اسس تتضمن الاساسين التاليين :

(أ) انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي التي احتلتها في النزاع الاخير ،

(ب) انهاء حالة الحرب وجميع المنازعات الناشئة عنها ، واحترام سيادة كل دولة في المنطقة والاعتراف بهذه السيادة ، وبوحدة اراضيها ، وباستقلالها السياسي ، وبحقها ان تعيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، تكون بمنجى عن التهديد باستعمال القوة او باستعمالها .

٢ — ويؤكّد ، بالاضافة الى ذلك ، ضرورة

(أ) ضمان حرية الملاحة عبر الممرات المائية في المنطقة ،

(ب) ايجاد حلّ عادل لقضية اللاجئين ،

(ج) ضمان الحصانة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة ، باتخاذ اجراءات في جملتها تحديد مناطق منزوعة السلاح .

٣ — ويطلب من الامين العام تعيين مندوب خاص يذهب الى الشرق الاوسط لاجراء الاتصالات مع الدول المعنية بالامر في سبيل الوصول الى اتفاق ، ولدعم الجهود المبذولة في سبيل بلوغ حلّ سلمي مقبول ، وفق احكام هذا القرار ومبادئه .

٤ -- ويطلب ايضاً من الامين العام ان يقدم تقاريره الى مجلس الامن عن تطورات الجهود التي سيقوم بها المندوب الخاص ، وذلك في أقرب وقت ممكن » .

وما من شك ان هذا القرار رقم ٢٤٢ ، يحتوي النقاط التي أعلنها جونسون في بيانه بتاريخ ١٩ حزيران . كما انه يتضمن المطلب العربي — السوفياتي بالانسحاب الاسرائيلي دون تحديد او اصرار على ان يكون شاملاً وفورياً . وأهم من ذلك ان القرار يحرم التوسع الاقليمي بالحرب ، لكنه في واقع الامر يصادق على الاحتلال الاسرائيلي باستعداده لمبادلة احتلالها هذا بـ« حدود آمنة ومعترف بها » ويمنحه اياها جميع المواصفات الشرعية الخاصة بدولة لها كيانها الدائم الذي لا نزاع فيه . ثم ان القرار يشير الى « حل عادل لقضية اللاجئين » ، كانما نحن عدوى انتشرت في بيئة ما ومن الضرورة التصدي لمعالجتها . لكنه في الوقت نفسه يقضي بضمان « الحصانة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة » . وزعم الديبلوماسيون الغربيون ان القرار ٢٤٢ هو « كسب حقيقي للديبلوماسية الغربية » ، ونكسة خطيرة للسياسة السوفياتية في الشرق الاوسط . وفي ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، ابدى الرئيس عبد الناصر شعوره تجاه القرار ٢٤٢ . فبعد ان عدّد الخسارة التي منيت بها مصر ، وهي مقتل ما يزيد على مئة الف جندي والف وخمسمئة ضابط ، ووقوع ما يزيد على خمسة آلاف وخمسمئة أسير ، اعلن بكل قواه انه كان اقوى الآن في تشرين الثاني منه في ايار الفائت . على ان مركزه الواهن الضعيف قبوله الضمني بالقرار ٢٤٢ واكتفاؤه بالقول فيه انه « ناقص وغامض » .

كان الجو في ذلك الوقت قاتم بالنسبة لي . كنت حائرة ويائسة . وفي الخريف رجعت الى الكويت وتبادلت الرأي مع زملائي . فوجدت ان الذين كانوا في الارض المحتلة مستاؤون ويتحدثون عن امكان القيام

بكفاح مسلح . وان الذين طافوا الاقطار العربية عادوا غاضبين وخائبين وحائرين . ولا شيء بدل الحال في ذلك الخريف . وباقتراب العام الجديد . تسربت الى الكويت انباء عودة فتح الى استئناف نشاطها . وقيل لي همساً ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اعلنت عن خروجها الى حيّز الوجود . وحين كنت في بيروت في الصيف لم استطع ان اقوم بأي اتصال مباشر برفاقي خارج صور . ومضت سنة دراسية بكاملها دون ان اقف على اخبار الجبهة الشعبية . وحيث ان خلايا حركة القوميين العرب في الكويت ازيلت من الوجود ، ضاق مجال تحويل فرع الحركة الى خلايا للجبهة الشعبية ، مع ان ذلك جرى في امكنة اخرى من العالم العربي . ولم يكن لي ما اعمله الا الاشتراك في نشاط فتح . وهكذا فعلت .

وفي البداية ، كان معظم المعلمين الذين يميلون الى العمل السياسي لا يعرفون ماذا يفعلون . ولم يحدث شيء طوال تلك السنة الدراسية غير رتابة التعليم . لكننا كنا نواصل جهدنا في توجيه التلاميذ ونتحدث اليهم عن الاسباب التي ادّت الى فشل الناصرية في توحيد العالم العربي والدفاع عنه . وركزنا على هذه المسألة الاخيرة كموقف دفاعي ضد التنديد بالفلسطينيين لتسببهم بالنكبة التي نزلت بمصر . وبدا آنذاك ان الرأي العام كان يعطف على عبد الناصر ويحسب ان اسهل وسيلة لاسكات الفلسطينيين هي استعمالهم كقميص عثمان . لكني انا وزملائي لم نشعر باي ذنب . لذلك اتخذنا موقف الدفاع . ثم توسلنا التنديد بالفلسطينيين كنقطة انطلاق الى انتقاد الناصرية لا عبد الناصر نفسه .

وكانت فتح المنظمة الوحيدة المسموح لها بالعمل في الكويت . ومع ان منظمة التحرير الفلسطينية كانت معترفاً بها ككيان فلسطيني شرعي ، الا انها كانت تفتقر الى القادة والاتباع بعدد ذي قيمة وشأن . وكنت انا نفسي تخطيت عاطفتي المعتدلة نحوها واخذت ابحث عن منفذ آخر لحيويتي السياسية ، فوجدت في فتح ، وقد استأنفت نشاطها يوم ١٨ آب (اغسطس) ١٩٦٧ ، مجالاً لي وتحدياً . وسعيت مع رئيس المدرسة وبعض المعلمين الى العمل في فتح لتحرير فلسطين . وكنت درجت في

حركة القوميين العرب على الحوار والمناقشة وتبادل الرأي في المناهج والخطط ، أما في فتح ، فكانت مهمتنا الوحيدة جمع التبرعات المالية . ولم يكن لنا نصيب في وضع السياسة ، بل كنا محض شهود وبياعي تذاكر في هيكل فتح . وكانت تلقى علينا محاضرات دورية تتناول العموميات في معالجتها استراتيجية الحركة ، وايديولوجيتها ، وتمويلها ، والعضوية فيها .

وفي بادىء الامر ، حسبت ان من الوقاحة توجيه الاسئلة العديدة ، لأني عضو جديد في صفوف فتح . لكني ، فيما بعد ، رأيت انني ، كفلسطينية ، من واجبي ان اعرف ماذا كنا نفعل لخلق فلسطين جديدة . فبدأت ألح على اعطائي اجوبة عن اسئلتي : لمن أو أمام مَن فتح مسؤولة ؟ لماذا قبلت معونات مالية من السعودية وسواها من المصادر الرجعية ؟ ما هو مضمون منهاجها الاجتماعي – الاقتصادي ؟ لماذا حاولت عزل نفسها عن الجماهير العربية ؟ وما هو أهم من ذلك ، اردت ان أعرف ماذا على المرأة ان تفعل غير جمع التبرعات ؟ لكن معظم الاجوبة لم احصل عليها ، والتي حصلت عليها كانت غير وافية . وقيل لنا ان الحركة مستقلة لا تتبع احداً ، وان قادتها يجب ان يظلوا طيّ الكتمان لاسباب تتعلّق بالامن . على ان فتح ، كما عرفت فيما بعد ، كانت أفضح سرّ في العالم . فأسماء قادتها الحقيقية والمستعارة معروفة للعالم كله ، كما ان نشاطها يجري علناً في عمان امام العدو والصديق على السواء . أما لماذا قبلت فتح بمعونات مالية من السعودية ، فلأنها – كما قال لي مدربي وموجهي – يجب ، في مرحلة التحرير ، ان تتحالف حتى مع الشيطان لاحراز النصر . وأصرّ مدربي وموجهي هذا على ان الفلسطينيين وحدهم مسموح لهم بالاشتراك في الثورة . وكانت فتح ، في ذلك الوقت ، لا تقبل الا الفلسطينيين في صفوفها ، لكنها فيما بعد عدلت في موقفها هذا قليلاً تحت الضغط . فكأنما العرب هم عنصر آخر من البشر . ولم يقنعني مدربي وموجهي ابو علي بحججه هذه ، بل زاد في شكوكي . وبالرغم من ذلك واصلت نشاطي مع فتح ، لانني لم اجد بديلاً عنها .

وكثيراً ما كان ابو علي يسألني عما يقلقني ويجعلني أوجّه أسئلة كثيرة محرجة . وكنت دائماً اجيبه : « لا نقدر ، يا ابا علي ، على الفوز ما لم يكن لدينا منهج واضح وعضوية منظمة . وفضلاً عن ذلك ، يجب ان نعرف كل الحقيقة عن الثورة ، لا الاكتفاء بمعرفة شعاراتها » .

واطلقت اسئلتي سلسلة من الاحداث حملت كبار المسؤولين في فتح على التصدي لمعالجتها . وكان اصدقاء الحركة وانصارها يزدادون قلقاً لأن علاقتهم بها كانت مادية محض ، لا علاقة يشد أواصرهـا التفاعل السياسي المتبادل او الاشتراك في كيفية العمل السياسي . واخذ موقفي يتضح للحضور . وكنت اوجه اسئلتي باعتدال ، فيشفع لي فيها ما عرف عني من البذل والتضحية . وكان على فتح ان تجيب عن هذه الاسئلة . وجاءني فتحي عرفات ، وهو شخص بارز في الحركة واخو ياسر عرفات ، وتحدث اليّ طويلاً . وكانت أهم مسألة ابرزتها هي دور المرأة في فتح . ثم ناشدته بان يسمح لي بالانضمام الى الجنـاح العسكري من فتح ، اي « العاصفة » ، لاني تدربت عسكرياً عدة سنوات. فوعدني ان ينظر في الامر ويجيبني . وبعد شهر سألني اذا كنت على استعداد للذهاب الى الاغوار ، على الجانب الاردني من نهر الاردن ، فاجبته بالايجاب ورحت اضع نفسي على اهبة الاستعداد . لكنه الى اليوم لم يعد الي ليخبرني متى واين وكيف اتصل وبمن . وفي هذه الاثناء تلطف زملائي في فتح ووجدوا دوراً لي . فاقترحوا ان تقوم جماعة منا بعمل خلاّق في عطلة صيف ١٩٦٨ ، وهو ان نساعد الامهات المتعبات في مخيمات اللاجئين وان نزور عائلات الشهداء . لكنني صرخت احتجاجاً : « كلا . العمل الاجتماعي هو غير الثورة الاجتماعية . اريد ان اشترك اشتراكاً كاملاً في الثورة » . وغطى على مثل هذا الكلام ما حدث يوم ٢١ اذار (مارس) حين سجلت فتح الضربة التاريخية الاولى ، فبدأ مدّ اليأس العربي ينحسر . كان ذلك معركة الكرامة التي توقف عليها مصير فتح .

والكرامة مدينة فلسطينية على الجانب الشرقي من نهر الاردن ،

بناها الفلسطينيون من لا شيء بعد ١٩٤٨ . كانت رمز الامل والكرامة . وحاول الاسرائيليون محوها من الوجود ، ففشلوا في ذلك للمرة الاولى في تاريخ انتصاراتهم الطويل . وكان فشلهم هذا بسيكولوجياً اكثر منه عسكرياً . لكنه كان نقطة تحول جعل منها العرب حادثاً ضخماً يوحي بأن تحرير فلسطين أصبح وراء الباب . وتدفق الوف المتطوعين ، وتجمع الذهب بالاكياس ، وورد السلاح بالاطنان . وفجأة تراءت فتح للعرب ، وهي حركة لا تعدّ اكثر من بضع مئات من رجال العصابات المدربين ، كانها جيش التحرير الصيني عشية تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٩ . حتى الملك حسين اعلن انه من الفدائيين ! وشعرت الجماهير الفلسطينية العربية ان استرداد فلسطين لن يستغرق سوى بضعة أشهر . وتعافى هذا السيل حين انضمت الحكومات العربية الى صفوف المهللين لفتح واخذت تزودها بالصواريخ والناقلات الحربية والمدافع وما الى ذلك . وهكذا جعلت الثورة في بحبوحة وغنى ، لانها كانت في حاجة الى فتح لتستر عيوبها ونقائصها . وكان من جراء ذلك ان اصبحت فتح اغنية شعبية ، وموضة ، و« تقليعة » ، وان أصبح قادتها وجنودها وموظفوها منقذين وقديسين وملائكة . وكانت فتح ، بزعامة ياسر عرفات ، تطلب ود منظمة التحرير الفلسطينية . وفي تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، حين كانت فتح ومنظمة التحرير تتبادلان الصدود والوصال وتتمتعان بهناء الاقامة في اوتيل هلتون على شاطىء النيل ، قام ثلاثة من الثوار بمفردهم بمغامرة تاريخية رائعة . فما كان من منظمة التحرير الا ان نددت بهذه المغامرة التي اختطفت فيها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طائرة اسرائيلية شبه عسكرية وشبه مدنية . وحطت الطائرة في الجزائر ، فأخلى المسؤولون هناك سراح الطائرة وركابها دون الاصرار على مبادلتهم . واجمعت اسرائيل ، والصهيونية العالمية ، والامبرياليون ، والدول العربية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية وما اليها ، على مهاجمة الجبهة الشعبية واتهامها بالقرصنة الجوية . وفجأة وجدت اسرائيل ان لها اصدقاء في الاوساط « التقدمية » العربية .

وفتحت هذه الحادثة عيني ، وكانت بداية نهاية المنفى لي : ها انا على وشك التحرر ، ها اني أجد بديلاً عن فتح . وعزمت على الاتصال بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

وفي الوقت نفسه حدث ما لا قيمة له ظاهرياً ، وهو ان فتاة اميركية من جمعية الشابات المسيحيات ، اسمها جين مارلو ، نزلت عندنا ضيفة في صور لمدة اسبوع . وذلك لأن اختي الصغرى خالدية كانت لها بعض الصلة بتلك الجمعية ، ولان معظمنا يتكلم الانكليزية . وكانت جين نموذجاً للفتاة الاميركية الساذجة ، الطيبة القلب . وهي جاءت الى صور لتعلم « اللاجئين » السباحة ، والرسم ، ومختلف انواع اللهو والتسلية . وكانت ، كمعظم المرسلين الاميركيين الذين أتوا الشرق لنشر روح المحبة والوئام ، تدعو الى الالفة والسلام بين الاخوة الساميين ، وفي اعتقادها أن في المنطقة مكاناً للجميع .

ودار النقاش بيننا حول مختلف جوانب « النـــزاع العربي — الاسرائيلي » ، و« اختطاف الطائرات » من الناحية المعنوية ، وشرعية العنف الثوري . فردد كل منا وجهة نظره المعروفة في هذه المواضيع . ومع انها كانت « تقدمية » في موقفها ، الا انها وجهت الي بعض الاسئلة الصارمة ، فكان لها وقع شديد علي ، لا يمكن نسيانه . ومن ذلك قولها : « هل انت لاجئة ، يا ليلى ؟ » فاجبتها : « شكلياً ، نعم . عاطفياً ، لا . فانا لم أعد لاجئة ، لانني ثورية » . فتطلعت حولها ، ثم جالت بنظرها في مسكننا قليلاً وقالت : « هل تتوقعين ان تعيشي في فلسطين برفاهية اكثر من رفاهيتك هنا ، فيما لو رجعت الى هناك ؟ » فاجبت : « ربما لا ، لكن هذا لا اهمية له ! ». فقالت: « مهم جداً ، لانك لا تتخلين عما لك هنا ، وانت لا تعملين ، شخصياً ، اي شيء لبلوغ هدفك » .

فادهشني هذا الكلام . وطار صوابي . ثم فكرت لحظة وقلت لها بصراحة : « انت على حق ، يا جين . انا اكتفي بالكلام . لم افعل اي شيء محسوس » . ولاهدىء اعصابي ، خرجت الى الشرفة ونظرت جنوباً صوب جبال فلسطين ، واقسمت بيني وبين نفسي ان اشارك

في كفاح شعبي . وحين عدت الى جين ، وجدتها تشعر بنشوة الظفر . فقلت : « الفلسطينيون شعب مجتهد ، لكنهم شعب مشتت . الكثيرون منهم تعلموا جيداً ، انما القليلون ، بمن فيهم عائلتنا ، يفعلون شيئاً للتعبير عن وجودهم الجماعي كشعب » . ثم التفت الى اخوي الاصغرين اللذين كانا ينتقدانها بشدة ويتهمانها بالميل الى الصهيونية ، وقلت لهما بالانكليزية : « كانت هذه السيدة الاميركية معلمة صالحة ، جعلتنا ندرك واجبنا نحو شعبنا . وعلينا ان لا نغضب عليها ، بل ان نشكر لها مساعدتها لنا في كشف انفسنا لانفسنا . يجب ان نعمل ، لا ان نكتفي بالكلام وسرد الحجج ضد الصهيونية ! ». فانسحب اخواي من الغرفة خجلين . وجلست انا وجين نتحدث حديثاً من القلب الى القلب .

قبل ان انضم الى فتح وبعد ان انضممت اليها ، كانت تساورني المخاوف حول مواقفها السياسية والعقائدية . لكن العمليات التي قامت بها الجبهة الشعبية في الخارج ، والصلة التي كانت تجمع بين فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية ، جعلتني ادرك ان فتح لم تكن افضل رد فلسطيني على اعدائهم . فاقتنعت ، في نهاية الامر ، بافضلية الجبهة الشعبية ، حين سمعت باخبار الاعمال البطولية التي كانت تقوم بها الجبهة في الارض المحتلة .

وعزمت على الانضمام الى الجبهة الشعبية ، لكنني لم اكن اعرف كيف أتصل باعضائها السريين في الكويت . ثم حدث ذلك بالمصادفة . ذلك انني كنت يوماً أمر بأحدى المكتبات ، واذا بي ارى رجلاً يبيع بطاقات تهنئة بعيد الميلاد ، اصدرتها الجبهة . فقرأت جيداً احدى البطاقات ، وأنا احاول ان اعرف عن امر هذا الرجل : هل هو عضو في الجبهة أم صديق لا اكثر ولا أقل ؟ وحين لم اتوفق الى ذلك ، ناشدته بقولي : « انا مضطرة للاتصال بالجبهة ، واريد ان انضم اليها . أنا فلسطينية ، وصممت على الكفاح . اريد ان اذهب الى الارض المحتلة . ارجوك قل لي بمن يمكنني ان اتصل . لو كنت حقاً من انصار الجبهة الشعبية لساعدتني » .

واصغى الرجل الى توسلاتي ، ثم أوصاني بأن اعود في الخميس التالي ، بين الثالثة والرابعة بعد الظهر ، فيقدمني الى ممثل الجبهة في الكويت . وكم كان سروري عظيماً . وفي الموعد المعين ، تماماً عند الساعة الثالثة ، دخل المكتبة ، حيث كنت بالانتظار ، شاب وسيم ، طويل القامة . وبدت عليه أمائر الجد ، وهو يحيي بائع البطاقات . وافترضت انه هو الذي كنت انتظره ، فقدمت اليه نفسي . وبعد ان ابديت له رغبتي في الانضمام الى الجبهة كفدائية ، ربّت على كتفي وقال : « آسف ان اخبرك ، يا ليلى ، انه يجب ان تتعلمي اولاً » . فتراجعت وانا اقول له : « اتعلم ؟ انا معلمة ، واعرف القراءة والكتابة وكل شيء » . فاجابني ابو نضال : « انا لا اعني « العلم » بهذا المعنى . عليك ان تدرسي عقيدة الجبهة واستراتجيتها ، وان تمارسي العمل مع رفاقك اولاً ، ثم نقرر كيف نفيد من مواهبك خير افادة في سبيل الثورة » . فقاطعته بقولي : « اريد ان اقاتل . لا استطيع الانتظار . واي حاجة لي الى مثل هذا الكلام المعسول ! ». لكن ابو نضال اجابني بصبر : « اسمعي ، يا ليلى . تحرير فلسطين سيستغرق وقتاً طويلاً من الكفاح . ولديك الوقت الكافي لتبرهني عن شدة بأسك . صدقيني ، اذا كنت قادرة على القتال ومصممة عليه ، فالجبهة لن تتردد ان ترسلك الى اي مكان تدعو فيه الحاجة اليك » .

وشجعني وعده هذا ، لكني اردت أن اتأكّد من انهم لن يهملوني ، فسألته : « ماذا افعل ، اذن؟ ». فاجاب : « اولاً ، عليك ان تذيعي الخبر في مكان عملك ، وتؤلفي جماعة تدرس وتتعلم وتضع المشاريع التي من شأنها تزويد الجبهة بالمال . وفي الاسبوع المقبل نجتمع مرة ثانية هنا ونواصل حديثنا . وسنتصل بك اذا نسيت ان تتصلي بنا » .

وتركت المكتبة ورجعت الى منزلي وانا مطمئنة . وشعرت اني في طريقي الى حيفا . كنت اخرج من الهاوية .

وفي ذلك المساء اتصلت ببعض اصدقائي الخلّص . وقضينا الليل كله معاً ، ونحن نقيم ميول كل معلم والتزاماته السياسية . وخلصنا من

هذا كله الى ان عندنا عدداً كبيراً من المؤيدين ، واننا ربما استطعنا ان ننشىء خلية في غضون اسبوع .

وبدأنا نعقد اجتماعات اسبوعية منتظمة . وكنت التقي ابو نضال في مواعيد معينة لاحصل منه على منشورات ونصائح . ووضعني ابو نضال على اتصال برفاق سابقين في حركة القوميين العرب ، انضموا الى الجبهة الشعبية . وشيئاً فشيئاً أخذنا نبني شبكة للجبهة في الكويت . واختطاف طائرة « العال » في اثينا ، يوم ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ دفعنا كثيراً الى الامام ، وخصوصاً بعد ٢٨ من ذلك الشهر ، حين اغار الاسرائيليون على مطار بيروت الدولي وحطموا ١٣ طائرة لخطوط طيران الشرق الاوسط . وشكرنا للاسرائيليين صنيعهم في انهم اكسبوا الثورة تأييد لبنان ، واعجبنا بجرأتهم في نسف طائرات تملك اميركا معظمها . ومن مركزنا الممتاز ، جلسنا ننتظر النتائج . فالعالم ، آخر الامر ، اضطر للانتباه الى ما يقوم به الفلسطينيون من اعمال . ولم تستطع الصحافة العربية تجاهل هذه الاعمال ، ولا الصهيونية اخفاءها . وعزز الاسرائيليون قضيتنا اكثر مما تجرأنا على تصوره ، وذلك بعملهم الانتقامي السريع الحاسم . وبدا ان العمل كلما كان هائلاً ، تحسنت معنويات شعبنا . فازداد شوقنا الى اكثر .

وفيما يأتي هدف الثورة الفلسطينية ، كما وردت في منهاج الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين :

ليست حركة التحرير الفلسطينية حركة عرقية أو معادية لليهود . وهي لا تستهدف الشعب اليهودي ، وانما غايتها اسقاط الكيان الاسرائيلي العسكري والسياسي والاقتصادي القائم على اساس العدوان والتوسع والوحدة التي لا تنفصم مع مصالح الامبريالية في وطننا . وهي معادية للصهيونية كحركة عرقية عدوانية متحالفة مع الامبريالية ، استغلت آلام الشعب اليهودي لخدمة اغراضها واغراض الامبريالية في هذا

الجزء الغني من العالم ، والذي هو الباب المؤدي الى بلدان افريقيا وآسيا . وغاية حركة التحرير الفلسطينية انشاء دولة وطنية ديمقراطية في فلسطين يعيش فيها العرب واليهود متساوين في الحقوق والواجبات ، كجزء لا يتجزأ من الوجود القومي العربي الديمقراطي التقدمي ، يتعايش سلمياً مع جميع القوى التقدمية في العالم .

وحركة التحرير الفلسطينية هي حركة قومية تقدمية معادية لقوى العدوان والامبريالية . والصلة القائمة بين مصالح الامبريالية واستمرار كيان اسرائيل في الوجود يجعل حربنا ضد هذا الكيان حرباً ضد الامبريالية . ومن جهة اخرى ، فالصلة القائمة بين حركة التحرير الفلسطينية وحركة التقدم العربي يجعل حربنا ضد اسرائيل حرب مئة مليون عربي في كفاحهم القومي الواحد . ومعركة فلسطين اليوم ، مع كل الظروف الموضوعية المحيطة بها ، يجعل الحرب نقطة انطلاق نحو بلوغ الاهداف المشتركة للثورة العربية .

ثم ان الحرب الفلسطينية ، فيما يخص الفلسطينيين والشعب العربي ، من شأنها ان تؤدي الى نهضة العرب وانتقالهم من مرحلة التخلف الى مرحلة التقدم في هذا العصر . وبحربنا التحررية هذه نكتسب الوعي السياسي لواقع زمننا الحاضر ، ونطرح الاوهام جانباً وندرك ان لا قيمة الا للوقائع الثابتة . والعقلية المتخلفة التي تتمثل في الاستسلام ، والاتكالية ، والفردية ، والقبلية ، والخمول ، والفوضى ، والارتجال ، ستتبدّل بفضل حرب التحرير ، ليحل محلها عقلية تدرك قيمة الوقت ، والتنظيم ، والدقة ، والتفكير الموضوعي ، واهمية العمل الجماعي ، والتخطيط ، وحشد جميع القوى ، كما تعنى بتحصيل العلم والتسلح الكامل به ، وبمعرفة قيمة الشخص الانساني . ومن شأن هذه العقلية ان تحرر المرأة ، وهي نصف المجتمع ، من قيود العادات والتقاليد البالية ، وان تأخذ بالقومية اساساً لدفع الاخطار والقضاء على القبلية والاقليمية . وتنطوي حربنا الوطنية التحررية ، وهي حرب طويلة المدى ، على دخولنا في طريقة حياة جديدة وانطلاقنا في طريق التقدم والحضارة .

أما معسكر العدو ، فهو الآتي :

(١) عدو العرب في حرب التحرير هي اسرائيل والصهيونيـــة والامبريالية والرجعية العربية .

(٢) للعدو تفوق تكنولوجي اكيـــد ينقلب ، طبعاً ، الى تفوق عسكري وقوة حربية ضخمة .

(٣) للعدو خبرة طويلة في الحؤول دون تطور الشعب نحو التحرر الاقتصادي والسياسي . وله القدرة على احباط الثورات .

(٤) طبيعة حرب التحرير ، فيما يختص بقاعدة العدو الحربية الرئيسية التي هي اسرائيل ، هي في انها حرب حياة او موت . ولذلك ستحاول القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل ان تقاوم الى آخر نفس .

أما في شأن الجبهة الوطنية والقوى التي تتألف منها الثورة ، فيقول منهاج الجبهة الشعبية :

(١) نعتبر الوحدة الوطنية ضرورة لحشد جميع قوى الثورة لمقاومة معسكر العدو . وعلى هذا الاساس يجب اتخاذ موقف محدد في هـــذا الاتجاه .

(٢) تتحقق الوحدة الوطنية بقيام جبهة تتمثل فيها جميع طبقات الثورة ، من عمال وفلاحين وبرجوازيين صغار .

(٣) يجب ان نبذل جميع الجهود لحشد قوى العمال والفلاحين في منظمة سياسية ثورية واحدة ، تتسلح بمبدأ الاشتراكية العلمية . وعلى هذا الاساس يجب ان نحاول جدياً توحيد جميع المنظمات الفلسطينية اليسارية التي ، عن طريق خبرتها والحوار فيما بينها ، تستطيع إلزام نفسها بمثل هذا التحليل .

(٤) البرجوازية الصغيرة لا تنضم الى منظمة ملتزمة بالاشتراكية العلمية والتنظيم السياسي المتين . لذلك ، فهي تنضم الى تلك المنظمات الفلسطينية التي ترفع شعارات تقدمية عامة ، وتتجنب الوضوح في التفكير وتحليل البنيان الطبقي ، وتكون في شكل تنظيمي لا يتطلب من البرجوازية الصغيرة اكثر من طاقتها . وبكلمة اخرى ، تملأ البرجوازية

الصغيرة اولاً صفوف فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية .

(٥) واستناداً الى ذلك ، والى فهمنا للصراع الاساسي ، والى طبيعة المرحلة الراهنة وضرورة الوحدة الوطنية لحشد جميع قوى الثورة ضد اسرائيل ، علينا ان نعمل في سبيل قيام جبهة وطنية تضم فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية التي تستطيع ان تزوّد حرب التحرير بالتحالف الطبقي الضروري من جهة ، وان تحمي حق كل طبقة في النظر الى هذه الحرب والتخطيط لها برؤياها الخاصة بها ، من جهة اخرى .

تمكنت فرقتنا الدراسية التي انشأناها في المدرسة من ان تتجاوز بسرعة مرحلة فهم استراتيجية الجبهة الشعبية وعقيدتها الى مرحلة الخلية . وفيما كنا ندرس ، عملاً بمشورة ابو نضال ، مؤلفات ثورية اعمق ونوسع آفاق تفكيرنا ، فوجئنا بعمل قامت به امرأة فلسطينية ثورية ، فاحتل مكان الصدارة في صحف العالم وهز اركان حركتنا .

كان صباح ١٨ شباط (فبراير) يوماً عادياً بالنسبة لي . افقت في الخامسة والنصف صباحاً وتناولت فطوري وانا اصغي الى انباء الاذاعة البريطانية . وبغتة سمعت على موجات الاثير اسم امينة دحبور . كانت بين الذين هاجموا طائرة « العال » في زوريخ . وكانت اول امرأة تشترك في عملية في الخارج . ووقع علي هذا النبأ وقوع الصاعقة .

فركضت في الممشى بثياب النوم وانا أصيح : « عملتها ، عملتها ! فلسطين ستتحرر » . وظن الجميع انني جننت . لكني نقلت اليهم النبأ ، وسرعان ما جلسنا نحتفل بتحرير فلسطين وتحرير المرأة . وتعانق انصار فتح وانصار الجبهة الشعبية ، وقررنا ان نوزع التبرعات ، منذ ذلك الحين ، بين فتح والجبهة . وتحولت المدرسة الى مركز صاخب للمقاومة . حتى التلاميذ انقلبوا الى ثوريين يجمعون التبرعات ويبيعون البطاقات . وبلغ من حسن تلقيننا لهم مبادىء الثورة ان اصبحوا ، فيما بعد ، من المؤيدين الفاعلين اكثر من العديدين منا .

وفي ذلك النهار اخبرت ابو نضال برغبتي في الانضمام الى « فرقة العمليات الخاصة » . فوافق . ومنذ تلك الساعة اخذت أتدرب تدريباً صارماً على القيام بعملي الجديد . ثم لم يبق عليّ الا الانتظار . ولم يكن طويلاً .

ففي الربيع ودعت التعليم واصدقائي الكويتيين وسافرت الى عمان . وصارت البندقية الروسية الصنع رفيقتي !

وحين وصلت الى عمان وجدت المدينة تغص بالفدائيين . وشعرت بارتياح العائد الى وطنه واهله . وبعد بضعة أيام ، نقلت مع عشرين من الرفيقات الى مخيم عسكري في شمال عمان ، حيث أخضعت لتدريب خاص دقيق . وهناك التقيت بطلة المقاومة السرية في الارض المحتلة ، اعني رشيدة عبيده . فوجدتها ، بالفعل ، امرأة جميلة وقوية الشخصية . وكانت تعرف كيف تستعمل البندقية ، ومتى تستعملها في سبيل القضية . فتصادقت معها ومع فايهه عبد الهادي في الحال .

وقبل ان نذهب في مهمة لاختبار قدرتنا على الاحتمال ، القى علينا الرفيق حسن ، رئيس المدرسة الحربية ، بعض الملاحظات الاخيرة ، ميّز فيها بين التحريض السياسي وجمع التبرعات وبين العمل العسكري — السياسي . وقال : « هذه المرحلة من عملنا قاسية وشاقة . اذا بدأتن بعملية ما ، تعذر عليكن الانسحاب منها الا عند بلوغ الغاية منهـــا . فيجب ان تفحصن ضمائركن ، ايتها الرفيقات ، لتتأكدن من انكن ، بالفعل ، مؤهلات لها » . وتبادلنا النظرات متسائلات بيننا وبين انفسنا : هل نواصل سيرنا ام نتراجع ؟ ومضت ثلاث ساعات على هذا التساؤل . وجرى نقاش حول تدريبنا : هل سيستفاد منه على نحو دائم أم حسب الظروف ؟ كما جرى نقاش حول دور المرأة في حركة التحرير ، ونوع العلاقة التي ستربطنا بوالدينا واحبابنا وازواجنا . وتبين ان المرأة التي تقرر الالتزام بهذه المرحلة من الثورة ، فعليها ان تعتبر كل شيء آخر ثانوياً . واذا لم يكن في استطاعتها ذلك ، فيمكنها الالتزام جزئياً بالثورة ، اي ان تكون من مؤيديها وانصارها .

وفي حمى هذا النقاش ، وجدت ثلاث رفيقات منا انهن غير مؤهلات لهذه المرحلة من العمل الثوري ، فقررن الانسحاب . وحين دخل الرفيق حسن خيمتنا ودّع الرفيقات الثلاث وارسلنا نحن الباقيات الى جبال الاردن الوعرة . وهناك اخذ الليل يخيم علينا ، والسهول والمدن تحتنا تحرسنا . وكانت اعصابي متوترة ، فلم انم تلك الليلة . وهكذا معظمنا في الايام القليلة التالية . فمنا من ساورتهن المخاوف ، ومنا من خشين من المجهول . أما أنا ، فادركت ان حلمي تحقق بعد طول انتظار ، فتغلبت على توتر اعصابي . ولم اعد اطيق استطالة الشك او الخوف . ذلك لاني مررت بفترة الشك والخوف ، لأشهر مضت . كنت على اهبة الاستعداد للعمل .

وكان القيام بعمل ما لا بدّ من ان يأتي . وفي هذه الاثناء بذلت كل جهدي لابرهن على انني أهل لأن أكون فدائية مقاتلة . فأطعت الاوامر باخلاص وصدق . ولم يكن لمدربيّ ما يشكون منه ، كما انهم لم يعربوا عن اي اعجاب او يسندوا الي اية مهمة . لكني كنت واثقة بأن قيادة الجبهة الشعبية ستنظر في رغباتي بعين الاعتبار وتقرر بشأنها ما يتناسب مع امكاناتي وتجاربي .

من اهم المشكلات التي واجهتها المقاومة وفشلت في معالجتها هي دمج الجماهير الفلسطينية في الجماهير الاردنية . ولم تقم فتح بأي مسعى حقيقي للوصول الى الشعب في الاردن . ونحن في الجبهة الشعبية لم نؤمن بالوحدة العربية عموماً وحسب ، بل ايضاً بوحدة الشعب الفلسطيني والاردني . ولذلك بذلنا نشاطاً مع البدو الساكنين حول مخيمنا وتوفقنا الى اكتساب تأييدهم للثورة . بل اننا قمنا بتدريب عدد كبير منهم على اعمال التجسس وتلقينهم مبادىء الثورة وتمرينهم على حمل السلاح . واتاحت لنا علاقتنا الودية معهم ان نزور مخيماتهم ونتحدث الى عائلاتهم .

وكنت ، انا وباسم قائد الفصيلة ، نزورهم كثيراً وكانوا يدعوننا الى اعيادهم . واذكر جيداً تلك الليلة التي حضرنا فيها عرساً أقاموه

قبل ان يأخذ الوالدان العروس الى خيمة عريسها . كان القمر يهمس الحب في الحاضرين ، والليلة توحي بتبادل الغرام . ورقصت الصبايا بثيابهن الفضفاضة الزاهرة التي كانت تلامس خدودنا برفق . كل شيء كان يفيض فرحاً ومرحاً . وبدأنا ، انا وباسم ، نقع في الحب .

ولم يكتمل سرورنا . اذ فاجأني رسول وناولني ورقة كتبت عليها كلمتان : ارجعي في الحال . فودعت العروس واسرعت الى المخيم . وقال لي آمر الفصيلة بايجاز : « جاءنا أمر بوجوب وصولك الى بيروت غداً في العاشرة صباحاً . ونحن الآن في التاسعة مساء » . فحزمت حقائبي وذهبت الى عمان ومنها الى بيروت ، وانا لا أعلم ما يخبئه القدر لي .

وفي بيروت كان الرفيق الذي ينتظرني هادئاً وودوداً . حين دخلت عليه كنت أصيح باستياء: «قلت لكم انني انا التي اقرر اموري. لا اريد ان اترك الجبهة بعد كل هذا التدريب والعناء » . ففوجيء قليلاً ثم قال : « اعرف هذا ، لذلك ارسلت في طلبك . لماذا تصيحين ؟ »

فاعتذرت له بقولي : « ظننت انكم ستخرجوني من الجبهة تحت ضغط عائلتي » . فابتسم ، ثم تغيرت نبرة صوته وقال بحزم : « ايتها الرفيقة ، هل انت مستعدة لدخول السجن ؟ »

فاجبت دون ما تردد : « نعم ! »

ـ وهل تستسلمين تحت التعذيب ؟

ـ لا .

ـ هل انت مستعدة ان تموتي ؟

ـ نعم . لماذا هذه الاسئلة ؟ الا تصدق يمين الشرف التي اقسمتها ؟

ـ نعم ، اصدّق .

فقلت له بفروغ صبر : « اذن ، دعنا ننتقل الى صلب الموضوع » . وتوقف قليلاً ، كانما اراد ان يعطي مهابة وجدية لقوله : « امامك مهمة ، يا ليلى . اذهبي الى البيت وودعي اهلك . وتعالي غداً في العاشرة صباحاً » . فغلبني الشعور بالفرح ، حتى انني لم اجرؤ على ان استوضحه عن تلك المهمة .

وفي صور ، داخل والدتي الشك ، حين اخبرتها بأنني عائدة الى الكويت . ولاحظت انني لم اشتر لنفسي اية ثياب جديدة ، واني غارقة في التفكير .

وتناولت عشائي مع العائلة ، لكن ذهني كان شارداً وراء تلك المهمة الغامضة .

وفي الصباح عدت الى بيروت ، فوجدت ابو زيد في انتظاري . وقال ، وقد لمعت عيناه : « انت ستختطفين طائرة اميركية » . فانفجرت ضاحكة . وفوجيء ابو زيد وقال : « لماذا تضحكين ؟ » فقلت : « هل تعلم ، ايها الرفيق ابو زيد ، ما خطر لي وانت تقول هذا الكلام ؟ تصورت انني سأحمل الطائرة على كتفي وأهرب بها ، فيركض ورائي الحراس ومن هبّ ودبّ من البشر ! » فقال : « خذي الطائرة وكفى ، ولا تدعي أحدا يفسد عليك خطتك ! »

وبعد ان تدربت على تنفيذ الخطة وحفظت كل التفاصيل ، سافرت الى روما ، لا في مغامرة غرامية ، بل في مهمة ضد الامبريالية الاميركية .

٥ – فلسطين في اميركا

فلنشتدّ قساوة . لكن حذار ان نفقد روح العطف .

تشي غيفارا . ١٩٦٧

غالباً ما يتهمون العرب بانهم ينساقون وراء العاطفة ، وانا ، كفلسطينية عربية ، لا اتمالك احياناً من ان اكون عاطفية بحق ، في ما يتعلق بخسارة ديارى وقومي وبنكران حاضري وغدي . لكني لن استسلم لنزعتي العاطفية أو اسمح لميولي ومشاعري بان تعمي بصيرتي وتهدم ثقتي بقدرة شعبي على تحرير أرضهم . وبالرغم من جبروت الاعداء ، فاني مصممة على الاعتماد على العقيدة والاستراتيجية الثورية والحشد الجماهيري الثوري لبلوغ اهدافنا . وفي عملي اخترت أن أتوسل العقل لا الهوى . وحزبي ، اعني الجبهة الشعبية ، هو ايضاً لا يتخذ اية خطوة الا بعد الدرس والتحليل والتمحيص .

ونحن لا نرتجل المشاريع الفردية الصادرة عن حب المغامرة لسدّ « فراغ في النفس » او « بدافع الخيبة والعداء » كما يقول « علماء » النفس الغربيون . بل نحن نعمل جماعياً وفق خطة مدروسة لنوقف على الحياد صديقا عتيدا للعدو ، او لضرب العدو في موضع حسّاس ، وفوق هذا كله لنجذب الانظار الى النكبة التي نزلت بنا ونعرب عن تصميمنا القاطع على تغيير « الحقائق الجديدة » التي خلقتها جيوش موشي ديان . ونحن على العموم لا نسعى الى القضاء على العدو – لاننا غير قادرين على ذلك – بل الى نشر الدعاية الثورية ودب الرعب في قلب العدو ، وحشد جماهيرنا ، وتدويل قضيتنا ، وتأليب قوى التقدم الى جانبنا ، وعرض

شكوانا وظلامتنا امام رأي عام غربي يعمل بوحي الصهيونية ويتأثر بدعايتها . وفي ذلك قال أحد رفاقنا : نحن نعمل ببطولة في عالم جبان لنبرهن للعالم ان العدو ليس ممن لا يمكن قهره . ونحن نعمل بعنف لنفتح آذان احرار الغرب الصماء وننزع القذى من عيونهم . ونصرّ على ان يكون عملنا ثورياً لنلهم الجماهير ونقدح زناد حركة ثورية عارمة في عصر لا ثوري . ومما قاله الدكتور حبش ، امين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، في هذا الصدد في ١٢ حزيران ١٩٧٠ :

« بعد ٢٢ عاماً من الظلم والعيش البائس في المخيمات ، من دون ان يهتم بنا احد ، اخذنا نشعر بأن لنا ملء الحق في ان نحمي ثورتنا . وقانوننا الاخلاقي هو ثورتنا . ما يخدم ثورتنا ويساعدها ويحميها هو حق ، وحق لا نزاع فيه وشريف ونبيل ورائع . لأن ثورتنا هي العدالة ، وهي استعادة بيوتنا وبلادنا . وهذا هدف عادل ونبيل حقاً » .

وان لا يرى كيف يحق لظالمي ان يحاكمني على ردة فعلي ازاء الاعمال الظالمة التي ينزلها بي . فهو ليس في وضع يمكنه من ان يصدر حكماً نزيهاً أو يتهمني بالقرصنة الجوية ، حين يكون هو نفسه اختطف بيتي ، واختطفني ، واختطف شعبي من وطنه . واذا كان العدو ينظر الى الخلق الادبي والشرعية من زاويته الخاصة به ويقرر ان يفرض ذلك علي لأن له القدرة ووسائل الاعلام التي تمكنه من تبرير وحشيته ، فانا غير مجبرة على الاستماع اليه ، ناهيك ، باطاعة اوامره . بل ان من واجبي الخلقي ان أقاوم وأقاتل حتى الموت فساده الخلقي . ولا يستطاع تقييم عملي بمعزل عن الدوافع الكامنة وراءه . والعمل الذي قمت به في ٢٩ آب ١٩٦٩ ، توكيد على انسانيتي الممتهنة ، واعلان لانسانية الفلسطينيين . كان احتجاجاً على الغرب لموقفه المعادي للفلسطينيين لأنه مؤيد للصهيونيين . وقائمة الذنوب التي ارتكبها الغرب تكاد لا تحصى .

كفرت المانيا عن قتل ستة ملايين يهودي ، في نظر الصهيونية ، بدفع تسعة بلايين مارك كتعويض لاسرائيل ، هذا « الملجأ الامين » للصهيونيين اليهود . ومنذ ١٩٦٥ ، كاد اسمها يقترن باسم اسرائيل ، خصوصاً قبل حرب حزيران وبعدها ، حين تبرع المستشار الالماني ، النازي سابقاً ، باعطاء الاسرائيليين « اقنعة غاز » لحمايتهم من « حرب الجراثيم التي يشنها العرب » . وردت اسرائيل على هذه التحية باستفاقة جوزيف ستراوس وببيع المانيا بنادق « يوزي » .

ولم تكتف فرنسا بتزويد اسرائيل بطائرات « الميستير » و « السوبر ميستير » و « الميراج » ، بل سمحت للاسرائيليين بـ « سرقة » المراكب الحربية من ميناء شيربورغ ، خلافاً لمشيئة ديغول . ولم يستطع ديغول ان يفعل اكثر من « عزل » الجنرال الذي سمح بتلك السرقة . وتآمر غي موليه ، رئيس الوزراء الفرنسية الاشتراكي ، مع بن غوريون وانطوني ايدن على غزو مصر في ١٩٥٦ . وزودت فرنسا اسرائيل بالمعرفة والمواد اللازمة لصنع القنبلة الذرية في « ديموفا » وصنّفت المصنع على انه « معمل نسيج » .

ومع ان سويسرا بلد محايد ، الا انها اعتقلت الثوار العرب واخلت سبيل الذين ذبحوا الفلسطينيين . ولم تقف عند هذا الحد ، بل اغمضت عينيها عن الصهيونيين الذين اختطفوا وقتلوا العلماء العاملين لشعبي . واخلت كذلك ، دون قصاص تقريباً ، اولئك الصهيونيين الذين سرقوا أسرارها الحكومية والنماذج المتطورة لصناعة طائرات الميستير .

اما انكلترا ، فهي مسؤولة عن كل ما يمكن تصوره من الجرائم في حق شعبي . وجريمتها التاريخية هي اغتيال شخصيتي ، واغتصاب بلادي ، ومحو تاريخي .

وواصلت اميركا جرائم انكلترا . فزودت اسرائيل بصواريخ هوك ، وقاذفات القنابل من نوع سكايهوك وفانتوم . وهي حامية اسرائيل وحارستها وممولتها في كل نشاط دولي . فاميركا هي اسرائيل ،

واسرائيل هي اميركا واوروبا معاً في اسرائيل .

ولا اريد ان اثقل على القارىء اكثر من ذلك في تعداد الجرائم التي ارتكبها الغرب في حقي وحق بلادي . فهي تملأ مجلداً كاملا بحد ذاته . كل ما اريده هو ان اشير الى المواقف السياسية التي اتخذتها اميركا زعيمة الامبريالية ، لتفسير الدافع الى توقيت عملي الثوري ، ولزيادة شرح العداوة والمرارة اللتين نكنهما نحو الامبريالية الاميركية .

في ٢٩ آب (اغسطس) ١٩٦٩ ، كان الرئيس نيكسون سيخطب في المؤتمر السنوي الثاني والسبعين للمنظمة الصهيونية في اميركا . وعلمت الجبهة الشعبية ماذا كان الرئيس الاميركي سيقول لأنه قاله من قبل ، وقاله بحماسة حينما زار اسرائيل « المنتصرة » في آب ١٩٦٧ ، عقب حرب حزيران . ففي تلك الزيارة قال ان الاسرائيليين يكونون « حمقى اذا تنازلوا عن شبر من الارض التي احتلوها في حرب حزيران ، من دون الحصول على ما يضمن لهم سلاماً عادلاً » ، وهو ما كان الزعماء الاسرائيليون يطالبون به . ثم ان نيكسون ظهر مع هربرت همفري امام منظمة « بناي بريث » اليهودية في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٨ في واشنطون . واغتنم المستر همفري تلك المناسبة لالقاء اول خطاب رسمي له في حملة ترشيحه للرئاسة ، فأعرب عن ولائه السياسي وصداقته « لصهيون المحاصرة » ! وفيما يأتي فقرة من خطاب نيكسون في اجتماع « بناي بريث » ، المنظمة الصهيونية « ذات النزعة الانسانية » :

« يجب ان تملك اسرائيل القدرة العسكرية الكافية لمنع اي هجوم . وما دام هناك خطر هجوم عربي عليها ، فالقدرة الكافية هذه تعني ان ميزان القوى يجب ان يميل لصالح اسرائيل . ولذلك ، اي لتزويد اسرائيل بقدرة دفاعية حقيقية ، فإني اؤيّد اية سياسة من شأنها ان تعطي اسرائيل تفوقاً عسكرياً تكنولوجياً يطغى اكثر بكثير على تفوق العرب العددي . واذا كان ذلك يتطلب ان تزود اميركا اسرائيل بطائرات

الفانتوم فعلينا تزويدها بهذه الطائرات » .

وقال نيكسون ايضاً ان « خطر الحرب يزداد بقدر ما تزداد ثقة القادة العرب بانهم سيربحون الحرب » . وما يزيد في هذه الثقة التي تدفع العرب الى التفكير بالحرب هو ، بالطبع ، الاتحاد السوفياتي ، هذه الدولة التي « صعدت دعايتها المعادية للسامية ، بحبك « مؤامرة صهيونية » في براغ لاكتساب الانصار في الشرق الاوسط » .

وتابع نيكسون كلامه ، فقال :

« وفي رأيي ان تمتلك اسرائيل رسمياً ونهائياً الاراضي التي احتلتها ، لهو خطأ جسيم . ومن ناحية اخرى ، فليس من الواقع في شيء ان نتوقع من اسرائيل ان تتخلى عن ادوات فعالة للمساومة ، ما لم يكن هناك سلام حقيقي وضمانات اكيدة . فاعداء اسرائيل يحتملون الحرب والخسارة والعودة الى الحرب . اما اسرائيل ، فلا تحتمل الخسارة مرة واحدة . واميركا تعرف هذا . واميركا مصممة على ان اسرائيل هنا لتبقى في عداد الامم . واميركا تدعم اسرائيل لأننا نؤمن بحرية تقرير المصير . وهي تدعم اميركا لأننا نقاوم العدوان في كل محفل ، ولأن مثالها أعطى أملاً بعيد المدى للشرق الاوسط » .

واعطى نائب الرئيس همفري ، اسوة بالشيخين روبرت كنيدي واوجين ماكرثي ، وعده بمتابعة تسليح اسرائيل ، بما في ذلك قاذفات القنابل ، الى ان يستتب السلام في الشرق الاوسط . لكن نيكسون كان اشدهم حماسة حين اعلن في هيوستن ، في ٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٨ ما يأتي :

« اعتقد ، على وجه العموم ، بالمبدأ القائل بأن الحفاظ على السلام المضطرب في الشرق الاوسط يقتضي الحفاظ ايضاً على تفوق اسرائيل على جيرانها . واذا كان هذا يتطلب طائرات فانتوم ، فليكن لهـــا طائرات فانتوم ! »

ومع اننا توقعنا ان يظهر الرئيس نيكسون شخصياً في المؤتمر الصهيوني المنعقد في لوس انجيلس ، يوم ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٦٩ ، فيما تقلع

احدى طائرات شركة TWA من تلك المدينة ، الا انه لم يظهر . وعوض ذلك بعث برسالة الى رئيس المؤتمر ، فقرأت في غيابه . وجاء في هذه الرسالة ان اميركا ملزمة باقامة « علاقات وديّة مع اسرائيل » ، واشادت بالمنظمة الصهيونية لانها « تعمل على توطيد دعائم اسرائيل الاجتماعية والاقتصادية ، وعلى شد الاواصر بين شعبها وبين اصدقائها في اميركا » . واعتبر نيكسون ان « هذه الجهود » تنسجم مع « اسمى التقاليد الاميركية » وطمأن الصهيونيين ان حكومته تسعى الى اقامة « توازن للقوى في الشرق الاوسط » يضمن لاسرائيل « مواصلة تفوقها العسكري » .

وبينما كان الصهيونيون يجتمعون في لوس انجليس بحضور رونالد ريغان حاكم ولاية كالفورنيا ، وغولدا مائير ، كنت اتحدث مع وكيل شركة سنجر في الشرق الاوسط ، وانا في طريقي الى روما لأحوّل اتجاه سير طائرة TWA الى دمشق .

وكنت تدربت على مواجهة كل احتمال ، وأتقنت جميع التفاصيل الخاصة بجهاز الطائرة التي من نوع بوينغ ٧٠٧ . غير انه كان هنالك أمر لم اتدرب عليه ، وهو العنصر البشري من العملية : كيف اتصرف مع من يحدثني من الثرثارين أو محبي الاستطلاع ، وماذا اعمل حتى لا اثير شكوكهم . فكان علي ان ارتجل مواقفي ، وهذا ما جعلني اتضايق اشد الضيق . وخيّل اليّ ان جميع الغربيين على الطائرة يعرفون حقيقة مهمتي .

كان جاري في الطائرة من بيروت الى روما رجلاً اميركيا ، حليق الذقن ، مسافراً الى نيويورك . وكنت اعلم ان الاميركيين ، مثل معظم السائحين ، يحبون الحديث العابر في كل شيء تحت الشمس . ولم يدر في خاطري انهم يوجهون اسئلة شخصية مباشرة ولا مبالية . ولعل المستر هولدن كان ضجراً الى حدّ الميل الى كثرة الكلام . وافتتح حديثه معي بالاستفهام عن اين انا ذاهبة ولماذا . فاجبته انني ذاهبة الى روما . أما لماذا أنا ذاهبة الى هناك ، فكان علي ان اخترع جواباً . فقلت له انني على موعد مع خطيبي هناك ، وهو سيأتي من لندن بعد بضعة ايام . وفجأة

ادركت انني ارتكبت هفوة . ماذا لو كان المستر هولدن ذاهباً ، هو ايضاً ، الى روما ودعاني الى العشاء معه ، فيما انا بانتظار « خطيبي » ؟ لكني سرعان ما اصلحت هفوتي بالقول ان خطيبي قد يفاجئني ويكون بانتظاري الآن في المطار .

وسألته بدوري اين هو ذاهب ؟ ولما اجاب الى نيويورك ، شعرت بالارتياح . واظهر تعجبه من ذهاب فتاة عربية وحدها الى ملاقاة خطيبها والزواج منه ، فقلت له انني اعرف خطيبي منذ الطفولة ، واني خطبت له من سنوات عديدة ، وباني من النســـاء العربيات المتحررات لا التقليديات . وبعد ان أظهر سروره لذلك ، اخذ يحدثني كيف خطف امرأته وتزوجها لأن والديها كانا يرفضانه . وفيما كنت اطمئنه بانني لا اتزوج « خطيفة » ، أعلنت المضيفة ان هناك على الطائرة عروسين ، وانهما يدعوان المسافرين الى كعكة العرس الضخمة . وفي هذا الجو الذي ساد فيه الهرج والمرج ، سألني المستر هولدن : « كيف تتزوجين وخطيبك لا يزال تلميذاً لا عمل له ؟ » فابتسمت واجبته باننا ، وان لم نكن من اثرياء النفط العرب ، الا اننا نملك من الثروة ما يكفينا في بادىء الامر . فقال : « اذن ، اقترح عليكما ان تقضيا شهر العسل وحدكما على يخت يطوف بكما البحر الابيض المتوسط » . ولما اظهرت له ميلي الى ان اكون مع الناس ، اجابني : « لماذا ؟ هل انت ستتزوجين الناس ؟ » .

وفيما أنا أتسلم حقيبتي من جمرك المطار ، كان علي ان اواجه حمالاً أصرّ على مساعدتي ثم سألني : « اين أراك الليلة ؟ » فعجبت من وقاحته واجبته : « خطيبي ينتظرني ، آسفة ! » وجرى لي ذلك مع رجل قاسمني مقعدي في الباص وراح يراودني عن نفسي ويلزّ بي حتى كاد يطوقني بذراعيه . لكني صددته عني ، فأقلع عن محاولته .

وقضيت في الفندق يومين ارفض فيهما دعوات وجهت اليّ للقيام بنزهة استطلاعية في انحاء روما . وفي هذين اليومين آثرت ان اجوب شوارع روما بمفردي . ولم اشعر بأي ميل الى الشراء ، او مشاهدة امجاد

روما القديمة ، او حتى الدخول الى السينما . بل اكتفيت بالسير الطويل على قدميّ أفكّر بمهمتي واستعيد تفاصيلها في ذاكرتي .

وفي صباح ٢٩ آب (اغسطس) تركت الفندق وركبت الباص الى مطار فيوميتشينو في ضاحية المدينة . ولحسن طالعي ، كانت الطائرة ستتأخر نصف ساعة . وظهر رفيقي الذي لم أر وجهه الا في الصورة ، فتبادلنا الاشارات المتفق عليها . وكان اسمه سليم عيساوي ، من مواليد حيفا ومن المقيمين في سوريا . وجلس سليم على مقربة مني ، متجاهلاً واحدنا الآخر .

وكان كل شيء على ما يرام ، حين ظهر فجأة ذلك « العنصر البشري » الذي اشرت اليه وهدد خطتنا المدروسة بالخطر . ذلك ان فتاة صغيرة علقت على ثيابها الزاهية شارة مكتوباً عليها : « صادقوا بعضكم بعضا » . فهزتني هذه الرسالة وحملتني على التذكر بأن هذه الفتاة التي تلاعب اختها الصغرى لم ترتكب اي جرم في حق شعبي ، وبأن من الفظاعة تعريض حياتها للخطر من جراء خطف طائرة .

وفيما كان ضميري يبكتني ، تجلى امام ناظري تاريخ فلسطين واطفالها . ورأيت كل شيء منذ اليوم الاول لمنفاي : رأيت شعبي جائعاً وعارياً ومن دون مأوى . وخيّل اليّ ان الاطفال المشردين في مخيّم قرب عمان يقفون امامي ، وهم في حال شديدة من البؤس والفاقة ، ويقولون : « نحن ايضاً اطفال ومن ابناء الجنس البشري » . وهكذا تشددت عزائمي وقلت لنفسي : « اية جريمة ارتكبتها انا وشعبي حتى نستحق عليها هذا المصير؟ ». لا شيء . ولذلك يجب السير بالعملية الى نهايتها . لا شك ولا تراجع . هكذا تكلم اطفالي .

وفي « الباص » ، ونحن في طريقنا الى الطائرة ٧٠٧ ، نشأت مشكلة اخرى لم تكن في الحسبان . وهي ان شاباً وسيم الطلعة اقترب مني وقال : « هللو » بمرح وحماسة . فرددت تحيته بلا مبالاة وواصلت قراءة كتاب عن تشي غيفارا . لكنه راح يسألني من أنا والى اين انا ذاهبة . ولم يكن في وسعي تكرار القصة التي اخترعتها عن ملاقاة خطيبي ، فقلت له

« احزر ! »

وحاول ان يحزر : ايطالية ؟ اسبانية ؟ يونانية ؟ ورداً على سؤالي ، قال انه ذاهب الى شيكاغو ، وتابع محاولاً ان يعرف من اين أنا . ورأيت ، بعد ان عرفت من اين هو ، ان اقول له اني من اميركا الجنوبية . وظننت انه يكتفي بهذا . لكنه لم يفعل ، بل اخذ يستجوبني راغباً في معرفة البلاد التي جئت منها . وبعد محاولات في تعداد اسماء البلدان ، وقع اختياري على بوليفيا . فقلت انني من بوليفيا ، وسألته الى اين هو ذاهب . فاجاب «الى أثينا لملاقاة والدتي التي لم أر وجهها منذ ١٥ سنة». فقلت له في نفسي: « يا مسكين ، ليتك تنزل من هذه الطائرة لانها ليست متجهة الى أثينا » وصممت على تجاهله ، لئلا ينفذ صوته الى اعماق ضميري .

وجعلني هذا اللقاء أفكر وأتأمل ، لانني كنت افهم حنين الانسان الى وطنه . لكني بررت عملي بالتمييز بين « النفي » الطوعي ، في شأنه هو ، وبين « النفي » الاجباري في شأن الفلسطينيين . الا ان هـذه اللقاءات الانسانية حملتني على ان ابذل جهدي في ان لا اعرّض حياة الركاب للخطر من دون طائل . هذا مع العلم ان حياتهم يجب ألا تشلّ تنفيذ مهمتي . فمهمتي يجب ان تنفذ ، ولا مجال للتردد أو التراجع .

ولم تمض سوى عشرين دقيقة على اقلاع الطائرة ، حتى اخذت المضيفة توزع الطعام بادئة بركاب الدرجة الاولى الخمسة . ولم نكن انا وسليم راغبين في تناول الطعام . وحاولت المضيفة ان تستميلنا ، فعرضت علينا الشراب وما اليه . فاخترت الشاي ، اما سليم فاختار البيرة . واثاروا اعصابنا لترددهم علينا عارضين خدماتهم . وتظاهرت بوجع في المعدة وطلبت غطاء ، فلما جاءني وضعته ببراءة على حضني حتى اخرج القنبلة اليدوية من حقيبة اليد التي احملها واضع مسدسي في زنار بنطلوني ، من دون ان يلاحظ احد . وطلب سليم قرصاً من الاسبرين . وخشيت ان تتسرب الشكوك الى قلب المضيفة ، حين ترى مسافرين جالسين ، الواحد قبالة الآخر ، يشكوان المرض . وعلى كل حال ، تخوفت من ان يكون لي رفيق يشكو الصداع . لكن تخوفي زال

ان يكون هنالك مناطق حرام وما الى ذلك من اجراءات أمن » يتمّ التوصّل اليهابين الاطراف المعنية بمساعدة يارينغ. وأشار روجرز الى الحاجة الماسة الى «حدود آمنة ومعترف بها»، واقترح ان « مقدار ما تم احتلاله من أراض يجب ألا يؤثّر على رسم تلك الحدود ، كما يجب ان ينحصر في بعض التعديلات الطفيفة التي يتطلبها الأمن المتبادل » . وبخصوص قضية « اللاجئين » ، اكتفى روجرز بالاعتراف بحقيقة وجود « وعي جديد بين الاجيال الفلسطينية الناشئة » التي يجب توجيه آمالها ورغائبها بعيداً عن شعور الخيبة والمرارة نحو الامل والعدالة . وقال روجرز في صدد القدس انها يجب ان تكون « مدينة موحدة » مفتوحة لجميع الاشخاص والاديان والاجناس . واقترح روجرز لادارة المدينة «ان يكون لكل من اسرائيل والاردن دوره في حياتها المدنية والاقتصادية والدينية » . واعترف روجرز ان الاجتماعات التي عقدت مع الاتحاد السوفياتي اسفرت ، بخصوص عقد صلح منفرد بين اسرائيل ومصر ، عن صيغة جديدة تتضمن العناصر الرئيسية الآتية :

اولاً — تلتزم اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة باقامة سلام فيما بينهما ، بكل ما يعنيه ذلك من واجبات محددة ، بما فيها منع الاعمال العدوانية من ان تنطلق عبر حدودهما .

ثانياً — يضع الطرفان في رعاية يارينغ تفاصيل شروط السلام الخاصة بضمان السلامة الاقليمية ، وذلك بالافادة من الطريقة التي اتبعت في عقد معاهدة الهدنة برعاية رالف بنش ، في ١٩٤٩ ، في رودس . وفيما يختص بالتسوية بين اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة ، فان هذه الضمانات تتعلق قبل كل شيء بمنطقة شرم الشيخ التي هي مدخل الى خليج العقبة ، وبالحاجة الى مناطق منزوعة السلاح ، كما أشار اليها قرار مجلس الامن ، وبالتدابير النهائية الخاصة بقطاع غزة .

ثالثاً — في نطاق السلام والاتفاق على ضمانات أمن محددة ، تدعو الحاجة الى انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المصرية .

واثارت مقترحات روجرز هذه شكوك اسرائيل وقلقها . فنددت

غولدا مائير بالمقترحات ووصفتها بانها « خطر داهم يهدد سلامتنا » . وقال فيها ايبا ايبان انها « أضرت بالامل في السلام » . وفي اميركا أعلن هوبرت همفري المرشح للرئاسة ان المقترحات ضحت بمصالح اسرائيل وصداقتها . لكن افتتاحية نيويورك تايمس ، في ١١ كانون الاول (ديسمبر ١٩٦٩) رأت ان المقترحات « صادقة » و« دعوة صريحة الى التعقّل والاعتدال » ، وانها « تدل على الطريق المؤدية الى تسوية معقولة ، هي البديل الوحيد لنزاع جديد لا تستطيع الدول المعنية مباشرة بالقضية أو الدول الكبرى التي يتهددها الخطر على نحو غير مباشر ان تجازف به » .

وما ان وصفت اسرائيل مقترحات روجرز بأنها « تساير العرب » ، حتى قامت الحركة الصهيونية في اميركا بحملة ضد المقترحات وحاولت الضغط على روجرز للتراجع عن بعض النقاط الاساسية الواردة في تصريحه والتي تضمنتها عبارات مثل « تعديلات طفيفة » في الحدود و« الدور المدني » للاردن في ادارة القدس . ولتحقيق هذه الغاية ، تنادت ٢٤ منظمة صهيونية اميركية الى واشنطون ، في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ، للاعراب عن « قلقها العميق ومخاوفها » من التصريحات الاميركية الاخيرة عن الشرق الاوسط . فما كان من نيكسون إلا ان تقوض وانهار . ولم يكتف بارسال بيان الى المؤتمر يكرر فيه موقف اميركا الملتزم بالتأييد المطلق لاسرائيل ، بل اوفد صديقه الشخصي ماكس فيشر ، احد كبار رجال الصناعة الصهيونيين في ديترويت ، ورئيس مجلس الاتحاد اليهودي والصندوق الخيري اليهودي ، ليتلو عنه ذلك البيان . وقال فيشر امام الف من الزعماء الصهيونيين الاميركيين في ذلك المؤتمر ان « اميركا تقف الى جانب اصدقائها ، واسرائيل هي احد هؤلاء الاصدقاء » . واضاف قائلاً ان رئيس الولايات المتحدة « مستعد لتزويد الحكومات الصديقة ، كاسرائيل ، بالمعدات الحربية اللازمة لدعم جهودها والدفاع عن سلامة شعبها » . وجاء في الرسالة ، على وجه خاص ، « ان امكانات السلام تتعزز كلما وثقت حكومات المنطقة

بان حدودها وشعبها في أمان » . ثم شددت الرسالة على ان السلام لا يخيم على الشرق الاوسط الا بعد « اتفاق يتم التفاوض فيه بين اسرائيل والدول العربية » .

وأظهر الدكتور وليم واكسلر ، رئيس المؤتمر ، سروره وارتياحه بما ورد في الرسالة . فتراجع عن « مخاوفه وقلقه » وقال : « ان هذه الرسالة تبرهن على ان الرئيس نيكسون يتفهم قلقنا واهتمامنا ويقاسمنا اياه . وهي تشير الى انه لا يريد اي تضعضع آخر في السياسة الاميركية » . وختم واكسلر كلامه بقوله ان « خلاف الجالية اليهودية مع وزارة الخارجية الاميركية ليس خلافاً على النوايا ، بل على الوسائل » . ونجح الصهيونيون مرة اخرى ، فنالوا ٢٤ طائرة فانتوم ، بالاضافة الى الخمسين التي اخذوها في ١٩٦٨ . ووقف روجرز موقف الدفاع ، ولم يكن هنالك ضغط من جانب العرب يوازي الضغط الصهيوني .

وفي هذه الاثناء ، اي في ١٨ كانون الاول ١٩٦٩ ، وضعت اميركا مسودة مشروع « صلح منفرد » بين اسرائيل والاردن وابلغته الى الطرفين المعنيين بعد التشاور مع الدول الكبرى . وفي معالجة هذا المشروع الاميركي يجب عدم نسيان الحقيقتين الآتيتين : اولاً ، ان سوريا التي تحتل اسرائيل مرتفعات الجولان من اراضيها لم يأت ذكرها في مباحثات الدول الكبرى . وثانياً ، ان الاردن ملزم بسحق المقاومة المسلحة قبل تنفيذ المشروع . وفيما يأتي خلاصة احدى عشرة نقطة تضمنتها مسودة المشروع الاميركي :

١ — يتم الاتفاق بين الطرفين على كيفية وتوقيت انسحاب القوات الاسرائيلية انسحاباً يكاد يكون تاماً من الاراضي الاردنية التي احتلتها في حرب ١٩٦٧ .

٢ — تقبل كل من الدولتين بقيام حالة سلام فيما بينهما ، بما في ذلك تحريم اعمال العنف من اراضيها ضد اراضي الدولة الاخرى . وهذا يلزم الاردن بمنع الهجمات الفدائية .

٣ — يتم الاتفاق بين الاردن واسرائيل على تسوية قضية القدس ،

مع الاعتراف بان المدينة يجب ان تكون موحدة ، وسالكة للجميع ، وتحت ادارة مشتركة بين الطرفين ، في النواحي المدنية والاقتصادية .

٥ – يشترك الاردن واسرائيل في وضع التدابير النهائية لادارة قطاع غزة ، على اساس اتفاق مماثل يتم بين اسرائيل ومصر .

٦ – يتفاوض الطرفان في وضع شروط عملية لتوطيد السلام ، بما في ذلك رسم حدود المناطق الحرام في الضفة الغربية من الاردن ، على ان يتم تنفيذها بعد الانسحاب الاسرائيلي .

٧ – تقر الاردن بان مضايق تيران وخليج العقبة ممرات دولية ، مفتوحة للملاحة امام جميع البلدان ، وعلى وجه خاص امام اسرائيل .

٨ – بخصوص قضية اللاجئين ، يعطى يارينغ صلاحية انشاء لجنة دولية تستفتي اللاجئين لمعرفة من منهم يريد العودة الى اسرائيل . وبما ان هذا الامر يطول ، يقترح المشروع مباشرة العمل بالبنود الاخرى قبل تنفيذه .

٩ – يتبادل الطرفان الاعتراف بسيادتهما ، وسلامة اراضيهما ، واستقلالهما السياسي ، وحقهما في العيش بسلام .

١٠ – توضع وثيقة هذا الاتفاق مع الامم المتحدة . وكل خرق لمضمونها يعطي الطرف الاخرى الحق في ان يمتنع عن تنفيذ التزاماته الى ان يسوّى الامر .

١١ – يصادق مجلس الامن على وثيقة هذا الاتفاق ، كما ان الدول الاربع الكبرى – بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي – توحد جهودها لمساعدة الطرفين على الالتزام باحكامه .

وفي آخر الامر ، تشير الولايات المتحدة الى ان السلام الاسرائيلي – الاردني لا يوضع موضع التنفيذ الا بعد وضع اتفاق مماثل بين اسرائيل ومصر . وهذا الشرط يهدف الى تفنيد مزاعم العرب بأن هذا المجهود السلمي غايته زرع بذور الانقسام في العالم العربي .

وفي اعتقادي ان هذه الوثيقة تظهر بوضوح مخطط اميركا الواسع للشرق الاوسط . فاميركا تنظر الى مستقبل تدوم فيه اسرائيل ، ويزول

النفوذ السوفياتي في المنطقة ، ويتعزز النفوذ الاميركي ، ويضعف العالم العربي وينقسم على نفسه من جراء التنافس الشخصي والديكتاتوريات العسكرية أو الملكيات التقليدية . وفوق هذا كله ، فالمشروع الاميركي الذي يستهدف اقامة « سلام دائم » يفترض عدم وجود سيادة فلسطينية ، لكنه يتنازل الى التسليم بوجود اقليم فلسطيني تحت وصاية الاردن او اسرائيل او كليهما معاً . ولم تكن تلك الاحتجاجات وذلك الاخذ والرد حول هذا المشروع ، سواء من الحكومات العربية والاتحاد السوفياتي ، او حتى من جانب اسرائيل ، سوى لذر الرماد في العيون ، وذلك على حساب الجماهير العربية عموماً والشعب الفلسطيني على وجه الخصوص . وبقيت المشكلة الاساسية ، وهي كيف تنظر اسرائيل ومصر الى هذا المشروع ، وكل منهما تدعي تفوقها على الاخرى ، وكيف تتجاوب كل من الدولتين الكبريين مع مطالب الفريق الذي تناصره .

وفي هذا النطاق وحده يمكننا ان نفهم لماذا حاولت اسرائيل في خريف ١٩٦٩ وشتاء ١٩٧٠ الاطاحة بعبد الناصر . ورغم تحذيرات الدول الكبرى ومشورتها بالتأني ، فان اسرائيل صممت على الاطاحة بعبد الناصر باعتباره العقبة الوحيدة امام تحقيق نوع « السلام » الذي تريده . وفي آخر الامر ، ساند السوفيات مصر بالصواريخ ، مما أجبر الاسرائيليين على ايقاف هجماتها في عمق الاراضي المصرية . الا إنه اعطى اسرائيل عذراً لأن تطالب اميركا بمزيد من السلاح للحفاظ على « توازن القوى » في المنطقة لصالح اسرائيل . اما السوفيات ، فلم يكتفوا بأنهم رفضوا ان يزودوا مصر بالاسلحة الهجومية ، بل انهم ترددوا في تزويدها باسلحة دفاعية من شأنها ان تحمي المواقع الثابتة الضعيفة التي احتفظ بها المصريون بمشورة الروس . ورغم الدعايات الكاذبة التي اشاعها الاميركان والصهيونيون ان المصريين كانوا ينوون الهجوم على الضفة المحتلة من القناة ، فالحقيقة ان المصريين لم ينووا شيئاً من هذا ، بل كان كل هدفهم من صواريخ سام وسواها هو منع اسرائيل من التحليق في الاجواء المصرية ساعة تشاء . ولم يرق ذلك ، بالطبع ،

لموشي ديان وانصاره الاميركان . والواقع ان استراتيجية عبد الناصر لم تكن ترمي الا للحفاظ على السلطة ، لا لتحرير الاراضي المحتلة كما كان ينادي . ومن الغرابة ان يعمد عبد الناصر الى التصريح دائماً بان فلسطين لن تتحرر الا بقوة السلاح . لكنه كان متفقاً بينه وبين نفسه على وجود فلسطين تحت السيطرة الصهيونية ضمن الحدود السابقة لحرب حزيران . وهو ، كداعية الى « الحل السياسي » ، لم يحد عن هذا الاتجاه ، الا في الخطب الرنانة التي كان يلقيها في المناسبات للاستهلاك العربي المحلي . وفيما كان الديبلوماسيون يعقدون الاجتماعات السريّة ، والسفارات تتبادل المذكرات ، ووزراء الخارجية يطوفون العالم وراء سلام « قائم على العدالة » ، كان الحسين ، كدليل على حسن نيته تجاه اصدقائه الغربيين ، يسعى الى تنفيذ الجانب الخاص بالسلام الاسرائيلي — الاردني من مقترحات روجرز : التخطيط للقضاء على المقاومة .

وفيما كانت هذه المؤامرات تحاك في الخفاء ، كنت في رحلة الى العراق والخليج العربي استغرقت ثلاثة اشهر ، يرافقني عدد من اقطاب الثورة : صلاح صلاح ، الزعيم العمالي المتخرج من السجون السورية لنشاطه الوحدوي ، ورشيده عبيدو ، المناضلة المرهوبة الجانب في الارض المحتلة ، وسليم عيساوي ، رفيقي في اختطاف طائرة TWA ، وطلعت ، الثوري البالغ من العمر ١٣ عاماً والذي أدبّ الذعر في صهيونيي اوروبا . وكان الغرض من هذه الرحلة نشر الدعاية الثورية وجمع التبرعات للجبهة الشعبية . ولاقينا نجاحاً باهراً ، لاننا لم نتصل اتصالاً حميماً مع الجماهير العربية وحسب ، بل اطلعنا جيداً على مطالبهم ، خصوصاً طرد الانكليز من الخليج والحدّ من انتشار النفوذ الامبريالي الاميركي في المنطقة . وكان الفقراء والعمال والفلاحون هم الذين رحبوا بنا وغمرونا بالعطايا والهبات ، لا ملوك النفط ولا مستشاروهم السياسيون. وعدنا الى عمان في مطلع شباط (فبراير) ، حين بلغت المؤامرة الرجعية ذروتها .

وكان الملك حسين عائداً من مصر ، بعد مشاورات واسعة النطاق مع دول المواجهة . كان يبدو عليه الحزم في تصاريحه التي هدد فيها اسرائيل بعواقب وخيمة اذا هي لم تنفّذ قرار ٢٤٢ . لكنه سرعان ما أصدر بعض المراسيم التي من شأنها ترحيل المقاومة من المدن ، واغلاق صحفها ، ومنع اجتماعاتها العامة . فكان لا بد من الاصطدام . وبدأنا بكسر طوق النطاق الذي ضربه الحسين حول المدن ، فاتخذ كل قطاع ما يراه ضرورياً من التدابير . واسندت اليّ مهمة الذهاب الى مخيم شومر بالقرب من الزرقا لشرح اوامر الحسين للجماهير وتبيـــان خطرها وانسجامها مع المخطط الاميركي الاسرائيلي . وفعل رجال الجبهة الشعبية مثلي في سائر المخيمات في الاردن . ورد الحسين على ذلك بقطع الماء والكهرباء عن المخيمات ــ وهو تدبير لجأ اليه فيما بعد ، في ايلول ، وكان اثره على الفقراء فادحاً . وتحدينا موقفه هذا ودعونا الى التظاهر في جميع انحاء الاردن . وحاول زبانيته عرقلة اجتماعاتنا العامة واثارة الشغب ، فلاقى معظمهم ما يستحقونه من العقاب الثوري . واشتدّ التوتر بسرعة ، فما ان عدت الى عمان حتى صدرت الي الاوامر بالقاء محاضرة في مدرسة جبل التاج . وحين وصلت مع بعض الرفاق ، تبيّن لي ان الحضور فرقهم جنود الحسين . واشار علينا قائد الجبهة الشعبية في تلك المنطقة بالعودة الى مخيّم الوحدة والانتظار هناك . فاطعناه بلا تردد .

وعشية ١٠ شباط (فبراير) ، كنت منشغلة بزيارة سميرة اخت خطيبي التي وصلت من بغداد لزيارة باسم والتأكّد ، بالنيابة عن العائلة ، من انني جديرة بان اكون كنتهم . وكنت عقدت خطوبتي على باسم ، من قبل ، بموافقة الجبهة الشعبية . ولم نستشر أحداً من افراد عائلتينا في ذلك .

ولم تكن سميرة على شيء من التدريب العسكري ، فقلقت عليها ، خصوصاً لأن لا مكان عندي ابعدها فيه عن جبهة القتال . لكنها في صراحة عراقية قالت لي : « اسمعي يا ليلى ، انا مستعدة للقيام بما تطلبينه

مني . انا ايضاً عربية واريد ان أحارب » . فسررت لذلك واصطحبتها الى جبل الحسين لابلاغ بعض التعليمات . وتناولت بندقية وقنبلة يدوية وركبت التاكسي . وفيما نحن نصعد الجبل ، رأينا سيارة جيب عسكرية تحترق وسمعنا تبادل اطلاق الرصاص . وأوقفنا بعض الاخوة المنتمين الى فتح وحذرونا من خطر متابعة السير . واخرجنا السائق من سيارته ، قائلاً انه ليس مستعداً ان يموت . وعبثاً اقنعته بايصالنا الى المكان الذي نقصد اليه . وثارت ثائرة سميرة ، فاندفعت تتهمه بالجبن . فقال المسكين ان له ثمانية اولاد يجب ان يعيلهم ، ثم تركنا من دون ان يتقاضى اجرته . واخبرنا الاخوة من فتح ان المنطقة كلها مشتعلة بالنيران ، وان السكان يجلون عنها . وقال لي احدهم ، بعد ان تعرّف الي ، ان المعركة ابتدأت ، واشار علي بالعودة الى مخيّم الوحدة . وأريته القنبلة اليدوية واعربت له عن رغبتي في القتال . فدعاني الى مرافقته لمخابرة المكتب الحربي بالتلفون وإخباره بأن الحسين يوشك ان يشنّ هجوماً قاتلاً علينا . وبعد ان فعلت ذلك ، رجعت انا وسميرة الى مخيّم الوحدة ، فما ان وصلنا حتى امرنا الدكتور حبش باعداد قنابل بترولية لالقائها في مقاومة جنود الحسين . وبعدما احضرت بعض البترول ، جلسنا طول الليل نصنع القنابل ونوزعها على المحاربين . ولم يكن في حوزة الجبهة الشعبية مصدر للاسلحة ، فكان علينا ان نصنعها بأيدينا أو ان نغنمها من العدو . ورفض الدكتور حبش مناشدتنا له بالذهاب الى مكان أمين وقال : « لماذا أعيش أنا ، اذا كنتم انتم مستعدين للموت في سبيل القضية ؟ »

وكان العاشر من شباط (فبراير) ١٩٧٠ اول يوم من الهجوم الكثيف على المقاومة منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨ . واستمرت المعركة طول النهار ، من دون ان يتمكن جنود الحسين من خرق نطاق مواقعنا . وكانت عمان تحت الرصاص من جميع جهاتها ، لكن المقاومة وقفت في وجه الحسين بلا خوف واجبرته على التراجع . ودامت الاشتباكات المتقطعة نحو اسبوع ، فسقط عدد كبير من القتلى والجرحى بين الطرفين . وفقدت الجبهة ابو طلعت ، احد فدائيينا الشجعان ،

اذ قتله رجال المخابرات الاردنية . وكان لاغتياله صدى عميق الاثر لدى رجال المقاومة ، ادّى الى تشديد العزائم على القتال ضد الطاغية الهاشمي . وفي مأتمه الذي اشتركت فيه الآلاف ، القت رمزيه ، زوجة عبد المحسن حسن الذي استشهد في زوريخ على ايدي الاسرائيليين ، رثاء مؤثراً لم تذرف فيه دمعة ، هذا نصه :

« انت لم تمت يا ابا طلعت ، فثلاثة اولاد لك ما زالوا على قيد الحياة . وعبد المحسن تركني مع تسعة . فكلاكما خلفتما اثني عشر فدائياً لفلسطين ، يواصلون حمل مشعل حريتها . ثق اننا سنستعيد الارض التي مت في سبيلها على ايدي قتلة مجرمين . نحييك ايها البطل الذي سقط . قضيت في المعركة منتعلاً حذاءك ، فكنت قدوة للفلسطينيين ولجميع المضطهدين في العالم . وليكن لنا الالوف من امثالك . عانق الارض التي خرجت منها ، وامتزج بتراب فلسطين الخالد ليزداد ارتواء بدماء الشهداء والابطال . انت تحب ، لأن الثورة ستبقى» .

كان من نتائج الغارة الوحشية التي شنها الحسين على المقاومة انها دفعت مختلف فصائل المقاومة الى القيام بمحاولات تمهيدية لتوحيد صفوفها . فخرجت القيادة الموحدة الى حيّز الوجود ، وسط كثير من الدماء وتحت عجلات دبابات الحسين الاميركية . غير ان المقاومة لم تتفق على استراتيجية ثورية معينة او على عمل موحد ، على الرغم من ان كثيراً من الرفاق سقطوا ضحية فقدان التنسيق في الاجراءات المتخذة . ومنذ ٦ أيار (مايو) تبنت المقاومة شكلياً استراتيجية الجبهة الشعبية في سبيل احباط المؤامرة اشترك في اعدادها مختلف الاطراف للقضاء على المقاومة . وفي هذه الاثناء ، لمس الحسين الخطر الذي يتهدده ، فألغى الاوامر والتدابير التي اتخذها ، ملوحاً برغبته العلية في « التضامن العربي » وزاعماً ان ردة فعل المقاومة على تلك الاوامر والتدابير ما هي الا « سوء تفاهم » . ووصف انصاره الغربيون ما قام به الحسين بأنه

فلسطين ما انطوت عليه تلك السياسة التي استغلت نقطة الضعف الرئيسية لدى المقاومة – وهي نقطة ضعف سببها الجناح اليميني في حركة فتح – فبادرت الى القيام بهجوم مضاد ، نادت فيه جميع المواطنين الى الالتفاف تحت لواء قيادة واحدة . واخذت الجبهة الشعبية زمام المبادرة ، فاحتلت مواقع استراتيجية في عمان واحتجزت السكرتير الاول في السفارة الاميركية ، لعزل العناصر الفاسدة التي وقفت وراء الحسين و« مستشاريه » من رجال المخابرات المركزية الاميركية . واخلينا سبيل السكرتير تحت ضغط المقاومة ، لكن القوى الرجعية زادت عنفاً بدل ان تقل ، خلافاً لتوقعات المقاومة . وتحركت الجبهة الشعبية ، فاحتلت فندقي فيلادلفيا والاردن واحتجزت جميع نزلائه الاجانب . وكان الحسين يضرب بقنابله مخيمات « رعاياه » ، بحجة ان محاولة جرت لاغتياله . غير انه توقف عن الضرب ، حين شعر باننا جادون هذه المرة . واستمر القتال اسبوعاً ، فوقع اكثر من ألف ضحية فداء عرش الحسين . لكن مفارقات القدر شاءت ان تعلن الهدنة وتشكّل لجان مشتركة تمثّل الحسين والفدائيين للمشارفة على احكام « الهدنة » . والقي اللوم في تلك المذبحة على اللواء زيد بن شاكر ، بحجة انه استشاط غضباً عندما قيل ان أحد الفدائيين قتل اخته ، قبل وقوع القتال . فاستقال اللواء زيد والشريف ناصر ، عم الحسين ، وتسلم الحسين قيادة قواه المسلحة .

اظهرت احداث حزيران ان فتح لم تتعلم درسها بعد . وفقدنا فرصة الاطاحة بالحسين ، حين كنا نتمتع بثقة الشعب ونملك القوة لسحق قواه المجزأة . وبين حزيران وايلول ، تمكّن الحسين من تعزيز قواه العسكرية وتطهيرها من العناصر المشكوك بولائها ، خصوصاً من الفلسطينيين . وكانت فتح ، وهي اكبر منظمة فدائية ، في حالة من التردد . وفي حزيران تجلى للعيان ان هذه المنظمة التي تعتبر « السلسلة الفقرية » للمقاومة لم تكن تقود ، بل تتبع الجماهير . وغني عن القول

ان الجبهة الشعبية اخذت المبادرة واجبرت الفصائل الاخرى في المقاومة على السير وراءها . وهكذا سادت الاستراتيجية المدروسة والقيادة الملهمة . واصبحت الجبهة الشعبية ، شيئاً فشيئاً ، البديل الجديد ، والقوة المغناطيسية التي تجذب الجماهير ، وطليعة الثورة الاشتراكية العربية . وبدأت الانظمة العربية تميّز بين الثوريين الصادقين (فتح) ، وبين الثوريين الارهابيين ذوي العقائد المستوردة (الجبهة الشعبية) . واعلن الحسين ان سلوك الجبهة الشعبية ، لا ضرب مخيمات « اللاجئين » الوحشي بالقنابل ، هو الذي يسيء الى الشعب العربي . لكن الجماهير لم ينطلِ عليها هذا الادعاء . ذلك انها كانت تعرف من هو عدوها وتصفق للعمل الذي قمنا به ، حين دافعنا عن مواقعنا بشجاعة في المخيمات ، وبلا تنازل وتسوية على طاولة المفاوضات . وهكذا ادرك الجميع اننا ثوريون جادون في ثوريتنا ، لا « ثوريين » ساعين وراء « حلّ سلمي سياسي » بالطرق الديبلوماسية ، نتوسل القتال لاظهار قدرتنا على اثارة الاضطراب . والجماهير تريد التحرير ، لا الاستسلام . فلا عجب ان هي التفّت حول الجبهة الشعبية الداعية الى اعتماد مبدأ الحرب الشعبية وتطويل أمد الكفاح المسلّح .

وازداد بروز الخط الفاصل بين اعداء الشعب وانصاره في ربيع ١٩٧٠ . فعرفت الجماهير ان الحسين والرجعيين العرب كانوا في معسكر العدو . وكانت تلقنت الجماهير من قبل ان « التقدميين » العرب يؤمنون بالتحرير وبالتيار القومي الوحدوي من الثورة — وهو التيار الذي يتحدى الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية . وفي ذلك الربيع المصيري ، حسر « التقدميون » القناع عن وجوههم ، حين لوحوا بـ « السلام » لواشنطون وتل ابيب ، بموافقة موسكو . وما ان جاء ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، حتى انجلت استراتيجيتهم « السلمية » ومحاولتهم تصفية المقاومة . وفي تموز (يوليو) ١٩٧١ ، اصبح واضحاً للعيان ، حين وضع السادات عبد الناصر على الرف وشنّ « حرب الاخذ بالثأر » ضد الجبهة الشعبية من قاعة جامعة القاهرة .

وكان عبد الناصر في عيد اول ايار ١٩٧٠ القى خطاباً قال فيه ان فرصة التقارب العربي – الاميركي تفوت بسرعة . وعوض عبارات التنديد المعتادة باميركا ، اعلن عبد الناصر أن اميركا منحازة نحو اسرائيل . ثم دعا اميركا الى تحسين علاقتها مع العرب على اساس «عدم التحيز» الذي دعا اليه سكرنتون في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، وهي دعوة صريحة الى اميركا ، شريكة الصهيونيين ، للقيام بدور الوسيط في النزاع العربي – الاسرائيلي . وظن عبد الناصر انه بذلك يضع اميركا في موقف دفاع ، لكنه دهش حين ردّ عليه روجرز بالموافقة في حزيران (يونيو) ١٩٦٨ ، مردداً شعار « السلام القائم على العدل » . واستمرت تلك المداعبة الديبلوماسية نحو شهر . ثم فجر عبد الناصر قنبلته التاريخية في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٧٠ ، في الذكرى الثامنة عشرة للثورة ، حين اعلن قبوله بمقترحات روجرز للسلام في الشرق الاوسط . ولم يكتف عبد الناصر بالموافقة عن « السلام » مع اسرائيل كغاية بعيدة المدى ، بل اعلن موافقته ايضاً على وقف « حرب الاخذ بالثأر » و« تجميد التسلّح » وعدم اشتراط انسحاب اسرائيل من الارض المحتلة قبل بدء المفاوضات .

واثارت هذه « المناورة الديبلوماسية البارعة » ، على حدّ تعبير محمد حسنين هيكل ، هزة عنيفة في صفوف الثورة العربية . وظهرت « تناقضات » المجتمع الصهيوني كما تكهّن به عبد الناصر ، فانسحب الحزب اليميني الاسرائيلي من الحكومة الائتلافية التي تشكلت عندما قبلت اسرائيل بوقف اطلاق النار . واعلنت الدول العربية ، باستثناء العراق والجزائر ، تأييدها لموقف عبد الناصر السلمي . وامتدح الصحفيون دهاء عبد الناصر كرجل دولة . وسار الفلسطينيون الذين يعبدون عبد الناصر في شوارع عمان يهتفون : « عبد الناصر جبان ! عبد الناصر خائن ! » وهكذا تلطخت صورة عبد الناصر في الاذهان . لكنه ظل معبود الجماهير . غير انه حين طرد طلاباً فلسطينيين من الجامعة المصرية ، واغلق محطة اذاعة فتح ، وامر انصاره في حركة المقاومة بتأييد موقفه

علناً وبمحاولة القضاء على الجبهة الشعبية ، تدنى رصيده وانخفض . واذا كان لم يتهم تماماً بأنه متواطىء مع اميركا ، الا ان تصرفاته اثارت الشكوك في عقول المعجبين به . وهكذا تم المقدور . وبقي الجنين الثوري وحده ، وتكاتف الروس والاميركان والحكام العرب والصهيونيون على اجهاضه .

وفي خطابه يوم ٢٣ تموز (يوليو) ، اعلن عبد الناصر عن الاهداف المصرية : انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة ، والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . وقال : « نحن لا نريد الحرب لاجل الحرب . نحن نريد ان نحرر ارضنا . نحن نريد حقوق شعب فلسطين . ونحن قبلنا بالمقترحات الاميركية ، كما وردت على لسان وليم روجرز وزير الخارجية ، وليس فيها اي شيء جديد لم نوافق عليه من قبل . اسرائيل هي التي ترفضها . اسرائيل تلقي علينا الف طن من القنابل . ومع ذلك ، فحين وصلتنا اسلحة سوفياتية حديثة ، شنّت علينا الهجمات . لكن صحيفة اميركية واحدة لم تذكر ان في حوزة اسرائيل ٧٢ مركز صواريخ للدفاع . فماذا يعني هذا ؟ هل يعني ان لا حق لنا بالدفاع عن انفسنا ، بينما اسرائيل لها هذا الحق ، بالاضافة الى حق الهجوم علينا ؟ » أما ما ينطوي عليه موقف عبد الناصر ، اي القضاء على حركة المقاومة كشرط مسبق للسلام ، فلم يعترف به عبد الناصر . واصرّ عبد الناصر على ان لمصر الحق في طلب الصلح ، كما ان للفلسطينيين الحق في القتال لتحرير بلادهم : وهما حقان « متناقضان » . وكان لقبول عبد الناصر بمقترحات روجرز تأثير سلبي على العالم العربي ، كما كان له اثر شديد الوطأة على المقاومة ، بالرغم مما نشرته « الاهرام » خلافاً لذلك . فبعد مرور اسبوعين على خطاب عبد الناصر هذا ، صدر أمر بوقف اطلاق النار ، دخل في حيّز التنفيذ في ٧ آب (اغسطس) ١٩٧٠ . والتعايش السلمي المتوقّع بين الصهيونيين والعرب لم يتمّ . والمقاومة كانت هي العقبة الرئيسية ! لذلك يجب سحقها ، قبل ان يسير رجالات السياسة الصهيونية والعربية يداً بيد الى مذبح هيكل سليمان والجامع العمري . واشتدت الجهود المشتركة لحصر نشاط المقاومة

وتقليصه . فتوقفت الاعانات المالية عن فتح ، وشنّت حملات الاعلام العالمي ضد المقاومة ، ورصدت حركات الفصائل الفدائية عبر الحدود وحصرت في مناطق استراتيجية داخل الاردن . وبادر الحسين ، وسط سكوت العرب الذي يعني الموافقة ، الى القيام بحملته التصفوية المنظمة ضد الثوار « الصادقين » و« الارهابيين » على السواء .

وكان متوقعاً ان تكون تلك الحملة آخر الحملات ، فيليها عهد من السلام يخيّم على الشرق الاوسط . وانتظرت الجبهة الشعبية طويلاً حتى يلعب كل زعيم عربي ، وكل عدو وصديق ، لعبته . فندّد بعض الزعماء العرب بسياسة الحسين ، بينما غسل بعضهم يديه . غير ان معظمهم صفقوا لوقفته في سبيل « القانون والنظام » . ثم قررت الجبهة الشعبية تنفيذ استراتيجيتها الهجومية . وكان على المقاومة كلها ان تفعل هكذا ، فلم تفعل .

وكنت انا ورفاقي في طريقنا الى اوروبا لاعلان حرب دولية ضد المحاولات المشتركة التي تقوم بها الدولتان الكبيرتان ، والصهيونية ، والدول العربية ، للقضاء على الثورة الاشتراكية العربية ، وبالتالي ثورة العالم الثالث والمضطهدين والبؤساء على وجه الارض . وسافرت الى فرانكفورت وانا اعلم تمام العلم اننا ، نحن الفلسطينيين ، ابناء اليأس ، والآن ابناء الثورة ، نحمل مشعل الحرية والتحرير الانساني بالنيابة عن البشرية كلها . فاذا فشلنا ، تنجح اميركا في رد الثورة العالمية على اعقابها ، باستثناء فيتنام . وكان هدفنا الادنى كتابة اسم فلسطين على ذاكرة الانسانية وعلى عقل كل من يحترم نفسه ويؤمن بحق المستعبدين في تقرير مصيرهم . والى جانب ذلك ، كنا نأمل بوقف الارهاب الفاشيستي في الاردن ، وبفضح « التناقضات » الكامنة في المجتمع العربي .

وهكذا خرجنا لضرب العدو في عقر داره .

٧ – نتكلم باسم انسانية ضائعة

« الجبهة الشعبية ، في مختلف مؤسساتها ، صورة مصغرة للعالم العربي الذي نطمح الى بنائه . فعلى كل عضو ان يتعلم كيف يخدم الصالح العام ويبذل قصارى جهده في مساعدة الجبهة على بلوغ غايتها التي هي تحرير الفرد العربي وعدوه الصهيوني » .

– جورج البقاعي –

لكل عضو في الجبهة الشعبية مهمات اساسية هي القيام بنشاط عسكري ، سياسي التوجيه ، ونشر الدعاية الثورية ، وجمع المعونات المالية . ومع ان هذه المهمات ، غالباً ما تكون متشابكة ، الا ان كل عضو يتخصص في حقل منها يلائم مواهبه . لكن الحزب يتطلب من كل عضو ان يكون على اطلاع تام بايديولوجية الحزب واستراتيجيته ، وان يكون مستعداً على القيام بمهمات في الارض المحتلة وفي البلدان الاجنبية ، وان يكون راغباً دائماً في العيش والعمل مع الجماهير ، وان يساعد في جمع التبرعات والمعونات المالية بكل الوسائل .

وبصفتي جندية ، اختارني للحزب للقيام بعمليات في الخارج . ولسوء الطالع ان هويتي انفضحت للسلطات السورية في ١٩٦٩ ، حين هبطت مع الرفيق سليم عيساوي بطائرة TWA في دمشق . ولو لم يتدخل السوريون لبقيت في عداد مئات الجنود المجهولين في الجبهة الشعبية . ثم ان للهستيريا الصهيونية نصيباً في نشر صورتي واذاعة اسمي في كل صحيفة غربية ، ان لم يكن في صحف العالم كله . غير ان الدعاية الواسعة لم تبرهن على انها اداة فعالة لانهاء نشاطي كثورية . فما زلت

في ميدان العمل . وفيما ظن عدد كبير من اعضاء الجبهة الشعبية انني اعمل في اربد ، في ربيع وصيف ١٩٧٠ ، وفيما ظنت عائلتي انني ما زلت في مصر ، كنت في الواقع اتدرب على قيادة طائرة « العال » . وتفاصيل هذا التدريب يجب ان يظل طيّ الكتمان . وبعد اختطاف طائرة للمرة الأولى ، انتخبت عضواً في اللجنة المركزية للجبهة ، وهو منصب زاد ولم ينقص من واجباتي الحزبية . ففي الجبهة الشعبية ، كلما ارتفع في المرتبة الادارية ازدادت مسؤولياته . فليس في الجبهة الشعبية مشاهير يقوم باعمال مكتبية ، يحيط به المساعدون المعاونون المطيعون .

وفي مطلع آذار (مارس) ١٩٧٠ ، غادرت عمان الى مكان لم يعلن عنه ، حيث اجريت لي ثلاث عمليات جراحية لتغيير الشكل ، حتى يمكنني مواصلة القيام بمهمات عسكرية . كان عسيراً في البداية ان نجد طبيباً مستعداً ان يضع مهنته في خدمة الثورة . وبعد البحث وجدنا مثل هذا الطبيب ، الا انه تساءل كيف يرضى زوج عتيد بان يرى وجه امرأته « مشوهاً » قبل ان يتزوجها . وفي ١٣ آذار (مارس) ١٩٧٠ ، اجريت لي اول عملية في الوجه . كان ذلك موجعاً حقاً ، خصوصاً اني رفضت التبنيج العام . فكنت ارى وخزات الابر . ولعل الغربيين يستخلصون اني ممن يحب تعذيب نفسه . لكني اؤكد لهم اني خلاف ذلك . فلي قضية أعلى واسمى من قضيتي الشخصية . واذن ، ها انا على طاولة العملية ، بينما رفاقي يعذبون ، واخواتي يُغتصبنَ ، وارضي تنهب .

وبعد عشرين يوماً على اجراء العملية ، كان علي ان اعيش على السوائل . فشعرت بالتعب الشديد . وبالنظر الى سرية الموضوع ، فلم يعرف بها الا القلة . لذلك لم يأتني زائرون يخففون عني وطأة الوحشة والضجر .

وكانت ساعة الصفر تقترب بسرعة ، الا انه كان علي ان اخضع لعمليات اخرى ليتم « تجميلي » . فاجريت لي عمليتان ، كانت الاخيرة قبل بضعة ايام من الموعد المحدد لاختطاف طائرة . وكان معظم رفاقي

سبقوني الى اوروبا واقاموا هناك في انتظاري . وبغتة ، جاءني خبر بتأجيل كل شيء لتجنب الاصطدام بالاردن . فشعرت بالخيبة ، لا بضعف العزيمة .

وكان الاسرائيليون وحلفاؤهم عدواً لا ينام ولا يغمض له جفن . ففي ١١ تموز (يوليو) ١٩٧٠ خرجت من المستشفى . كانت الساعة تشير الى الثانية والربع صباحاً ، وكنت مع الدكتور وديع حداد في منزله نتباحث في استراتيجية العمل . وكانت امرأته وطفله نائمين في الغرفة المجاورة . وبغتة اخترقت جدار غرفة النوم سلسلة من القنابل ، فلم يصب احد . وتناولنا بنادقنا ، فيما خرجت امرأته مع طفلها من غرفة النوم ، يصرخان وسط اللهيب وقد اصيبا بجراح . وانقطع مجرى الكهرباء ، فذعرنا قليلاً ونحن نحاول ان نطفىء اللهيب . وحملت الطفل هاني ، البالغ من العمر ثماني سنوات ، وركضت به أصعد سلم البناية واصيح : « النار ، النار ! » . وكان هاني مجرح الصدر ، وبدت قدمه مسحوقة . ودعتنا امرأة الى شقتها وهتفت للاطفائية . وشعرت بالقلق الشديد ، الا ان هاني كان هادئاً وساكتاً . واجبر نفسه على الابتسام وقال لي : « ثوار الجبهة الشعبية ، يا ليلى ، لا يخافون . يجب ان تخجلي من نفسك لانك خائفة » . وهزني هذا التنبيه من ثوري صغير ، فحملته وخرجت به الى المستشفى. واوقفت سيارة بالاجرة. ولما رفض سائقها ان ينقلنا ، بصقت في وجهه . وفجأة حضر أبو درووق ، احد اعضاء الجبهة الشعبية ، فرافقنا الى مستشفى الجامعة الاميركية . وفيما أنا أندفع الى الداخل ، وهاني بين ذراعي ، والدماء تلطخ وجهينا ، كنت اصيح : « ابن الطبيب ، ارجوكم ! » وفي دقائق حضر الطبيب ، وقبل ان ينظر الى الطفل ، سأل ببرودة اذا كان معي المال الكافي لمعالجته . فصرخت في وجهه : « انت طبيب ام بائع سجاد ؟ ». فقال: « هذا مستشفى ، لا مركز صحي خيري !». وفي هذه الاثناء وصل

الدكتور حداد وزوجته . وكانت زوجته فيما يشبه الهستيريا . وتعرف الطبيب الاميركي على زميله الدكتور حداد . ففوجىء وراح يعتذر عبثاً . وصحت في وجهه : « ايها الطبيب الاميركي ، ستجعل الثورة مستشفى الجامعة الاميركية هذا مستشفى للفقراء . أما انت وامثالك ، فسنعيدكم الى اميركا من حيث جئتم » . وما كان منه الا ان افتعل الابتسام وقال : « آسف ! »

وفي فرانكفورت نزلت في فندق تبيّن ، فيما بعد ، ان صاحبه يهودي . وحياني بالعربية ، فترددت قليلا في الرد عليه . وحين قال لي : « أنا يهودي » ، لم اتمالك من القول له بالعربية : « وانا عربية ، لكني لست ضد اليهود ، بل ضد الصهيونيين والذين احتلوا الارض العربية » . فاجاب : « انا صهيوني لاسباب دينية ، لكن لا تهمني السياسة » . ثم صعدت إلى غرفتي وبقيت حتى الصباح التالي ، وحين نزلت لاقاني صاحبنا اليهودي بترحاب وسألني اذا كنت ارغب في الذهاب الى امستردام في رحلة كان ينظمها لضيوفه . فرفضت مع الشكر ، وهرعت خارجاً لأتناول بعض الطعام . وفي طريقي اشتريت بعض الصحف ، فاذا بها كلها ، على وجه التقريب ، تعمر بالاخبار عن الاردن ، والعالم العربي ، واسرائيل ، ومقترحات روجرز ، والعلاقات بين الدول الكبرى . وكان معظمها يتكهن بقرب وقوع حوادث اختطاف الطائرات . وشعرت بالانزعاج بادىء الامر ، لكن الارتياح عاودني حين اشارت الى ان ذلك سيحدث في زوريخ او سواها ، لا في امستردام .

وكنت تحت هاجس مهمتي ، فتمرنت عليها ليلا ونهاراً . وضقت بالانتظار . لكن موعدي مع التاريخ . كان يقترب . والتاريخ بين ايدينا لنكتبه . وكان من نصيب باتريك ارغيلو ان يكتبه بدمه . أما انا ، فلم يكن هذا الشرف من نصيبي .

جرى لقائي الاول مع باتريك ارغيلو في اوائل ايلول (سبتمبر) امام مطار شتوتغارت . فتبادلنا الحديث بايجاز عن مهمتنا المسندة الى كل منا . وفي اليوم التالي طرنا الى فرانكفورت . وهناك ، في المطار ، اخذوا يفتشون المستر دياز (باتريك) بينما كنت اراقب ركاب طائرة TWA المسافرين الى تل ابيب وهم يخضعون للتفتيش الدقيق . وسرني اننا تسببنا للعدو بكل هذا الانزعاج . وقلت في نفسي : « يا للحمقى ! هذه هي الطائرة التي سنختطفها في طريق عودتها من تل ابيب » .

وتوقفنا مرة ثانية في امستردام . وفي ٦ ايلول (سبتمبر) التقيت باتريك امام مكتب شركة طيران العال الاسرائيلية في الساعة العاشرة صباحاً . وانتظرنا نصف ساعة الى ان فتح المكتب ابوابه . لكنه لم يفتحها ذلك اليوم . وفحصنا برنامج الطيران ، فوجدنا انه ما يزال يذكر ان طائرة العال ٢١٩ ستترك امستردام في الساعة الحادية والدقيقة العشرين الى نيويورك . ولم اكن على علم في تلك اللحظة ان اثنين من رفاقنا ، كان الاسرائيليون حالوا بينهم وبين محاولة سابقة ، عمدوا وحدهم الى اختطاف طائرة بان اميركان ٨٤٠ بعد نصف ساعة من اقلاعها . واخذاها الى مطار القاهرة ، حيث نسفاها هناك إعلاناً على استقلال فلسطين . ولم يكن باتريك ولا الرجال الخمسة الآخرون الذين أسندت اليهم عملية اختطاف على علم بأن ثلاث طائرات كانت هدفنا في ذلك اليوم . بل انحصرت معرفة ذلك في ثلاث فدائيات فلسطينيات وبضعة من قادة الجبهة الشعبية .

وانتظرنا في غرفة الاستقبال حتى الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق ، ولم يحضر أحد من موظفي شركة العال .

وفجأة خرج ضابط بوليس اسرائيلي وسألنا : « ماذا تفعلان هنا ؟ » فاجبته : « وصلنا الساعة العاشرة ، ايها الضابط » . فطلب ان

ان يكون هنالك مناطق حرام وما الى ذلك من اجراءات أمن » يتمّ التوصّل اليهابين الاطراف المعنية بمساعدة يارينغ. وأشار روجرز الى الحاجة الماسة الى «حدود آمنة ومعترف بها»، واقترح ان « مقدار ما تم احتلاله من أراض يجب ألا يؤثّر على رسم تلك الحدود ، كما يجب ان ينحصر في بعض التعديلات الطفيفة التي يتطلبها الأمن المتبادل » . وبخصوص قضية « اللاجئين » ، اكتفى روجرز بالاعتراف بحقيقة وجود « وعي جديد بين الاجيال الفلسطينية الناشئة » التي يجب توجيه آمالها ورغائبها بعيداً عن شعور الخيبة والمرارة نحو الامل والعدالة . وقال روجرز في صدد القدس انها يجب ان تكون « مدينة موحدة » مفتوحة لجميع الاشخاص والاديان والاجناس . واقترح روجرز لادارة المدينة «ان يكون لكل من اسرائيل والاردن دوره في حياتها المدنية والاقتصادية والدينية » . واعترف روجرز ان الاجتماعات التي عقدت مع الاتحاد السوفياتي اسفرت ، بخصوص عقد صلح منفرد بين اسرائيل ومصر ، عن صيغة جديدة تتضمن العناصر الرئيسية الآتية :

اولاً — تلتزم اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة باقامة سلام فيما بينهما ، بكل ما يعنيه ذلك من واجبات محددة ، بما فيها منع الاعمال العدوانية من ان تنطلق عبر حدودهما .

ثانياً — يضع الطرفان في رعاية يارينغ تفاصيل شروط السلام الخاصة بضمان السلامة الاقليمية ، وذلك بالافادة من الطريقة التي اتبعت في عقد معاهدة الهدنة برعاية رالف بنش ، في ١٩٤٩ ، في رودس . وفيما يختص بالتسوية بين اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة ، فان هذه الضمانات تتعلق قبل كل شيء بمنطقة شرم الشيخ التي هي مدخل الى خليج العقبة ، وبالحاجة الى مناطق منزوعة السلاح ، كما أشار اليها قرار مجلس الامن ، وبالتدابير النهائية الخاصة بقطاع غزة .

ثالثاً — في نطاق السلام والاتفاق على ضمانات أمن محددة ، تدعو الحاجة الى انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المصرية .

واثارت مقترحات روجرز هذه شكوك اسرائيل وقلقها . فنددت

غولدا مائير بالمقترحات ووصفتها بانها « خطر داهم يهدد سلامتنا » . وقال فيها ايبا ايبان انها « أضرت بالامل في السلام » . وفي اميركا أعلن هوبرت همفري المرشح للرئاسة ان المقترحات ضحت بمصالح اسرائيل وصداقتها . لكن افتتاحية نيويورك تايمس ، في ١١ كانون الاول (ديسمبر ١٩٦٩) رأت ان المقترحات « صادقة » و« دعوة صريحة الى التعقّل والاعتدال » ، وانها « تدل على الطريق المؤدية الى تسوية معقولة ، هي البديل الوحيد لنزاع جديد لا تستطيع الدول المعنية مباشرة بالقضية أو الدول الكبرى التي يتهددها الخطر على نحو غير مباشر ان تجازف به » .

وما ان وصفت اسرائيل مقترحات روجرز بأنها « تساير العرب » ، حتى قامت الحركة الصهيونية في اميركا بحملة ضد المقترحات وحاولت الضغط على روجرز للتراجع عن بعض النقاط الاساسية الواردة في تصريحه والتي تضمنتها عبارات مثل « تعديلات طفيفة » في الحدود و« الدور المدني » للاردن في ادارة القدس . ولتحقيق هذه الغاية ، تنادت ٢٤ منظمة صهيونية اميركية الى واشنطون ، في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ، للاعراب عن « قلقها العميق ومخاوفها » من التصريحات الاميركية الاخيرة عن الشرق الاوسط . فما كان من نيكسون إلا ان تقوض وانهار . ولم يكتف بارسال بيان الى المؤتمر يكرر فيه موقف اميركا الملتزم بالتأييد المطلق لاسرائيل ، بل اوفد صديقه الشخصي ماكس فيشر ، احد كبار رجال الصناعة الصهيونيين في ديترويت ، ورئيس مجلس الاتحاد اليهودي والصندوق الخيري اليهودي ، ليتلو عنه ذلك البيان . وقال فيشر امام الف من الزعماء الصهيونيين الاميركيين في ذلك المؤتمر ان « اميركا تقف الى جانب اصدقائها ، واسرائيل هي احد هؤلاء الاصدقاء » . واضاف قائلاً ان رئيس الولايات المتحدة « مستعد لتزويد الحكومات الصديقة ، كاسرائيل ، بالمعدات الحربية اللازمة لدعم جهودها والدفاع عن سلامة شعبها » . وجاء في الرسالة ، على وجه خاص ، « ان امكانات السلام تتعزز كلما وثقت حكومات المنطقة

بان حدودها وشعبها في أمان » . ثم شددت الرسالة على ان السلام لا يخيم على الشرق الاوسط الا بعد « اتفاق يتم التفاوض فيه بين اسرائيل والدول العربية » .

وأظهر الدكتور وليم واكسلر ، رئيس المؤتمر ، سروره وارتياحه بما ورد في الرسالة . فتراجع عن « مخاوفه وقلقه » وقال : « ان هذه الرسالة تبرهن على ان الرئيس نيكسون يتفهم قلقنا واهتمامنا ويقاسمنا اياه . وهي تشير الى انه لا يريد اي تضعضع آخر في السياسة الاميركية » . وختم واكسلر كلامه بقوله ان « خلاف الجالية اليهودية مع وزارة الخارجية الاميركية ليس خلافاً على النوايا ، بل على الوسائل » . ونجح الصهيونيون مرة اخرى ، فنالوا ٢٤ طائرة فانتوم ، بالاضافة الى الخمسين التي اخذوها في ١٩٦٨ . ووقف روجرز موقف الدفاع ، ولم يكن هنالك ضغط من جانب العرب يوازي الضغط الصهيوني .

وفي هذه الاثناء ، اي في ١٨ كانون الاول ١٩٦٩ ، وضعت اميركا مسودة مشروع « صلح منفرد » بين اسرائيل والاردن وابلغته الى الطرفين المعنيين بعد التشاور مع الدول الكبرى . وفي معالجة هذا المشروع الاميركي يجب عدم نسيان الحقيقتين الآتيتين : اولاً ، ان سوريا التي تحتل اسرائيل مرتفعات الجولان من اراضيها لم يأت ذكرها في مباحثات الدول الكبرى . وثانياً ، ان الاردن ملزم بسحق المقاومة المسلحة قبل تنفيذ المشروع . وفيما يأتي خلاصة احدى عشرة نقطة تضمنتها مسودة المشروع الاميركي :

١ — يتم الاتفاق بين الطرفين على كيفية وتوقيت انسحاب القوات الاسرائيلية انسحاباً يكاد يكون تاماً من الاراضي الاردنية التي احتلتها في حرب ١٩٦٧ .

٢ — تقبل كل من الدولتين بقيام حالة سلام فيما بينهما ، بما في ذلك تحريم اعمال العنف من اراضيها ضد اراضي الدولة الاخرى . وهذا يلزم الاردن بمنع الهجمات الفدائية .

٣ — يتم الاتفاق بين الاردن واسرائيل على تسوية قضية القدس ،

مع الاعتراف بان المدينة يجب ان تكون موحدة ، وسالكة للجميع ، وتحت ادارة مشتركة بين الطرفين ، في النواحي المدنية والاقتصادية .

٥ – يشترك الاردن واسرائيل في وضع التدابير النهائية لادارة قطاع غزة ، على اساس اتفاق مماثل يتم بين اسرائيل ومصر .

٦ – يتفاوض الطرفان في وضع شروط عملية لتوطيد السلام ، بما في ذلك رسم حدود المناطق الحرام في الضفة الغربية من الاردن ، على ان يتم تنفيذها بعد الانسحاب الاسرائيلي .

٧ – تقر الاردن بان مضايق تيران وخليج العقبة ممرات دولية ، مفتوحة للملاحة امام جميع البلدان ، وعلى وجه خاص امام اسرائيل .

٨ – بخصوص قضية اللاجئين ، يعطى يارينغ صلاحية انشاء لجنة دولية تستفتي اللاجئين لمعرفة من منهم يريد العودة الى اسرائيل . وبما ان هذا الامر يطول ، يقترح المشروع مباشرة العمل بالبنود الاخرى قبل تنفيذه .

٩ – يتبادل الطرفان الاعتراف بسيادتهما ، وسلامة اراضيهما ، واستقلالهما السياسي ، وحقهما في العيش بسلام .

١٠ – توضع وثيقة هذا الاتفاق مع الامم المتحدة . وكل خرق لمضمونها يعطي الطرف الاخرى الحق في ان يمتنع عن تنفيذ التزاماته الى ان يسوّى الامر .

١١ – يصادق مجلس الامن على وثيقة هذا الاتفاق ، كما ان الدول الاربع الكبرى – بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي – توحد جهودها لمساعدة الطرفين على الالتزام باحكامه .

وفي آخر الامر ، تشير الولايات المتحدة الى ان السلام الاسرائيلي – الاردني لا يوضع موضع التنفيذ الا بعد وضع اتفاق مماثل بين اسرائيل ومصر . وهذا الشرط يهدف الى تفنيد مزاعم العرب بأن هذا المجهود السلمي غايته زرع بذور الانقسام في العالم العربي .

وفي اعتقادي ان هذه الوثيقة تظهر بوضوح مخطط اميركا الواسع للشرق الاوسط . فاميركا تنظر الى مستقبل تدوم فيه اسرائيل ، ويزول

النفوذ السوفياتي في المنطقة ، ويتعزز النفوذ الاميركي ، ويضعف العالم العربي وينقسم على نفسه من جراء التنافس الشخصي والديكتاتوريات العسكرية أو الملكيات التقليدية . وفوق هذا كله ، فالمشروع الاميركي الذي يستهدف اقامة « سلام دائم » يفترض عدم وجود سيادة فلسطينية ، لكنه يتنازل الى التسليم بوجود اقليم فلسطيني تحت وصاية الاردن او اسرائيل او كليهما معاً . ولم تكن تلك الاحتجاجات وذلك الاخذ والرد حول هذا المشروع ، سواء من الحكومات العربية والاتحاد السوفياتي ، او حتى من جانب اسرائيل ، سوى لذر الرماد في العيون ، وذلك على حساب الجماهير العربية عموماً والشعب الفلسطيني على وجه الخصوص . وبقيت المشكلة الاساسية ، وهي كيف تنظر اسرائيل ومصر الى هذا المشروع ، وكل منهما تدعي تفوقها على الاخرى ، وكيف تتجاوب كل من الدولتين الكبريين مع مطالب الفريق الذي تناصره .

وفي هذا النطاق وحده يمكننا ان نفهم لماذا حاولت اسرائيل في خريف ١٩٦٩ وشتاء ١٩٧٠ الاطاحة بعبد الناصر . ورغم تحذيرات الدول الكبرى ومشورتها بالتأني ، فان اسرائيل صممت على الاطاحة بعبد الناصر باعتباره العقبة الوحيدة امام تحقيق نوع « السلام » الذي تريده . وفي آخر الامر ، ساند السوفيات مصر بالصواريخ ، مما أجبر الاسرائيليين على ايقاف هجماتها في عمق الاراضي المصرية . الا إنه اعطى اسرائيل عذراً لأن تطالب اميركا بمزيد من السلاح للحفاظ على « توازن القوى » في المنطقة لصالح اسرائيل . اما السوفيات ، فلم يكتفوا بأنهم رفضوا ان يزودوا مصر بالاسلحة الهجومية ، بل انهم ترددوا في تزويدها باسلحة دفاعية من شأنها ان تحمي المواقع الثابتة الضعيفة التي احتفظ بها المصريون بمشورة الروس . ورغم الدعايات الكاذبة التي اشاعها الاميركان والصهيونيون ان المصريين كانوا ينوون الهجوم على الضفة المحتلة من القناة ، فالحقيقة ان المصريين لم ينووا شيئاً من هذا ، بل كان كل هدفهم من صواريخ سام وسواها هو منع اسرائيل من التحليق في الاجواء المصرية ساعة تشاء . ولم يرق ذلك ، بالطبع ،

لموشي ديان وانصاره الاميركان . والواقع ان استراتيجية عبد الناصر لم تكن ترمي الا للحفاظ على السلطة ، لا لتحرير الاراضي المحتلة كما كان ينادي . ومن الغرابة ان يعمد عبد الناصر الى التصريح دائماً بان فلسطين لن تتحرر الا بقوة السلاح . لكنه كان متفقاً بينه وبين نفسه على وجود فلسطين تحت السيطرة الصهيونية ضمن الحدود السابقة لحرب حزيران . وهو ، كداعية الى « الحل السياسي » ، لم يحد عن هذا الاتجاه ، الا في الخطب الرنانة التي كان يلقيها في المناسبات للاستهلاك العربي المحلي . وفيما كان الديبلوماسيون يعقدون الاجتماعات السريّة ، والسفارات تتبادل المذكرات ، ووزراء الخارجية يطوفون العالم وراء سلام « قائم على العدالة » ، كان الحسين ، كدليل على حسن نيته تجاه اصدقائه الغربيين ، يسعى الى تنفيذ الجانب الخاص بالسلام الاسرائيلي — الاردني من مقترحات روجرز : التخطيط للقضاء على المقاومة .

وفيما كانت هذه المؤامرات تحاك في الخفاء ، كنت في رحلة الى العراق والخليج العربي استغرقت ثلاثة اشهر ، يرافقني عدد من اقطاب الثورة : صلاح صلاح ، الزعيم العمالي المتخرج من السجون السورية لنشاطه الوحدوي ، ورشيده عبيدو ، المناضلة المرهوبة الجانب في الارض المحتلة ، وسليم عيساوي ، رفيقي في اختطاف طائرة TWA ، وطلعت ، الثوري البالغ من العمر ١٣ عاماً والذي أدبّ الذعر في صهيونيي اوروبا . وكان الغرض من هذه الرحلة نشر الدعاية الثورية وجمع التبرعات للجبهة الشعبية . ولاقينا نجاحاً باهراً ، لاننا لم نتصل اتصالاً حميماً مع الجماهير العربية وحسب ، بل اطلعنا جيداً على مطالبهم ، خصوصاً طرد الانكليز من الخليج والحدّ من انتشار النفوذ الامبريالي الاميركي في المنطقة . وكان الفقراء والعمال والفلاحون هم الذين رحبوا بنا وغمرونا بالعطايا والهبات ، لا ملوك النفط ولا مستشاروهم السياسيون. وعدنا الى عمان في مطلع شباط (فبراير) ، حين بلغت المؤامرة الرجعية ذروتها .

وكان الملك حسين عائداً من مصر ، بعد مشاورات واسعة النطاق مع دول المواجهة . كان يبدو عليه الحزم في تصاريحه التي هدد فيها اسرائيل بعواقب وخيمة اذا هي لم تنفّذ قرار ٢٤٢ . لكنه سرعان ما أصدر بعض المراسيم التي من شأنها ترحيل المقاومة من المدن ، واغلاق صحفها ، ومنع اجتماعاتها العامة . فكان لا بد من الاصطدام . وبدأنا بكسر طوق النطاق الذي ضربه الحسين حول المدن ، فاتخذ كل قطاع ما يراه ضرورياً من التدابير . واسندت اليّ مهمة الذهاب الى مخيم شومر بالقرب من الزرقا لشرح اوامر الحسين للجماهير وتبيـــان خطرها وانسجامها مع المخطط الاميركي الاسرائيلي . وفعل رجال الجبهة الشعبية مثلي في سائر المخيمات في الاردن . ورد الحسين على ذلك بقطع الماء والكهرباء عن المخيمات ــ وهو تدبير لجأ اليه فيما بعد ، في ايلول ، وكان اثره على الفقراء فادحاً . وتحدينا موقفه هذا ودعونا الى التظاهر في جميع انحاء الاردن . وحاول زبانيته عرقلة اجتماعاتنا العامة واثارة الشغب ، فلاقى معظمهم ما يستحقونه من العقاب الثوري . واشتدّ التوتر بسرعة ، فما ان عدت الى عمان حتى صدرت الي الاوامر بالقاء محاضرة في مدرسة جبل التاج . وحين وصلت مع بعض الرفاق ، تبيّن لي ان الحضور فرقهم جنود الحسين . واشار علينا قائد الجبهة الشعبية في تلك المنطقة بالعودة الى مخيّم الوحدة والانتظار هناك . فاطعناه بلا تردد .

وعشية ١٠ شباط (فبراير) ، كنت منشغلة بزيارة سميرة اخت خطيبي التي وصلت من بغداد لزيارة باسم والتأكّد ، بالنيابة عن العائلة ، من انني جديرة بان اكون كنتهم . وكنت عقدت خطوبتي على باسم ، من قبل ، بموافقة الجبهة الشعبية . ولم نستشر أحداً من افراد عائلتينا في ذلك .

ولم تكن سميرة على شيء من التدريب العسكري ، فقلقت عليها ، خصوصاً لأن لا مكان عندي ابعدها فيه عن جبهة القتال . لكنها في صراحة عراقية قالت لي : « اسمعي يا ليلى ، انا مستعدة للقيام بما تطلبينه

مني . انا ايضاً عربية واريد ان أحارب » . فسررت لذلك واصطحبتها الى جبل الحسين لابلاغ بعض التعليمات . وتناولت بندقية وقنبلة يدوية وركبت التاكسي . وفيما نحن نصعد الجبل ، رأينا سيارة جيب عسكرية تحترق وسمعنا تبادل اطلاق الرصاص . وأوقفنا بعض الاخوة المنتمين الى فتح وحذرونا من خطر متابعة السير . واخرجنا السائق من سيارته ، قائلاً انه ليس مستعداً ان يموت . وعبثاً اقنعته بايصالنا الى المكان الذي نقصد اليه . وثارت ثائرة سميرة ، فاندفعت تتهمه بالجبن . فقال المسكين ان له ثمانية اولاد يجب ان يعيلهم ، ثم تركنا من دون ان يتقاضى اجرته . واخبرنا الاخوة من فتح ان المنطقة كلها مشتعلة بالنيران ، وان السكان يجلون عنها . وقال لي احدهم ، بعد ان تعرّف الي ، ان المعركة ابتدأت ، واشار علي بالعودة الى مخيّم الوحدة . وأريته القنبلة اليدوية واعربت له عن رغبتي في القتال . فدعاني الى مرافقته لمخابرة المكتب الحربي بالتلفون وإخباره بأن الحسين يوشك ان يشنّ هجوماً قاتلاً علينا . وبعد ان فعلت ذلك ، رجعت انا وسميرة الى مخيّم الوحدة ، فما ان وصلنا حتى امرنا الدكتور حبش باعداد قنابل بترولية لالقائها في مقاومة جنود الحسين . وبعدما احضرت بعض البترول ، جلسنا طول الليل نصنع القنابل ونوزعها على المحاربين . ولم يكن في حوزة الجبهة الشعبية مصدر للاسلحة ، فكان علينا ان نصنعها بأيدينا أو ان نغنمها من العدو . ورفض الدكتور حبش مناشدتنا له بالذهاب الى مكان أمين وقال : « لماذا أعيش أنا ، اذا كنتم انتم مستعدين للموت في سبيل القضية ؟ »

وكان العاشر من شباط (فبراير) ١٩٧٠ اول يوم من الهجوم الكثيف على المقاومة منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨ . واستمرت المعركة طول النهار ، من دون ان يتمكن جنود الحسين من خرق نطاق مواقعنا . وكانت عمان تحت الرصاص من جميع جهاتها ، لكن المقاومة وقفت في وجه الحسين بلا خوف واجبرته على التراجع . ودامت الاشتباكات المتقطعة نحو اسبوع ، فسقط عدد كبير من القتلى والجرحى بين الطرفين . وفقدت الجبهة ابو طلعت ، احد فدائيينا الشجعان ،

اذ قتله رجال المخابرات الاردنية . وكان لاغتياله صدى عميق الاثر لدى رجال المقاومة ، ادّى الى تشديد العزائم على القتال ضد الطاغية الهاشمي . وفي مأتمه الذي اشتركت فيه الآلاف ، القت رمزيه ، زوجة عبد المحسن حسن الذي استشهد في زوريخ على ايدي الاسرائيليين ، رثاء مؤثراً لم تذرف فيه دمعة ، هذا نصه :

« انت لم تمت يا ابا طلعت ، فثلاثة اولاد لك ما زالوا على قيد الحياة . وعبد المحسن تركني مع تسعة . فكلاكما خلفتما اثني عشر فدائياً لفلسطين ، يواصلون حمل مشعل حريتها . ثق اننا سنستعيد الارض التي مت في سبيلها على ايدي قتلة مجرمين . نحييك ايها البطل الذي سقط . قضيت في المعركة منتعلاً حذاءك ، فكنت قدوة للفلسطينيين ولجميع المضطهدين في العالم . وليكن لنا الالوف من امثالك . عانق الارض التي خرجت منها ، وامتزج بتراب فلسطين الخالد ليزداد ارتواء بدماء الشهداء والابطال . انت تحب ، لأن الثورة ستبقى» .

كان من نتائج الغارة الوحشية التي شنها الحسين على المقاومة انها دفعت مختلف فصائل المقاومة الى القيام بمحاولات تمهيدية لتوحيد صفوفها . فخرجت القيادة الموحدة الى حيّز الوجود ، وسط كثير من الدماء وتحت عجلات دبابات الحسين الاميركية . غير ان المقاومة لم تتفق على استراتيجية ثورية معينة او على عمل موحد ، على الرغم من ان كثيراً من الرفاق سقطوا ضحية فقدان التنسيق في الاجراءات المتخذة . ومنذ ٦ أيار (مايو) تبنت المقاومة شكلياً استراتيجية الجبهة الشعبية في سبيل احباط المؤامرة اشترك في اعدادها مختلف الاطراف للقضاء على المقاومة . وفي هذه الاثناء ، لمس الحسين الخطر الذي يتهدده ، فألغى الاوامر والتدابير التي اتخذها ، ملوحاً برغبته العلية في « التضامن العربي » وزاعماً ان ردة فعل المقاومة على تلك الاوامر والتدابير ما هي الا « سوء تفاهم » . ووصف انصاره الغربيون ما قام به الحسين بأنه

دليل على ان الحسين « رجل دولة » استطاع ان يتجنب نشوب حرب اهلية تسيل فيها الدماء . فهو لم يرد ان يكون « سجيناً مكروهاً في قصره »، فضلاً عن ان من شيم الرجل ونظرته الى واجبه كملك ما يجعله يأبى التفكير بحال كهذه . (الاوبزيرفر ، لندن ، ١٧ شباط ١٩٧٠) . على ان هؤلاء الانصار لم يتمالكوا من الاعتراف بأن الحسين كان لأشهر عديدة تحت ضغط السفارة الاميركية في عمان لتصفية الحساب نهائياً مع الفلسطينيين .

وفي شباط (فبراير) ١٩٧٠ ظهرت التيارات الخفية في الاردن الى العيان . ولسوء الطالع ان الكثيرين من العقلاء رفضوا ان يصدقوا عيونهم ، ناهيك باتخاذ اي اجراء . والواقع انه كان على كلا المعسكرين المتباعدين اللذين يمسكان معاً بزمام السلطة في الاردن ان « يصفيا الحساب نهائياً » . لكن متى ؟ وارجأ الحسين اية مبادرة من جهته لسببين : الاول ان فتح والجماهير العربية عموماً كانت ما تزال تؤمن بالاخوة العربية وعلى استعداد للعيش مع الحسين . والثاني ان الحسين كان ما يزال يعتبر المقاومة اداة مفيدة يستخدمها للحصول من اميركا واسرائيل على مزيد من التنازلات في الوقت الحاضر ، وعلى شروط تميل الى صالحه عندما يحين اوان عقد الصلح .

وكاد الاصطدام يقع بين الحين والآخر في عمان . وقام جوزف سيسكو ، معاون وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الاوسط ، بزيارة عمان في منتصف نيسان (ابريل) . واظهرت الجماهير له رفضها القاطع لمشاريع « السلام » الاميركية . لكن لا الحسين ولا اميركا كانا على استعداد للتراجع . واخذت خيوط المؤامرة تنجلي ببطء ، فيما كان جنود الحرس الملكي الخاص يطوفون المدن ويستفزون المقاومة. وكانت دول المواجهة تقترب من « الصلح » مع اسرائيل وتنشر بوسائلها الاعلامية نقائص المقاومة ، حين اخذ المأجورون الاردنيون يخرقون القوانين الاردنية في علانية ، ويثيرون الفوضى في محاولة لاشعال نار حرب اهلية بين الاردنيين والفلسطينيين . ورأت الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين ما انطوت عليه تلك السياسة التي استغلت نقطة الضعف الرئيسية لدى المقاومة – وهي نقطة ضعف سببها الجناح اليميني في حركة فتح – فبادرت الى القيام بهجوم مضاد ، نادت فيه جميع المواطنين الى الالتفاف تحت لواء قيادة واحدة . واخذت الجبهة الشعبية زمام المبادرة ، فاحتلت مواقع استراتيجية في عمان واحتجزت السكرتير الاول في السفارة الاميركية ، لعزل العناصر الفاسدة التي وقفت وراء الحسين و« مستشاريه » من رجال المخابرات المركزية الاميركية . واخلينا سبيل السكرتير تحت ضغط المقاومة ، لكن القوى الرجعية زادت عنفاً بدل ان تقل ، خلافاً لتوقعات المقاومة . وتحركت الجبهة الشعبية ، فاحتلت فندقي فيلادلفيا والاردن واحتجزت جميع نزلائه الاجانب . وكان الحسين يضرب بقنابله مخيمات « رعاياه » ، بحجة ان محاولة جرت لاغتياله . غير انه توقف عن الضرب ، حين شعر باننا جادون هذه المرة . واستمر القتال اسبوعاً ، فوقع اكثر من ألف ضحية فداء عرش الحسين . لكن مفارقات القدر شاءت ان تعلن الهدنة وتشكّل لجان مشتركة تمثّل الحسين والفدائيين للمشارفة على احكام « الهدنة » . والقي اللوم في تلك المذبحة على اللواء زيد بن شاكر ، بحجة انه استشاط غضباً عندما قيل ان أحد الفدائيين قتل اخته ، قبل وقوع القتال . فاستقال اللواء زيد والشريف ناصر ، عم الحسين ، وتسلم الحسين قيادة قواه المسلحة .

اظهرت احداث حزيران ان فتح لم تتعلم درسها بعد . وفقدنا فرصة الاطاحة بالحسين ، حين كنا نتمتع بثقة الشعب ونملك القوة لسحق قواه المجزأة . وبين حزيران وايلول ، تمكّن الحسين من تعزيز قواه العسكرية وتطهيرها من العناصر المشكوك بولائها ، خصوصاً من الفلسطينيين . وكانت فتح ، وهي اكبر منظمة فدائية ، في حالة من التردد . وفي حزيران تجلى للعيان ان هذه المنظمة التي تعتبر « السلسلة الفقرية » للمقاومة لم تكن تقود ، بل تتبع الجماهير . وغني عن القول

ان الجبهة الشعبية اخذت المبادرة واجبرت الفصائل الاخرى في المقاومة على السير وراءها . وهكذا سادت الاستراتيجية المدروسة والقيادة الملهمة . واصبحت الجبهة الشعبية ، شيئاً فشيئاً ، البديل الجديد ، والقوة المغناطيسية التي تجذب الجماهير ، وطليعة الثورة الاشتراكية العربية . وبدأت الانظمة العربية تميّز بين الثوريين الصادقين (فتح) ، وبين الثوريين الارهابيين ذوي العقائد المستوردة (الجبهة الشعبية) . واعلن الحسين ان سلوك الجبهة الشعبية ، لا ضرب مخيمات « اللاجئين » الوحشي بالقنابل ، هو الذي يسيء الى الشعب العربي . لكن الجماهير لم ينطلِ عليها هذا الادعاء . ذلك انها كانت تعرف من هو عدوها وتصفق للعمل الذي قمنا به ، حين دافعنا عن مواقعنا بشجاعة في المخيمات ، وبلا تنازل وتسوية على طاولة المفاوضات . وهكذا ادرك الجميع اننا ثوريون جادون في ثوريتنا ، لا « ثوريين » ساعين وراء « حلّ سلمي سياسي » بالطرق الديبلوماسية ، نتوسل القتال لاظهار قدرتنا على اثارة الاضطراب . والجماهير تريد التحرير ، لا الاستسلام . فلا عجب ان هي التفّت حول الجبهة الشعبية الداعية الى اعتماد مبدأ الحرب الشعبية وتطويل أمد الكفاح المسلّح .

وازداد بروز الخط الفاصل بين اعداء الشعب وانصاره في ربيع ١٩٧٠ . فعرفت الجماهير ان الحسين والرجعيين العرب كانوا في معسكر العدو . وكانت تلقنت الجماهير من قبل ان « التقدميين » العرب يؤمنون بالتحرير وبالتيار القومي الوحدوي من الثورة — وهو التيار الذي يتحدى الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية . وفي ذلك الربيع المصيري ، حسر « التقدميون » القناع عن وجوههم ، حين لوحوا بـ « السلام » لواشنطون وتل ابيب ، بموافقة موسكو . وما ان جاء ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، حتى انجلت استراتيجيتهم « السلمية » ومحاولتهم تصفية المقاومة . وفي تموز (يوليو) ١٩٧١ ، اصبح واضحاً للعيان ، حين وضع السادات عبد الناصر على الرف وشنّ « حرب الاخذ بالثأر » ضد الجبهة الشعبية من قاعة جامعة القاهرة .

وكان عبد الناصر في عيد اول ايار ١٩٧٠ القى خطاباً قال فيه ان فرصة التقارب العربي – الاميركي تفوت بسرعة . وعوض عبارات التنديد المعتادة باميركا ، اعلن عبد الناصر أن اميركا منحازة نحو اسرائيل . ثم دعا اميركا الى تحسين علاقتها مع العرب على اساس «عدم التحيز» الذي دعا اليه سكرنتون في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، وهي دعوة صريحة الى اميركا ، شريكة الصهيونيين ، للقيام بدور الوسيط في النزاع العربي – الاسرائيلي . وظن عبد الناصر انه بذلك يضع اميركا في موقف دفاع ، لكنه دهش حين ردّ عليه روجرز بالموافقة في حزيران (يونيو) ١٩٦٨ ، مردداً شعار « السلام القائم على العدل » . واستمرت تلك المداعبة الديبلوماسية نحو شهر . ثم فجر عبد الناصر قنبلته التاريخية في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٧٠ ، في الذكرى الثامنة عشرة للثورة ، حين اعلن قبوله بمقترحات روجرز للسلام في الشرق الاوسط . ولم يكتف عبد الناصر بالموافقة عن « السلام » مع اسرائيل كغاية بعيدة المدى ، بل اعلن موافقته ايضاً على وقف « حرب الاخذ بالثأر » و« تجميد التسلّح » وعدم اشتراط انسحاب اسرائيل من الارض المحتلة قبل بدء المفاوضات .

واثارت هذه « المناورة الديبلوماسية البارعة » ، على حدّ تعبير محمد حسنين هيكل ، هزة عنيفة في صفوف الثورة العربية . وظهرت « تناقضات » المجتمع الصهيوني كما تكهّن به عبد الناصر ، فانسحب الحزب اليميني الاسرائيلي من الحكومة الائتلافية التي تشكلت عندما قبلت اسرائيل بوقف اطلاق النار . واعلنت الدول العربية ، باستثناء العراق والجزائر ، تأييدها لموقف عبد الناصر السلمي . وامتدح الصحفيون دهاء عبد الناصر كرجل دولة . وسار الفلسطينيون الذين يعبدون عبد الناصر في شوارع عمان يهتفون : « عبد الناصر جبان ! عبد الناصر خائن ! » وهكذا تلطخت صورة عبد الناصر في الاذهان . لكنه ظل معبود الجماهير . غير انه حين طرد طلاباً فلسطينيين من الجامعة المصرية ، واغلق محطة اذاعة فتح ، وامر انصاره في حركة المقاومة بتأييد موقفه

علناً وبمحاولة القضاء على الجبهة الشعبية ، تدنى رصيده وانخفض . واذا كان لم يتهم تماماً بأنه متواطىء مع اميركا ، الا ان تصرفاته اثارت الشكوك في عقول المعجبين به . وهكذا تم المقدور . وبقي الجنين الثوري وحده ، وتكاتف الروس والاميركان والحكام العرب والصهيونيون على اجهاضه .

وفي خطابه يوم ٢٣ تموز (يوليو) ، اعلن عبد الناصر عن الاهداف المصرية : انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة ، والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . وقال : « نحن لا نريد الحرب لاجل الحرب . نحن نريد ان نحرر ارضنا . نحن نريد حقوق شعب فلسطين . ونحن قبلنا بالمقترحات الاميركية ، كما وردت على لسان وليم روجرز وزير الخارجية ، وليس فيها اي شيء جديد لم نوافق عليه من قبل . اسرائيل هي التي ترفضها . اسرائيل تلقي علينا الف طن من القنابل . ومع ذلك ، فحين وصلتنا اسلحة سوفياتية حديثة ، شنّت علينا الهجمات . لكن صحيفة اميركية واحدة لم تذكر ان في حوزة اسرائيل ٧٢ مركز صواريخ للدفاع . فماذا يعني هذا ؟ هل يعني ان لا حق لنا بالدفاع عن انفسنا ، بينما اسرائيل لها هذا الحق ، بالاضافة الى حق الهجوم علينا ؟ » أما ما ينطوي عليه موقف عبد الناصر ، اي القضاء على حركة المقاومة كشرط مسبق للسلام ، فلم يعترف به عبد الناصر . واصرّ عبد الناصر على ان لمصر الحق في طلب الصلح ، كما ان للفلسطينيين الحق في القتال لتحرير بلادهم : وهما حقان « متناقضان » . وكان لقبول عبد الناصر بمقترحات روجرز تأثير سلبي على العالم العربي ، كما كان له اثر شديد الوطأة على المقاومة ، بالرغم مما نشرته « الاهرام » خلافاً لذلك . فبعد مرور اسبوعين على خطاب عبد الناصر هذا ، صدر أمر بوقف اطلاق النار ، دخل في حيّز التنفيذ في ٧ آب (اغسطس) ١٩٧٠ . والتعايش السلمي المتوقّع بين الصهيونيين والعرب لم يتمّ . والمقاومة كانت هي العقبة الرئيسية ! لذلك يجب سحقها ، قبل ان يسير رجالات السياسة الصهيونية والعربية يداً بيد الى مذبح هيكل سليمان والجامع العمري . واشتدت الجهود المشتركة لحصر نشاط المقاومة

وتقليصه . فتوقفت الاعانات المالية عن فتح ، وشنّت حملات الاعلام العالمي ضد المقاومة ، ورصدت حركات الفصائل الفدائية عبر الحدود وحصرت في مناطق استراتيجية داخل الاردن . وبادر الحسين ، وسط سكوت العرب الذي يعني الموافقة ، الى القيام بحملته التصفوية المنظمة ضد الثوار « الصادقين » و« الارهابيين » على السواء .

وكان متوقعاً ان تكون تلك الحملة آخر الحملات ، فيليها عهد من السلام يخيّم على الشرق الاوسط . وانتظرت الجبهة الشعبية طويلاً حتى يلعب كل زعيم عربي ، وكل عدو وصديق ، لعبته . فندّد بعض الزعماء العرب بسياسة الحسين ، بينما غسل بعضهم يديه . غير ان معظمهم صفقوا لوقفته في سبيل « القانون والنظام » . ثم قررت الجبهة الشعبية تنفيذ استراتيجيتها الهجومية . وكان على المقاومة كلها ان تفعل هكذا ، فلم تفعل .

وكنت انا ورفاقي في طريقنا الى اوروبا لاعلان حرب دولية ضد المحاولات المشتركة التي تقوم بها الدولتان الكبيرتان ، والصهيونية ، والدول العربية ، للقضاء على الثورة الاشتراكية العربية ، وبالتالي ثورة العالم الثالث والمضطهدين والبؤساء على وجه الارض . وسافرت الى فرانكفورت وانا اعلم تمام العلم اننا ، نحن الفلسطينيين ، ابناء اليأس ، والآن ابناء الثورة ، نحمل مشعل الحرية والتحرير الانساني بالنيابة عن البشرية كلها . فاذا فشلنا ، تنجح اميركا في رد الثورة العالمية على اعقابها ، باستثناء فيتنام . وكان هدفنا الادنى كتابة اسم فلسطين على ذاكرة الانسانية وعلى عقل كل من يحترم نفسه ويؤمن بحق المستعبدين في تقرير مصيرهم . والى جانب ذلك ، كنا نأمل بوقف الارهاب الفاشيستي في الاردن ، وبفضح « التناقضات » الكامنة في المجتمع العربي .

وهكذا خرجنا لضرب العدو في عقر داره .

٧ – نتكلم باسم انسانية ضائعة

« الجبهة الشعبية ، في مختلف مؤسساتها ، صورة مصغرة للعالم العربي الذي نطمح الى بنائه . فعلى كل عضو ان يتعلم كيف يخدم الصالح العام ويبذل قصارى جهده في مساعدة الجبهة على بلوغ غايتها التي هي تحرير الفرد العربي وعدوه الصهيوني » .

– جورج البقاعي –

لكل عضو في الجبهة الشعبية مهمات اساسية هي القيام بنشاط عسكري ، سياسي التوجيه ، ونشر الدعاية الثورية ، وجمع المعونات المالية . ومع ان هذه المهمات ، غالباً ما تكون متشابكة ، الا ان كل عضو يتخصص في حقل منها يلائم مواهبه . لكن الحزب يتطلب من كل عضو ان يكون على اطلاع تام بايديولوجية الحزب واستراتيجيته ، وان يكون مستعداً على القيام بمهمات في الارض المحتلة وفي البلدان الاجنبية ، وان يكون راغباً دائماً في العيش والعمل مع الجماهير ، وان يساعد في جمع التبرعات والمعونات المالية بكل الوسائل .

وبصفتي جندية ، اختارني للحزب للقيام بعمليات في الخارج . ولسوء الطالع ان هويتي انفضحت للسلطات السورية في ١٩٦٩ ، حين هبطت مع الرفيق سليم عيساوي بطائرة TWA في دمشق . ولو لم يتدخل السوريون لبقيت في عداد مئات الجنود المجهولين في الجبهة الشعبية . ثم ان للهستيريا الصهيونية نصيباً في نشر صورتي واذاعة اسمي في كل صحيفة غربية ، ان لم يكن في صحف العالم كله . غير ان الدعاية الواسعة لم تبرهن على انها اداة فعالة لانهاء نشاطي كثورية . فما زلت

في ميدان العمل . وفيما ظن عدد كبير من اعضاء الجبهة الشعبية انني اعمل في اربد ، في ربيع وصيف ١٩٧٠ ، وفيما ظنت عائلتي انني ما زلت في مصر ، كنت في الواقع اتدرب على قيادة طائرة « العال » . وتفاصيل هذا التدريب يجب ان يظل طيّ الكتمان . وبعد اختطاف طائرة للمرة الأولى ، انتخبت عضواً في اللجنة المركزية للجبهة ، وهو منصب زاد ولم ينقص من واجباتي الحزبية . ففي الجبهة الشعبية ، كلما ارتفع في المرتبة الادارية ازدادت مسؤولياته . فليس في الجبهة الشعبية مشاهير يقوم باعمال مكتبية ، يحيط به المساعدون المعاونون المطيعون .

وفي مطلع آذار (مارس) ١٩٧٠ ، غادرت عمان الى مكان لم يعلن عنه ، حيث اجريت لي ثلاث عمليات جراحية لتغيير الشكل ، حتى يمكنني مواصلة القيام بمهمات عسكرية . كان عسيراً في البداية ان نجد طبيباً مستعداً ان يضع مهنته في خدمة الثورة . وبعد البحث وجدنا مثل هذا الطبيب ، الا انه تساءل كيف يرضى زوج عتيد بان يرى وجه امرأته « مشوهاً » قبل ان يتزوجها . وفي ١٣ آذار (مارس) ١٩٧٠ ، اجريت لي اول عملية في الوجه . كان ذلك موجعاً حقاً ، خصوصاً اني رفضت التبنيج العام . فكنت ارى وخزات الابر . ولعل الغربيين يستخلصون اني ممن يحب تعذيب نفسه . لكني اؤكد لهم اني خلاف ذلك . فلي قضية أعلى واسمى من قضيتي الشخصية . واذن ، ها انا على طاولة العملية ، بينما رفاقي يعذبون ، واخواتي يُغتصبنَ ، وارضي تنهب .

وبعد عشرين يوماً على اجراء العملية ، كان علي ان اعيش على السوائل . فشعرت بالتعب الشديد . وبالنظر الى سرية الموضوع ، فلم يعرف بها الا القلة . لذلك لم يأتني زائرون يخففون عني وطأة الوحشة والضجر .

وكانت ساعة الصفر تقترب بسرعة ، الا انه كان علي ان اخضع لعمليات اخرى ليتم « تجميلي » . فاجريت لي عمليتان ، كانت الاخيرة قبل بضعة ايام من الموعد المحدد لاختطاف طائرة . وكان معظم رفاقي

سبقوني الى اوروبا واقاموا هناك في انتظاري . وبغتة ، جاءني خبر بتأجيل كل شيء لتجنب الاصطدام بالاردن . فشعرت بالخيبة ، لا بضعف العزيمة .

وكان الاسرائيليون وحلفاؤهم عدواً لا ينام ولا يغمض له جفن . ففي ١١ تموز (يوليو) ١٩٧٠ خرجت من المستشفى . كانت الساعة تشير الى الثانية والربع صباحاً ، وكنت مع الدكتور وديع حداد في منزله نتباحث في استراتيجية العمل . وكانت امرأته وطفله نائمين في الغرفة المجاورة . وبغتة اخترقت جدار غرفة النوم سلسلة من القنابل ، فلم يصب احد . وتناولنا بنادقنا ، فيما خرجت امرأته مع طفلها من غرفة النوم ، يصرخان وسط اللهيب وقد اصيبا بجراح . وانقطع مجرى الكهرباء ، فذعرنا قليلاً ونحن نحاول ان نطفىء اللهيب . وحملت الطفل هاني ، البالغ من العمر ثماني سنوات ، وركضت به أصعد سلم البناية واصيح : « النار ، النار ! » . وكان هاني مجرح الصدر ، وبدت قدمه مسحوقة . ودعتنا امرأة الى شقتها وهتفت للاطفائية . وشعرت بالقلق الشديد ، الا ان هاني كان هادئاً وساكتاً . واجبر نفسه على الابتسام وقال لي : « ثوار الجبهة الشعبية ، يا ليلى ، لا يخافون . يجب ان تخجلي من نفسك لانك خائفة » . وهزني هذا التنبيه من ثوري صغير ، فحملته وخرجت به الى المستشفى. واوقفت سيارة بالاجرة. ولما رفض سائقها ان ينقلنا ، بصقت في وجهه . وفجأة حضر أبو درووق ، احد اعضاء الجبهة الشعبية ، فرافقنا الى مستشفى الجامعة الاميركية . وفيما أنا أندفع الى الداخل ، وهاني بين ذراعي ، والدماء تلطخ وجهينا ، كنت اصيح : « ابن الطبيب ، ارجوكم ! » وفي دقائق حضر الطبيب ، وقبل ان ينظر الى الطفل ، سأل ببرودة اذا كان معي المال الكافي لمعالجته . فصرخت في وجهه : « انت طبيب ام بائع سجاد ؟ ». فقال: « هذا مستشفى ، لا مركز صحي خيري !». وفي هذه الاثناء وصل

الدكتور حداد وزوجته . وكانت زوجته فيما يشبه الهستيريا . وتعرف الطبيب الاميركي على زميله الدكتور حداد . ففوجىء وراح يعتذر عبثاً . وصحت في وجهه : « ايها الطبيب الاميركي ، ستجعل الثورة مستشفى الجامعة الاميركية هذا مستشفى للفقراء . أما انت وامثالك ، فسنعيدكم الى اميركا من حيث جئتم » . وما كان منه الا ان افتعل الابتسام وقال : « آسف ! »

وفي فرانكفورت نزلت في فندق تبيّن ، فيما بعد ، ان صاحبه يهودي . وحياني بالعربية ، فترددت قليلا في الرد عليه . وحين قال لي : « أنا يهودي » ، لم اتمالك من القول له بالعربية : « وانا عربية ، لكني لست ضد اليهود ، بل ضد الصهيونيين والذين احتلوا الارض العربية » . فاجاب : « انا صهيوني لاسباب دينية ، لكن لا تهمني السياسة » . ثم صعدت إلى غرفتي وبقيت حتى الصباح التالي ، وحين نزلت لاقاني صاحبنا اليهودي بترحاب وسألني اذا كنت ارغب في الذهاب الى امستردام في رحلة كان ينظمها لضيوفه . فرفضت مع الشكر ، وهرعت خارجاً لأتناول بعض الطعام . وفي طريقي اشتريت بعض الصحف ، فاذا بها كلها ، على وجه التقريب ، تعمر بالاخبار عن الاردن ، والعالم العربي ، واسرائيل ، ومقترحات روجرز ، والعلاقات بين الدول الكبرى . وكان معظمها يتكهن بقرب وقوع حوادث اختطاف الطائرات . وشعرت بالانزعاج بادىء الامر ، لكن الارتياح عاودني حين اشارت الى ان ذلك سيحدث في زوريخ او سواها ، لا في امستردام .

وكنت تحت هاجس مهمتي ، فتمرنت عليها ليلا ونهاراً . وضقت بالانتظار . لكن موعدي مع التاريخ . كان يقترب . والتاريخ بين ايدينا لنكتبه . وكان من نصيب باتريك ارغيلو ان يكتبه بدمه . أما انا ، فلم يكن هذا الشرف من نصيبي .

جرى لقائي الاول مع باتريك ارغيلو في اوائل ايلول (سبتمبر) امام مطار شتوتغارت . فتبادلنا الحديث بايجاز عن مهمتنا المسندة الى كل منا . وفي اليوم التالي طرنا الى فرانكفورت . وهناك ، في المطار ، اخذوا يفتشون المستر دياز (باتريك) بينما كنت اراقب ركاب طائرة TWA المسافرين الى تل ابيب وهم يخضعون للتفتيش الدقيق . وسرني اننا تسببنا للعدو بكل هذا الانزعاج . وقلت في نفسي : « يا للحمقى ! هذه هي الطائرة التي سنختطفها في طريق عودتها من تل ابيب » .

وتوقفنا مرة ثانية في امستردام . وفي ٦ ايلول (سبتمبر) التقيت باتريك امام مكتب شركة طيران العال الاسرائيلية في الساعة العاشرة صباحاً . وانتظرنا نصف ساعة الى ان فتح المكتب ابوابه . لكنه لم يفتحها ذلك اليوم . وفحصنا برنامج الطيران ، فوجدنا انه ما يزال يذكر ان طائرة العال ٢١٩ ستترك امستردام في الساعة الحادية والدقيقة العشرين الى نيويورك . ولم اكن على علم في تلك اللحظة ان اثنين من رفاقنا ، كان الاسرائيليون حالوا بينهم وبين محاولة سابقة ، عمدوا وحدهم الى اختطاف طائرة بان اميركان ٨٤٠ بعد نصف ساعة من اقلاعها . واخذاها الى مطار القاهرة ، حيث نسفاها هناك إعلاناً على استقلال فلسطين . ولم يكن باتريك ولا الرجال الخمسة الآخرون الذين أسندت اليهم عملية اختطاف على علم بأن ثلاث طائرات كانت هدفنا في ذلك اليوم . بل انحصرت معرفة ذلك في ثلاث فدائيات فلسطينيات وبضعة من قادة الجبهة الشعبية .

وانتظرنا في غرفة الاستقبال حتى الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق ، ولم يحضر أحد من موظفي شركة العال .

وفجأة خرج ضابط بوليس اسرائيلي وسألنا : « ماذا تفعلان هنا ؟ » فاجبته : « وصلنا الساعة العاشرة ، ايها الضابط » . فطلب ان

نريه جوازي سفرنا ، فاريناه اياهما . ففحص الضابط كل صفحة منهما بعناية . ونظر الى الصورة والى وجهي مراراً . وراح يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يخاطبنا . وطلب مني ان افتح حقيبتي واخرج كل قطعة منها ، ففعلت . وتصرفت كأنني ، بالفعل ، ماريا سونشيز من هندوراس . وفجأة سمعت صوتاً عالياً وثلاثة رجال من الشرب يتجهون نحونا . فارتجف قلبي . وتعرفت الى واحد منهم . فماذا لو حياني ؟ ينفضح امرنا في الحال . ولحسن الطالع ، كان الضابط يدير ظهره اليهم . والقيت ذراعيّ حول باتريك ورحت اعانقه . ففوجىء قليلا بذلك ، لكن من يصد حسناء في تلك الظروف . وبقيت اعانقه الى ان اجتازنا صديقي العربي . ولم يظهر على الضابط الاسرائيلي اي انزعاج من عناقنا . ودعانا لمرافقته الى الغرفة السفلى لتسليم حقائبنا وتفتيشها . فقلت له ان حقائبنا مفتوحة وبامكانه ان يفتشها ويتسلمها في غيابنا . إلا انه رفض قائلاً ان القوانين تفرض حضور صاحب الحقيبة .

وفيما كان يفتش امتعتنا باهتمام زائد ، التفت الي وقال : « ألم يعطك أحد هدايا ؟ » فاجبت « كلا ! » فقال: «هل معك اي شيء حاد او خطر ؟ » فقلت : « لا ، يا سيدي . ما حاجة فتاة مثلي الى مسدس وسكين وما الى ذلك ! » .

فابتسم وقال : « بامكانكما ان تعودا الى قاعة المسافرين». وفجأة خطر له أن يسألني اذا كنت اتكلم الاسبانية . فاجبته بالاسبانية : « نعم ، يا سيدي ! »

وبينما نحن ندخل القاعة ، رأيت نحو ثلاثين او اربعين فتى ينتظرون ركوب طائرة العال ٢١٩ . فلم يرق لي ذلك واسفت لانني سأواجه مرة أخرى مشكلة تجنب ايقاع الضرر بالاولاد . وكان باتريك يطوف القاعة ، لعل نظره يقع على رفيقينا الآخرين .

وجلسنا ننتظر . ومرت الدقائق كأنها ساعات . ولم تصل الطائرة الاسرائيلية بعد . وفتشوا حقائبنا مرة أخرى واشاروا علينا بالانتظار . وقاربت الساعة الواحدة والنصف ، وكان سيعلن عن اختطاف الطائرات

الثلاث دفعة واحدة في الساعة الثانية عشرة والنصف . وخطر لي ان يكون الاسرائيليون سمعوا بالاختطاف ، فقرروا نقلنا الى شركة الطيران الهولندية (KLM) ، او ان يكونوا القوا القبض على رفيقينا الآخرين وهم الآن يبحثون عنا . وكان في حوزتي قنبلتان يدويتان ، وفي حوزة باتريك قنبلة واحدة ومسدس . فقلت لباتريك ، وهو لم يكن يعرف الا بخطتنا : « الفدائيون لا يستسلمون . علينا ان نتصرف كشمشون : عليّ واعدائي ، يا رب ! ». فوافق على كلامي بحزم . وطلبوا منا ان ننزل الى الطبقة السفلى . وكان الضابط الاسرائيلي واقفاً على الباب يفتش كل مسافر ويتفحص جواز سفره . فقلت له : « تأخرنا يا حضرة الضابط ! » فاجاب : « لا بأس ، يا سيدتي . هذا كله لاجل سلامتكم » . وسرنا الى الطائرة يحيط بنا حرس مسلح . وسرّني ان تسبب المقاومة كل هذا الازعاج للصهيونيين . وشعرت انا وباتريك باننا قهرنا العدو وانجزنا نصف مهمتنا ، بمجرد اننا لعبنا عليه وبرهنا له ان جميع تدابيره لم تكن كافية . وادركت ان حصن العدو ليس مما لا يمكن اختراقه . وحين صعدت الى الطائرة ، خيل الي للمرة الاولى منذ ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ انني في بلدي حيفا . كنت ، بالفعل ، في جب الاسود . ولم أشعر من قبل بهذا القدر من الفخر والاعتزاز لكوني عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

وفتشت مع باتريك على مقعدين خاليين الى ان وجدناهما في الصف الثاني من صفوف الدرجة العادية . وتنفسنا الصعداء حين سألتنا المضيفة اذا كنا مرتاحين . وبدا شيء من الخوف على باتريك ، فيما كانت الطائرة تهم بالاقلاع . كانت الساعة تشير الى الواحدة والنصف . وكان باتريك لا يعرف الا ان اسمي شاديه . وظننت انني اذا كشفت له عن اسمي الحقيقي يتشجع وتشتد عزيمته . فصدق ظني . واستسلمت جارتي للنعاس في الحال . وبدت على المسافرين ملامح التعب . وفي الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين ، لاحظت ان احداً يرقبنا من مؤخر الطائرة . فقلت لباتريك ان يجلس هادئاً . والتفت الى الوراء

وحدقت الى الرجل نحو دقيقة . كان في ثياب مدنية . ولما لاحظ ، هو الآخر ، انني احدق اليه ارتبك وادار نظره عني . وفي تلك اللحظة أعد باتريك قنبلته اليدوية ومسدسه ، ونزعت انا صمام الامان من قنبلتي اليدويتين وهجمت الى الامام عبر القسم المخصص لركاب الدرجة الممتازة ودخلت غرفة القيادة . وصرخنا في من حاول من الركاب ان يقي نفسه : « لا تتحركوا » . وكان ثلاثة من خدم الطائرة امامنا يشهرون بنادقهم . ثم لم ألبث ان رأيت ست بنادق . ولم نفاجأ بذلك ، لاننا توقعنا وقوع معركة . وسقطت احدى المضيفات الى الارض تصيح بي باللغة العربية . وهددت بنسف الطائرة اذا أطلق علينا أحد رصاصة . وشهرت قنبلتي ورميت صمام الامان ، على أمل ان يأخذوا تهديدنا بجد . وحال باتريك بين خدم الطائرة المسلحين وبين اتخاذهم اية خطوة . وقال لي : « اكملي عملك ، وانا احمي ظهرك » . فاجبرت المضيفة على الوقوف والسير امامي . وما ان فتحت غرفة القيادة حتى ترنحت ووقعت الى الامام من شدة الرعب . ولم استطع ان ارى القبطان ومعاونيه ، إذ كان هنالك باب آخر يفصلنا عنهم . وطرقت انا والمضيفة الباب ، لكننا لم نتلق جواباً . وفجأة رأيت احداً ينظر الينا خلال ثقب في الباب . فشهرت قنبلتي وامرته بفتح الباب . وسمعت صوت الرصاص ، واخذت الطائرة في الدوران .

وهجم علي عدد من الناس دفعة واحدة . وظننت ان الطائرة بدأت تتشقف . واستمر اطلاق الرصاص ، ثم وجدت نفسي فجأة بين زمرة من الذئاب ، بعضهم من طاقم الطائرة وبعضهم الآخر من الركاب . وصاح احدهم : : « لا تطلقوا النار عليها . معها قنبلتان ! » فلم يطلقوا الرصاص ، لكنهم اخذوا يرفسونني بارجلهم ويضربونني ، حتى ان بعضهم داسني بالاقدام . وامسك اثنان منهم بيدي في محاولة لانتزاع القنبلتين . ونجح احدهما في انتزاع قنبلة واحدة ، من دون ان تنفجر فيه أو في الطائرة . وقبضت جيداً على القنبلة الثانية الى ان غبت عن الوعي قليلا وانغلبت على امري .

وفي البداية ، لم أكن اعرف ما جرى لباتريك . لكنهم حين جروني الى غرفة الدرجة الممتازة وجدت باتريك منطرحاً على الارض ، والدماء تسيل من جراحه ، وهو يتنفس بصعوبة . وكان الصهيونيون يتصرفون كالكلاب المجنونة ، فلم يتركوا مكاناً في جسدينا الا داسوه باقدامهم . وخارت قوى باتريك ، فعجز عن المقاومة . أما انا ، فبقيت أصارع كالأسد السجين ، الى ان انهكني العياء . واخذ بعضهم يرمي علي كل ثقله ويشدني بشعري دون رحمة . وقذفوني بجميع انواع الشتائم ، وراحوا يضربونني طويلا .

وكانت الطائرة تسير في طريقها بهدوء . وبقي سائر الركاب في مقاعدهم . وفجأة خرج حارس اسرائيلي من غرفة قيادة الطائرة . وكان باتريك مستلقياً على جنبه ، فاداره الحارس على بطنه واخذ يقيده بالاسلاك وبربطة عنق . وسأل احدهم من هذا ، فاجيب : « لا نعلم بعد . اما هي ، فثلاثة ارباع ميتة » . وداس الحارس على حقوي باتريك ، فنظر الي متوجعاً . وكانت يداه مربوطتين وراء ظهره . ثم شهر الحارس مسدسه واطلق منه اربع رصاصات في ظهر باتريك . وصرخ احدهم في مؤخر الطائرة : « ارجوكم ، اوقفوا سفك الدماء! ».

وجاء دوري ، فقيدني الحارس مثلما قيد باتريك ، وتوقعت ان ألتحق بصفوف شهدائنا كما فعل باتريك . لكن الصهيونيين لم يقضوا علي . وانا متأكدة من ان الدافع لم يكن انسانياً ، ولا نزولا عند رغبة الصوت الذي ارتفع في مؤخر الطائرة . وانما كان حاجتهم الي ليعرضوني في حديقة حيواناتهم البشرية في اسرائيل . او لعلهم ارادوا شاهد عيان يشهد بـ « شجاعتهم » ، او سجيناً ينتزعون منه اعترافاته تحت التعذيب .

ولما انتهوا من تقييدي ، أعلن القبطان ان الطائرة ذاهبة الى تل ابيب. غير انني ، بعد دقائق ، شعرت بان الطائرة تهبط وتلامس الارض . وحين ضربت الارض وقعت من مقعدي ووقع الحارس فوقي . لكنه نهض واعادني الى مقعدي وهو يشتمني ويلبطني بلا شفقة . وخرج

الركاب من الطائـــرة . وسمعت صوت سيارة اسعاف . ثم دخـــل ضابطان ولم أكن أعلم اين نحن . ودخل ضابط آخر إلى الغرفة التي كنت فيها وطلب تسليمي . فصاح ضابط اسرائيلي : « هي سجينتنا . اخرج من هنا . هذه الطائرة تخص اسرائيل » . لكن الجنديان الآخران أصرا على تسليمي اليهما . وهنا دخل قبطان الطائرة الاسرائيلي ، نعم القبطان ، فرفعني بكلتا يديه وراح يلبطني على قفاي امام الضابطين البريطانيين . وصرخ الضابطان البريطانيان : « يا للعار ! » ، ودفعا القبطان جانباً . ودخل ضباط بريطانيون آخرون وعرفوا عن انفسهم انهم من « سكوتلند يارد » . فقال لهم القبطان : « لعنة الله عليكم وعلى حكومتكم . هذه سجينتي . اخرجوا من الطائرة » . وحاول الضباط البريطانيون ان يمسكوني ، لكن ثلاثة ضباط اسرائيليين شدوا بساقيّ الى جهتهم ، بينما شدني الضباط البريطانيون بيدي الى الجهة الاخرى . ودام الامر كذلك الى ان تغلب البريطانيون . وحملني ضابط بريطاني ضخم البنية على كتفيه ورمى بي في احضان ضابطين آخرين واقفين خارج الطائرة . وهكذا اصبحت في ايد بريطانية ، فادركت انني سأكون هنا في أمان اكثر مما في تل ابيب .

ووضعني الضباط البريطانيون مع باتريك في سيارة اسعـــاف . ورجوت يائسة ان يشفى باتريك . لكنه بعد دقائق اسلم الروح . وناشدت الضباط البريطانيين ان يحلوا وثاقي ، ففعلوا بعد ان وعدتهم بالتزام جانب الهدوء . ووقفت بجانب باتريك وامسكت يديه وتأملت جراحه . ثم قبلت شفتيه بعاطفة الزمالة والمحبة ، واخذت اشهق بالبكاء بلا خجل . وقلت لباتريك : « انت الآن ، يا باتريك ، في صحبة تشي ، قدوة ومصدر الهام للمعذبين المضطهدين في الارض . سيرفع لك الفلسطينيون نصباً خالداً في قلوبهم وفي وطنهم الحر . وكم اتوق الى ساعة التحرير تحت قيادة امثالك من الذين يبذلون حياتهم بلا مقابل » .

وفي اقل من عشرين دقيقة ، وصلت سيارة الاسعاف الى مستشفى

هيلينغتون . وهناك اعلنوا موت باتريك ارغيلو ، البالغ من العمر ٢٧ عاماً ، والاب لثلاثة اولاد ، والمنتمي الى نيكاراغوا وموطنه العالم ، والمولود في سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة الاميركية .

فماذا حمل هذا الانسان على المجيء من طرف الدنيا للقيام بتلك المهمة ؟ كان باتريك ثائراً شيوعياً ، وسلوكه البطولي هذا بادرة دلت على التضامن الدولي بين الشعوب . وكان شعلة انطفأت بعدما انارت العالم لحظة وتركت معالمها على طريق العودة الى فلسطين . وهو سيبقى وهكذا شعبي ، وهكذا الثورة .

وفي المستشفى ، فحصوني فحصاً عاماً وصوروني بالاشعة . وكان يحيط بي عدد من الناس لا شأن لهم الا قليلا بهذا الفحص الطبي . واعلن الطبيب ان لا شيء يمنع خروجي من المستشفى . لكن أحداً من الحاضرين لم يكن في وسعه ان يتصور العياء الذي كنت فيه والالم الذي أحسسته . وسألتني امرأة لم يبد عليها انها ممرضة عن اسمي ، فاجبتها انني فدائية ، من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . فصاح صوت بين الحضور : « هذا ليس اسماً ! » فاجبت : « هذا هو اسمي . ولا اريد ان اقول اكثر من ذلك » . وبينما هم يحاولون انتزاع بعض الاعترافات مني ، لاح لي وجه صحافي لم استطع ان اتذكر اين رأيته . وقال : « هذه ليلى ! » فاجابه ضابط : « اي ليلى ؟ » فقال الصحافي : « ليلى خالد ، تلك التي اختطفت طائرة TWA في العام الماضي ! » وسألني الضابط عن صحة هذا الكلام ، فابتسمت ولم أجب بشيء .

واقتادوني الى مركز الشرطة ، حيث بت الليلة . وحاول رجال الشرطة استجوابي ، لكني رفضت الاجابة الا بجملة واحدة : « انا فدائية من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » . ثم اشترطت عليهم انهم اذا اعترفوا بي كفدائية وكأسيرة حرب ، فانني ارد على اسئلتهم . وفي هذه الاثناء دخل أحد الموظفين يحمل اوراقاً خلاصة ما جاء فيها ان قوانين الدخول الى بريطانيا تمنع منحي حق الدخول . فقلت له : « عال . اخلو سبيلي ، اذن! ». وحين طلب مني التوقيع بامضائي على

بعض الاوراق ، رفضت وأمرته بالخروج .

وقضيت الليلتين الاولى والثانية تحت وطأة كابوس ثقيل . وكنت قلقة عما يجري في الاردن ، وعما جرى لحظة اختطاف الطائرتين الاخريين . وحز في نفسي فشلي في اختطاف طائرة العال ٢١٩ ، وفقدان الرفيق باتريك . ولم يغب ذلك عن بالي لحظة . ولم اتحدث الى أحد الا قليلا ، فشعرت بالوحدة والتعب . وكنت غالباً ما اسأل عن الوقت لأبدد شعوري هذا بالوحدة والعزلة . وقالت لي ممرضتي : « لماذا فعلت هذا ؟ انه عمل فظيع ! » فلم اجبها . لكنها كانت لطيفة معي . وساعدتني حين نقلت الى مركز الشرطة في ايلنغ بأن القت على وجهي غطاء وتمنت لي التوفيق .

نقلت الى مركز الشرطة في ايلنغ يوم ٧ ايلول (سبتمبر) . وهناك وضعت في زنزانة وحدي . ووقفت سيدتان على حراستي . وبدا عليهما الاستياء مني في بادىء الامر . وتبادلنا بعض الكلمات . ورفضت ان ان اتناول الطعام ، بل اكتفيت بالتدخين وشرب القهوة . وطلبت ان يسمح لي بمطالعة الصحف ، فقيل لي لا يجوز الا مطالعة المجلات النسائية . فرفضت شاكرة . وفي اليوم التالي جاء لاستجوابي المفتشون فريو ، وبروس ، وليدلو . فقلت لهم : « اتكلم اذا اعتبرتموني فدائية». فوافقوا على ان اقول الحقيقة .

وسألوني عن اسمي ، وحين اجبتهم انه ليلى خالد ، كذبوني وزعموا انه اسم مستعار . فاصررت على انه اسمي الحقيقي ، وان اسمي المستعار هو شاديه ابو غزاله ... وقاطعني المفتش فريو وطلب مني ان ادلي باجوبة محددة . ثم أراني مسدساً وسألني ان اتعرف اليه . فقلت انه احد المسدسات الاسرائيلية التي اشهرت في وجهي . واراني مسدساً آخر عرفت فيما بعد انه كان مسدس باتريك ، لكني كنت اجهل ذلك لأني لم اكن رأيته من قبل . ولما قلت له انني لا اعرف شيئاً عن

هذا المسدس ، لم يصدقني . وسألني من اين حصلت على القنابل اليدوية ، فاجبت من الجبهة الشعبية . واراد ان يعرف من اعطاني جواز سفري ، فقلت له الجبهة الشعبية . ولما سألني الى اين كنت سأختطف الطائرة ، اجبته الى مكان ما . وأصر على أن يعرف المكان ، فرفضت ان ابوح به . وقال : « من هو عبد الرحيم جابر؟ ». فانتعشت وعزمت على القاء كلمتي الاولى ، وعلى ان ارفض الرد على اسئلتهم اذا قاطعوني . وشعروا بعزمي هذا ، فالتزموا جانب الصمت .

فقلت : « عبد الرحيم جابر بطل فلسطيني في سجون اسرائيل . وهو احد قادتنا الفدائيين الذين زرعوا الرعب في قلوب العدو . وقبل ان يعتقله العدو في ٢١ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٨ ، قاتل بشجاعة حتى نفدت ذخيرته ، وصدّ الاعداء الى ان تمكن معظم رفاقه من الاختفاء عن ابصار طائرة الهليكوبتر الاميركية الصنع . وكان يعيش بين فلاحي فلسطين ، فنظمهم ودربهم ونشر بينهم الافكار الثورية . وأشجع عمل قام به هو تحديه للواء شريف ناصر ، عم الملك الحسين . وذلك حين كان اللواء ناصر يخطب في كتيبة اردنية قبل ارسالها الى حرب اليمن لاعادة الامام الرجعي السابق . فما كان من عبد الرحيم جابر الا ان وقف امام اللواء ناصر وقال له : « عوض ان ترسلونا الى اليمن لمحاربة جنود الجمهورية العربية المتحدة واحرار اليمن ، لماذا لا ترسلونا الى تل ابيب لمحاربة اعداء فلسطين؟ ». فطردوه من الجيش ، لكنه حافظ على كرامته . وفي وسعي ان اخبركم بالكثير مما قام به في الارض المحتلة ، لكني أود ان تعلموا شيئاً واحداً : بقي عبد الرحيم جابر في الانفراد طول اربعة اشهر ، دون ان يتمكن العدو من قهر ارادته رغم التعذيب الجسدي والنفسي الذي نزل به . واؤكد لكم انني من المعدن ذاته . لذلك سميت فرقتي الفدائية باسمه » .

واصغى المفتشون البريطانيون بوجوه جامدة كالحجر . ولما انتهيت ، استأنف فريو اسئلته فقال : « هل هذه المذكرة بخط يدك ، يا آنسة خالد ؟ ورد فيها اسم شاديه ورفاقها ، فمن هم رفاقها ، اي

رفاقك؟ » . ففكرت لحظة واجبته : « من الممكن ان آخرين كانوا على متن الطائرة ولا اعرفهم . فهل وجدتم احداً ؟ » قلت هذا ببراءة ، فاجابني فريو : « انا . يا آنسة ، رجل شاب رأسه ...». فقاطعته بقولي : « هذا ليس بسببي ، هذا لأن لك امرأة نقاقة ! » فابتسم فريو وقال : « اظن انك فتاة ذكية ! » فاجبته انني أرفض مديحه . ثم حاولت جهدي عبثاً ان ابدو غير راضية ومستاءة ، فقلت للثلاثة اني ارفض كل عطف منهم ، ما داموا كالخنازير الفاشيست يحتجزون حريتي في سجونهم .

وقال فريو : « اعجب كيف تحاول امرأة فلسطينية عربية ان تنسف طائرة عليها مسافرون فلسطينيون ! ». وهنا جرى حوار قلت له فيه انه يحكم علي بارتكاب جريمة لم ترتكب ولم يبت بها القضاء البريطاني . وافهمته انني لو اردت نسف الطائرة لنسفتها ، لكني إنما أُمرت باختطافها . واذا قال لك الصهيونيون خلاف ذلك ، فهم قوم من الكذبة المنافقين .

ثم سألني فريو اين صعدت الى الطائرة ، فقلت له في مطار امستردام . وسألني كم طائرة اخرى نوينا اختطافها ، فاجبته ولا طائرة . فقال : « وقعت حادثتا اختطاف ! » فسررت للخبر . وتابع فريو كلامه فقال : « يطالب الاسرائيليون بتسليمك اليهم . فاذا اجبناهم الى طلبهم ، فقد ينزلون بك انواع التعذيب » . فاظهرت له سروري لأنه يعرف عن غرف التعذيب الاسرائيلية ، وجلسات غسل الادمغة ، والتشويه الجسدي . وقلت له اذا اتيح لهم ان يعذبوني ، فلن اكون سوى واحدة اخرى من آلاف الفلسطينيين الذين عذبوهم . وبعد ان طلبت سيكارة وشربة ماء ، قلت لهم انني لم اقترف اي جرم ضد البريطانيين ، ولا ارى لماذا هم يحتجزونني . فاجابوا انهم هم ايضاً يجهلون لماذا . وسألتهم اذا كان احداً من الاسرائيليين الذين كانوا على متن الطائرة جرى اعتقالهم ، فاجابوا ولا واحد . فانفجرت في وجوههم صائحة : « الا تعلمون انهم قتلوا رفيقي عن عمد وتصميم؟ ».

فقالوا : « رفيقك سقط قتيلا في معركة ، وتقرر ان ذلك « قتل شرعي » . فثارت ثائرتي ورحت اتهم القضاء البريطاني بالتحيز والتواطؤ مع الاسرائيليين والخضوع لاوامرهم واوامر واشنطون .

وغادرني المفتشون الثلاثة وسط هذه التهم التي اطلقتها الى القضاء البريطاني . وأرجعت الى زنزانتي . وشعرت بصداع تلك الليلة ، وكان الحراس يراقبونني بعناية .

وفي ٩ ايلول (سبتمبر) زارني المستر فريو مرة ثانية . اين أريد ان اذهب اذا أخلوا سبيلي . فاجبته الى وطني فلسطين ، وطلبت اخلاء سبيلي في الحال ، لئلا يقع ما لا تحمد عاقبته . وفي ذلك اليوم بالذات اختطفت طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية ، فعلمت ان اخلاء سبيلي أوشك ان يتم . وعاد المستر فريو الى زيارتي في المساء وقال : « انت على علم بما يجري » ، فاجبته : « الجبهة الشعبية تعرف ماذا تعمل ، ولا حاجة بي الى انتظار توصية بالرحمة من القضاء البريطاني » .

وفي ١٠ ايلول ، بينما كنت تحت وطأة ذكرياتي عن باتريك ، وردني خبر بأن الجبهة الشعبية طالبت باخلاء سبيلي لقاء ركاب الطائرة البريطانية المختطفة . وجاءني المستر فريو يسألني عن جواز سفر باتريك ويقول : « من هو صديقك ، يا ليلى ؟». فلم اجبه ، بل طلبت منه قلماً وورقة ، فاعطاني اياهما . وبعد ان اغلق الباب وراءه ، كتبت أول رسائلي إلى باتريك :

« اليوم هو الرابع منذ قمنا برحلتنا التي لن تنسى . روحك تملؤني املاً بان القضية التي اعتنقناها قضية عادلة وشريفة . بذلت حياتك في سبيل شعب لا تعرفه ، شعب تفصل القارات بينه وبين وطنك ولم ير حتى صورة وجهك . ومع انني لا اعرفك ، الا انني اعرفك اكثر من اي رجل لقيته في حياتي او اي بطل قرأت عنه او حلمت به . وكم تشوقت دائماً الى لقاء الذين يحبون الآخرين اكثر مما يحبون انفسهم ، وكم اعجبت دائماً بالرجال الذين يفدون حياتهم من اجل الحرية ، والذين يمشون عراة في عين الشمس لا يهابون اشعتها المحرقة ويقولون :

لا في وجه اعداء النور ، والحياة ، والتقدم . وانت بموتك فداء عن فلسطين اصبحت الرمز الذي يخفف نير عبوديتنا ، كما اصبحت العبء السعيد التي يدفعنا الى الامام للقضاء على تلك العبودية . وانت بانضمامك الى صفوفنا للكفاح في سبيل كرامتنا وكياننا كشعب . كنت لنا قدوة في التضامن والاخوة بين البشر ، كما أحكمت روابط العطف والمودة بين شعبي اميركا اللاتينية وفلسطين . كتبت صفحة لا تمحى في التاريخ ، حين سفكت دمك فدية عن الآخرين ، وجمعت القارات ، بعضها الى بعض ، بروحك الشاملة التي لا تحد ، وسموت الى ملأ آلهة الاولومب بما اديته من واجب يبعث على الحياة . ولأنت من صفوة شهداء الحرية الذين خلدهم التاريخ — انت يا باتريك ارغيلو شهيد حرية فلسطين . انت لم تمت ، انت حي . وستبقى حياً بين الذين سقطوا فداء عن فلسطين . واسلم للثورة ،

ليلى »

وبدأ يوم ١١ ايلول (سبتمبر) بزيارة من قنصل هندوراس يرافقه المستر فريو : فسألني : « كيف حصلت على جواز سفر هندوراسي ؟ ». فأجبته باستياء: « هل جعلت منك الجبهة الشعبية سفيراً مزيفاً لجمهورية الموز وبعثت بك الى هنا ؟ » فاستشاط سعادته غضباً ، وغادرني كجنرال منهزم . وهال المستر فريو سلوكي هذا ، لكنه لم يفاجأ بردة فعلي . واراد ان يعرف فيما اذا كانت الجبهة الشعبية ستنسف الطائرة بمن فيها من الركاب ، كما روت الصحف البريطانية « اللامتحيزة » ذلك اليوم . ولما قلت له ان الجبهة ستنسفها ، صاح : « أما عندكم ضمير انساني ؟ » فقلت له : « ألا تخجلون من الكلام عن الضمير الانساني في الغرب ؟ لو كان عندكم شيء من الكرامة ، كنتم تمحون هذه الكلمة من قاموسكم » . وبدأت احاضره في الصهيونية والامبريالية وكيف سمم الانكليز العالم العربي .

لم افاجأ حين علمت ان السلطات الاردنية تتأهب للقيام بمذبحة رهيبة في الاردن . وفي ضوء ما كانت تنشره الصحف البريطانية ، بدا لي ان الاحداث الجارية لم تكن سوى تكملة سياسة الارهاب والتخويف والضغط التي دشنتها السلطات الاردنية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨ . ومع ان القتال اتسع حتى شمل البلاد كلها ، الا انه لم يكن واضحاً كل الوضوح انه كان المحاولة الاخيرة التي قامت بها الملكية لتصفية المقاومة .

وزعم الكثيرون ، دون ما دليل ، على ان الجبهة الشعبية هي التي استفزت السلطات الاردنية على ذبح المقاومة في ايلول ١٩٧٠ ، بحوادث الاختطاف التي قامت بها الجبهة . وما هذا الزعم الا تفسير سطحي ومرفوض للخطة التي وضعتها السلطات الاردنية عن سابق تصور وتصميم لتصفية المقاومة الفلسطينية . ذلك ان مذبحة ايلول وما تلاها من اعمال القمع والارهاب ، فيما الدول العربية ترغي وتزبد ، يجب ان تقنع اي انسان بأن ملوك العرب وحكامهم العسكريين ينظرون الى المقاومة الفلسطينية على انها خطر يتهدد انظمتهم ويوقع المنطقة كلها في حرب اهلية بين الطبقة العاملة وبين قوى الظلم والطغيان . واتضح في تلك الاشهر الخطيرة ان الحسين كان يفضل دعوة اسرائيل الى احتلال الاردن على ان تطيح به المقاومة . وكانت اميركا مستعدة للتدخل في سبيل ابقاء الحسين على عرشه . وهكذا كانت ادوار المأساة موزعة بين طبقة من الهاشميين المتعطشين للسلطة والحكم ، ودول عربية لم تحرك ساكناً ، ومتآمرين صهيونيين واميركيين بزعامة غولدا مائير ونيكسون في واشنطون .

وفي ١٧ ايلول (سبتمبر) حثني حراس السجن البريطانيون ، بأمر من رؤسائهم او بمبادرة شخصية منهم ، على ان اطلب اللجوء السياسي . كان هذا ، في نظري ، صيغة من صيغ التنازل . لذلك قابلته بالرفض

الحاسم . بل انني طلبت اخلاء سبيلي حتى يتسنى لي الانضمام الى رفاقي في الاردن . وتمهل البريطانيون في اتخاذ اي موقف ، وراحوا يفاوضون تحت ضغط الاميركيين والصهيونيين . وليس من شك عندي ان الالمان والسويسريين والبريطانيين كانوا قبلوا باستبدال الرهائن بالاسرى الذين في سجونهم لولا تدخل الاميركيين والصهيونيين ، متذرعين جميعاً بضرورة احترام القانون الدولي وما يفرضه من حسن السلوك ، فضلا عن الدفاع عن « المسافرين الابرياء » . والحقيقة هي ان مصالح نيكسون وغولدا مائير كانت فوق مصالح بريطانيا والمانيا وسويسرا « الحيادية » .

وازعجتني الاضطرابات في الاردن كثيراً . وحاولت ان اهدىء اعصابي واتصرف كما لو انني في حالة اعتيادية . ولاقيت في ذلك صعوبة كبرى . وكان المستر فريو يزورني يومياً ، فأبدى تعجبه كيف يحارب المسلمون بعضهم بعضاً عوضاً عن محاربة العدو . فشرحت له طبيعة المجتمع الطبقي وكيف ان ملك الاردن ، وهو صيغة البريطانيين ، من معسكر العدو . واصغى الي فريو باهتمام ، الا انه ، اسوة بامثاله الغربيين ، عجز عن فهم فكرة المجتمع الطبقي ودوره التاريخي . بل اكتفى باتهامي بانني ناقمة وحاقدة . فقلت له انني اكثر من ناقمة وحاقدة . ذلك ان قلبي يطفح بالكره الطبقي ويتطلع الى اليوم الذي تزول فيه الملكية الاردنية وحاشيتها جميعاً . ووصف لي فريو علاجاً لوعيي الطبقي هذا قضاء اسبوع في بريطانيا « الديموقراطية » بعد اخلاء سبيلي . أما الآن ، فتمنى لي ان اعود الى الاردن قبل ان يخسر زوجته ! فاجبته : « قل لزوجتك ان لا تقلق . فلا رغبة لي ان اتزوج بوليساً بريطانياً . واذا كان لي ان اتزوج ، فسأتزوج بثائر عربي مثلي او بفلاح بسيط » .

واخذت اتتبع اخبار الاردن في الصحف البريطانية . ولما سمعت بنبأ « التدخل السوري » وقرأت التعليق عليه ، استنتجت ان الغزو الصهيوني الاميركي يجول في الاذهان . ولما روت الانباء عن ان الاردنيين « الشجعان » قهروا « الفيلق السوري » واجبروه على الانسحاب ،

ادركت ان النظام الاردني لم يكن على شفير الهاوية . وعندما رأيت صورة الحسين وعرفات يتصافحان امام ملوك العرب ورؤسائهم ، عرفت ان الثورة وقعت ضحية الخيانة . فشعرت في تلك اللحظة بشوق شديد الى ان ارمي بالرصاص كل واحد من الذين حضروا ذلك المؤتمر . ولم استطع ان اكبح جماح غيظي ، اذ رأيت الكتابة على الجدار : ماتت المقاومة كقوة تصنع التاريخ . فترحمت على ارواح الشهداء في الاردن وبكيت لدمائهم التي كانت عرضة للمقايضة في فندق هيلتون بالقاهرة ، وقصر القبة ، ومقر الجامعة العربية . ولم استطع ان اسامح جامعة الدول العربية على ما جرى لباتريك الذي ما زال جثمانه في مستودع الجثث البريطاني ، بينما يتم توقيع « الصلح » على حساب الثورة . وادركت ان المناضلين سيخرجون على القيادة ويؤلفون يوماً ما حزبهم الثوري الطليعي . كان هذا ، في اعتقادي ، لا بد من ان يتم . على ان عرفات وشركاه ظلوا ، في الاشهر التي تلت ، يرفضون ان يفهموا ان الثورة الفلسطينية العربية تتناقض ، اساسياً ، مع الانظمة الاجتماعية العربية المنهارة . فمع ان الحسين سحق المقاومة في الاردن وطرد الفدائيين في تموز (يوليو) ١٩٧١ ، الا ان « قادة المقاومة » ، باستثناء الجبهة الشعبية وبعض المستقلين ، قبلوا الوساطة السعودية — المصرية واظهروا استعدادهم لمفاوضة الاردن واحتضان الحسين وحسن .

وقبل ذلك ، اي في ٢٨ ايلول (سبتمبر) تناقلت الانباء ان الرئيس عبد الناصر على سرير الموت . فلم اصدق ، ولم استطع ان اسبر غور ما تنطوي عليه وفاته . كنت ما ازال مهتاجة من المصالحة التي تمت بين الحسين وعرفات لكي يتاح لي ان افكر بوضوح . وفي مساء ذلك اليوم ، ورد خبر وفاة عبد الناصر ، فطار صوابي وشعرت بشلل عاطفي ، كشعوري به حين مات تشي غيفارا وهوشي منيه . لكنه كان هذه المرة اكثر حدة . ذلك انني عربية ، وكنت ككل عربي من المعجبين بعبد الناصر ، في هذا الوقت او ذاك . كان من اعظم زعماء العرب في العصر الحديث . وكعملاق بين اقزام ، كان يمثل كل ما هو

نبيل ، وعظيم ، وضعيف بين العرب . كان واحداً منا ، وكان سيداً بين الرجال . وأحسست ان شيئاً مني يموت بموته . وداخلني سرور بأني عشت في زمن عبد الناصر . وانا لن اكون اكثر سروراً الا بالعيش في فلسطين الحرة .

ورأى المستر فريو ومن حوله كم كان حزني شديداً . وصعب ان يفهموا لماذا يحزن انسان هذا الحزن الشديد على موت رجل نددت به في اليوم السابق . ذلك انه فاتهم ان عبد الناصر كان اول من حمل اللواء ضد الامبريالية في عالمي .

وفي ٢٩ ايلول لمح لي فريو ان اطلاق سراحي بات قريباً . فقرأت بين السطور في الصحف ، لعلني أجد هناك ما يدلني على موعد تسليم الرهائن للجنة الصليب الاحمر الدولية . فاذا به في ٣٠ ايلول ١٩٧٠ . وما ان وصل الرهائن الى قبرص ، حتى جاءني خبر بضرورة الاستعداد للرحيل . ولم يكن ما يشير الى المكان الذي سأقصد اليه . فودعت اصدقائي البريطانيين ووعدتهم بارسال العديد من الزبائن الى « فندق » ايلينغ ، حيث يكون في خدمتهم خير الحرس ، وحيث الاقامة مجانية ! وفي السادسة والنصف ، جاء المستر فريو وسألني الى اي بلد اريد ان اذهب ، فاجبته : « قادتي اتخذوا القرار . فاين ستأخذوني » . فسكت فريو ، ولم يعطني ، لا هو ولا سواه ، جواباً على سؤالي في الساعات القليلة المقبلة . وقيل لي انني ما دمت جندياً ، فانهم يتوقعون مني ان اتقيد بالقوانين في اثناء خروجي من بريطانيا . وهذا ما فعلته . وقالت لي حارسات السجن ان الناس اصطفوا في الشوارع لمشاهدتي ، لكن أملهم سيخيب لانني سأخرج من السجن في سيارة مغلقة . وتعجبت لماذا رافقني ذلك العدد من سيارات الشرطة والدراجات النارية . وسمح لي ان القي نظرة سريعة على الجمهور المحتشد حول السجن ، قبل السير بي الى مطار حربي . وفيما أنا اصعد الهليكبتر أومأت بعلامة النصر للمصورين . ثم ودعت المستر فريو ووعدته بزيارة ايلينغ مرة اخرى . فصاح : « لا . تعالي الى بريطانيا ، لا الى ايليغ » . وبعد ساعة من

الطيران في الهليكبتر ، هبطنا في مطار آخر مجهول . وهناك صعدنا الى طائرة كوميت الى مكان لم يعلن عنه. وفي الطريق سمعت من أحد افراد طاقم الطائرة ان امرأة اخرى ستصعد الطائرة . وفي الحال خطرت لي امينه دحبور التي اعتقلها السويسريون في زوريخ . وفجأة هبطنا في ميونيخ . وكان المطار اشبه بثكنة عسكرية . وأمروني باحتلال آخر مقعد على متن الطائرة . ثم اصعدوا ثلاثة اخوة من رجـــال المقاومة هم مفيد عبد الرحمن ، وهنبي ، ونشأت . ولم أكن اعرف احداً منهم ، كما انه لم يسمح لنا بالمصافحة . وكانت زوريخ هي المحطة التالية ، فصعدت منها امينه دحبور والاخوان ابراهيم توفيق ومحمد ابو الهيجا . واردت ، على الاقل ، ان اعانق امينه ، فلم يسمح لي . فاكتفينا بتبادل التحية عن بعد . وكان لكل من المسافرين حارسه الخاص به . ولم يكن أحد منهم مكبل اليدين . وكان ليل ٣٠ ايلول (سبتمبر) ليلا طويلا . وبدت لي الرحلة الى القاهرة اطول رحلة قمت بها في حياتي . وغالباً ما استسلمت الى النوم ، لأنه لم يؤذن لنا بمغادرة مقاعدنا .

ووصلنا الى القاهرة في اول اكتوبر ١٩٧٠ ، عند الساعة الثامنة صباحاً . وكانت المدينة في حداد على الرئيس عبد الناصر . واستقبلنا قناصل بريطانيا والمانيا وسويسرا في المطار . واخذ كل واحد منهم سجناءه وسلمهم للسلطات المصرية . وفوجئت بان جثمان باتريك لم يكن معنا على الطائرة . وسار بنا رجال الامن المصريون الى « نزل » مصري وابقونا هناك أحد عشر يوماً . وقيل لنا اننا محتجزون هناك لاسباب تتعلق بالامن .

وفي ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) وضعونا في طائرة اتجهت بنا الى دمشق ، وهناك التحق كل منا بفصيلته . وقبل العودة الى بيروت ، زرت صديقي العقيد علي ظاظا ، وهو الرجل الذي اتهمني بالعمل مع المخابرات المصرية عندما اختطفت طائرة TWA .

وحين دخلت الى مكتبه ، قلت له : « الآن ، يا سيادة العقيد ، لا بد انك اقتنعت بان الجبهة الشعبية ، وانا منها ، ليست اداة في يد

احد » . فاجاب : « نعم ، اقتنعت ! ». ودعاني الى تناول طعام الغداء على مائدته ، فاعتذرت له وودعته وانا اقول : « عسى نلتقي على ارض المعركة في فلسطين » .

ولما وصلت بيروت بعد قليل عقدت مؤتمراً صحافياً في جريدة الهدف اشرت فيه الى ان باتريك قتله الاسرائيليون ، وان البريطانيين برروا هذه الجريمة التي ارتكبت في فضائهم الجوي . والى هذا التاريخ (خريف ١٩٧١) رفض البريطانيون عرض « البراهين الثبوتية » التي استندوا اليها في قرارهم على هيئة تفتيش خاصة . وما يزال التقرير الطبي عن اسباب الوفاة سرياً .

وفي الاسابيع القليلة التالية ، قضيت معظم الوقت في المقابلات الصحفية ، وفي الاستعداد للزواج من باسم ، أحد الثوار العراقيين . وعقدنا زواجنا في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ ، فقضينا اسبوعاً واحداً معاً ، ثم عاد كل منا الى اداء واجبه .

القسم الثالث

الخاتمة

٨ – المدّ الفاشستي والثورة العربية

« عليّ أسد . وعلى الاعداء نعامة . والجنود الاردنيون اسود على اللاجئين الفلسطينيين العزّل . لكنهم حين آن الاوان لم يعرفوا كيف يموتون دفاعاً عن القدس » .

– الرئيس هواري بومدين –

أسمى ما تهدف اليه حركة المقاومة الفلسطينية هو تحرير فلسطين تحريراً كاملاً . والقضاء على الدولة الصهيونية . وانشاء مجتمع اشتراكي يعيش فيه العرب واليهود معاً في سلام وانسجام . ولبلوغ هذا الهدف ، اعتمدنا استراتيجية الحرب الشعبية والكفاح المسلّح على المدى الطويل . وليس لنا بديل عن ذلك . ولا وسيلة اخرى لاقتلاع الصهيونيين من فلسطين . وسيكون كفاحنا طويلاً وشاقاً ، لان العدو قوي . ومنظم ، ومدعوم من الخارج . لكننا سنتغلّب عليه . لاننا نمثّل موجة الغد ، ولاننا الاغلبية الساحقة من المضطهدين . ولأن الانسانية الى جانبنا ، وفوق ذلك لاننا مصممون على النصر .

أما هدف الدول العربية . فهو « ازالة آثار العدوان » أو « اعادة الامور الى نصابها » لا تحرير فلسطين بكاملها . وتزعم الدول العربية ان بامكانها حمل اسرائيل على الانسحاب الى حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ بالوسائل الشرعية التي تجمع بين الديبلوماسية والحرب التقليدية ، لا بالكفاح المسلّح والعقيدة الثورية . وهي تشدّد على « الحل السياسي » وتقبل وساطة الامم المتحدة والدول الكبرى كأمر واقع . وهي تحاول اقناع اصدقائها الاميركان والسوفيات بالضغط على اسرائيل للانسحاب . وهي ايضاً تقوم ، بين حين وآخر ، باعمال عسكرية مرتجلة لتبرهن

عن عزمها على استعادة الاراضي المحتلة . وما تزال اسرائيل تسيطر على كل شبر من الارض التي احتلتها في ١٩٦٧ ، ومن المحتمل ان تبقى كذلك ، ما لم يحدث تغيير جذري في السياسة العربية والاميركية . ولتدعيم الجبهة الداخلية ، عمدت الدول العربية الى تقوية اجهزة مخابراتها . ويتكاتف « التقدميون » و« المحافظون » على وضع حدّ للمدّ الثوري في الداخل .

أما هدف اميركا ، فهو « الاستقرار في المنطقة » تحت ظل سيطرتها . وفي هذا العصر الذي اتخذ فيه الاستعمار شكلاً جديداً ، جعلت اميركا لنفسها من اسرائيل قوة بوليسية ضاربة ، كما جعلت من الرجعيين العرب والزمرة العسكرية الحاكمة حرساً خاصاً بها . واذا وجدت اميركا ان حساباتها اخطأت هنا او هناك ، فانها لا تعدم وسيلة للتدخل المباشر في سبيل حماية « مواطنيها ومصالحها » أو لمساعدة حاكم محلي لدرء « خطر الشيوعية » . فاميركا ثابتة الاركان في عالم الذهب الاسود ، وليس لها اية نية في تضحية البلايين التي تصب في خزائنها . بل انها مستعدة للمجازفة بحرب نووية لتبقينا « احراراً » و« ديمقراطيين » . وهي لا تحبّ البؤساء في العالم العربي ، ولا تحفل بكل يهودي منسي في انحاء العالم . فاميركا يهمها اميركا . واميركا هي وول ستريت ، والبنتاغون ، وعملاؤها وصنائعها في الادارات الحكومية ، وجحافل القسس والرهبان والصحافيين والاساتذة ، اولئك الذين تغص بهم الكنائس ، ووسائل الاعلام ، والجامعات .

وأما هدف الاتحاد السوفياتي ، فهو إضعاف نفوذ اميركا تمهيداً لطردها من الشرق الاوسط . وهو ، كداعية للتعايش السلمي ، والانتقال المسالم الى الاشتراكية ، والسير على الطريق اللارأسمالي نحو الانشاء والتعمير ، يدعم « الانظمة العربية القومية » في صراعها ضد الامبريالية ويزودها بالقروض لتمويل المشاريع الصناعية وبالسلاح لمحاربة الغزاة الاسرائيليين . ثم ان الاتحاد السوفياتي ، كمؤيّد لـ« الحلّ السلمي » ، يعترف بشرعية وجود اسرائيل ويحترم سيادتها وسلامة اراضيها ويطالب

بتنفيذ قرارات الامم المتحدة بلا « تحيّز » . وهكذا . فالاتحاد السوفياتي هو حامل لواء « السلام والتعايش » ، لا الحرب الشعبية والعنف الثوري . وهو مع الانظمة العربية « التقدمية » يعمل على « تدجين » ، لا تصفية ، المقاومة والثورة العربية . في حين ان اميركا ، واسرائيل ، والرجعيّة العربية تعمل معاً في سبيل تصفية المقاومة والقضاء على الثورة العربية .

واما اسرائيل ، فغايتها القصوى إحلال سلام قائم على رؤوس الحراب ، اي سلام الغالب المفروض فرضاً . سلام الصهيونية الاميركية والاوروبية الغربية . وبكلمة اخرى ، فان سلام اميركا واسرائيل والصهيونية هو سلام ينهض على انقاض الشعب الفلسطيني . وعلى رقاب الدول العربية المجاورة ، وعلى استمرار السيادة الصهيونية في الشرق الاوسط . وحيث ان اسرائيل لا تستطيع ان تعتمد الى الابد على اريحية يهود العالم . واموال بنك الاستيراد والتصدير الاميركي ، أو على الامل بنوع جديد من التعويضات الالمانية ، فهي في حاجة الى ضمانات جديدة للوصول الى مرحلة الاكتفاء الاقتصادي ، والى استمرار تدفق المهاجرين والدولارات . والى « سلام مع التوتر » للفوز بمعونة الصديق والحليف واهتمامهما . واذن ، فاسرائيل تؤثر بقاء الحال الحاضرة . وهي حال تضمن لها السيادة التي لا ينازعها فيها أحد ، في غياب سلام يطول بقاؤه ويتم « التعاقد » عليه . هذا مع العلم ان اسرائيل مستعدة لتوقيع « معاهدة صلح » والتنازل عن امكان التوسع الجغرافي في المستقبل ، بل حتى الانسحاب الى حدود ما قبل الرابع من حزيران ، باستثناء القدس ، وذلك بشرطين : (١) الدخول الى الاسواق العربية ، و(٢) امتلاك موارد النفط والمعادن في خليج قناة السويس . وليس دون هذين الشرطين ما يغري اسرائيل بالانسحاب أو بالتنازل تنازلاً يستحق الذكر ، الا اذا انهزمت في الحرب أو وقع عليها ضغط حاسم من اميركا . وهاتان الامكانيتان غير واردتين ، لان الجيوش العربية عاجزة عن شنّ الحرب المطلوبة . وحتى لو كانت قادرة على شن مثل هذه الحرب الرابحة ، فان الاتحاد السوفياتي واميركا لن يسمحا لها بذلك .

وثانياً ، لان اميركا لم تضغط الضغط الكافي على اسرائيل للانسحاب ، بل انها وافقت ضمناً على الاحتلال الاقليمي الذي حققته الصهيونية ، وذلك بتزويدها المستمر بطائرات الفانتوم والسكايهوك وبالسماح لملايين الدولارات المعفاة من الضرائب بالتدفق على اسرائيل . وهكذا ، فحال « اللاحرب واللاسلم » ستستمر في المستقبل المنظور ، مهما كانت عليه الاتفاقات المؤقتة التي قد يتم التوصّل الى عقدها في رعاية الامم المتحدة او الدول الكبرى .

وبرغم الخلاف الظاهر بين اميركا والاتحاد السوفياتي والدول العربية واسرائيل ، فان التقاء مصالحها جميعاً في ربيع وصيف ١٩٧٠ مكّنها من الائتلاف علانية او في الخفاء . فتوصلوا الى اتفاق ضمني تجلى في مقترحات روجرز . وهي مقترحات تضمنت القبول بهدنة بين اسرائيل والدول العربية ، وبقرارات الامم المتحدة الخاصة بـ« السلام والامن » في الشرق الاوسط . واتضح كل الاتضاح ، في ايلـــول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، المغزى التام لهذا كله ، حين عمد الملك حسين الى تصفيـــة المقاومة في جنوب الاردن كنصيبه من التمهيد للعمل بمقترحات روجرز . ففي اواسط آب (اغسطس) كان هدف الحسين مدينة اربد ، وهي في شمال الاردن ، فتلقى « اللاجئون » ورجال المقاومة هناك ضربات قاسية هلك فيها الناس وتشوهت الاجساد . وانتشرت الانباء عن قرب وقوع مجازر حاسمة . وبدا مصير المقاومة على كفّ عفريت ، لا ينقذها الا اخذ المبادرة وحسم الموقف . واستمرت الاشتباكات في عمان وجرش والزرقا واربد . وكان الحسين يطارد المقاومة بحزم ويمتحن يوميـــاً ارادتها على القتال . وكانت المقاومة منشغلة بتفوقها وشعورها بالغلبة . واعربت عن ذلك بتصريحات جريئة رنانة ، لكنها لم تحسب للامور حسابها . وقلّ من توقّع صدور تلك الوحشيّة والهمجية من الحسين وشركاه . بل ان قادة المقاومة اعتقدوا أن في وسعها اجتياز العاصفة بلا أذى ، ان لم يكن بزيادة في القوة . ولم يكن يدخل في روع الجناح اليميني في فتح وسائر فصائل المقاومة ان الحسين كان مصمماً على سحـــق

وفي هذه الفترة من التشتت والضياع الداخلي ، كنت في طريقي الى اوروبا لاقوم بمهمة ثانوية تتعلّق باستراتيجية الجبهة الشعبية للاطاحة بالملك حسين . لكنه ، هو ومستشاروه من رجال المخابرات المركزية الاميركية ، احبطوا مساعينا في اول ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، حين قاموا بتنفيذ مخططهم البارع المعروف . فكشف الحسين عن محاولة لاغتياله وعزاها الى الجبهة الشعبية ، على امل ان يشقّ صفوف المقاومة ويزرع الفتنة بين قادتها . ونشرت الصحف العربية والاجنبية ، بكل طاعة واذعان ، التهم التي وجهها الحسين وميّزت بين الثوريين « الصادقين » الذين يريدون محاربة اسرائيل وبين الثوريين « الارهابيين » الذين يسعون الى اشعال حرب اهلية في الاردن . وانكشفت المؤامرة سريعاً ، حين حذّر الحسين العراق من التدخّل في شؤون الاردن الداخلية وناشد الدول الكبرى ، بما فيها الاتحاد السوفياتي ، بكبح جماح المتطرفين. وكان في كل هذا يلوّح بخطر التدخّل العراقي ، اذا لم يتوقف عن اطلاق النار على رجال المقاومة . ودعي مجلس الجامعة العربية الى اجتماع طارىء ، دعا فيه الى وقف القتال (في ٥ و٦ ايلول) وبعثت الى الحياة اللجنة الرباعية التي انشأها عقب اشتباكات حزيران الفائت ، لتشرف على تنفيذ اتفاق ١٠ تموز (يوليو) المعقود بين الحسين وبين المقاومة . وفي هذه الاثناء ، عجز المؤتمر الوطني الفلسطيني عن سبر غور القضية . فاكتفى بالخطب الرنانة دون ان يتخذ اي قرار حاسم . وضاق الخناق على المقاومة ، فيما ظل القادة على رفضهم القيام بعمل موحّد . وهنا اخذت الجبهة الشعبية المبادرة وقامت بتنفيذ خطتها التاريخية . فوجد اعداء الثورة انفسهم مغلوبين على امرهم في ٦ ايلول (سبتمبر) ، مما أدّى في الحال الى تضعضع سلطة الحسين ولجوء الحلفاء الاميركيين والاوروبيين الى موقع الدفاع . وصفّق الشعب العربي والفلسطيني

لمبادرتنا ، ووقف العالم مبهوراً ومرغماً على الاهتمام بفلسطين . فصارت على كل شفة ولسان مدة اسبوع . ولأول مرة في التاريخ الحديث كان الفلسطينيون على المسرح يمثلون دورهم بانفسهم . فذقنا طعم السيادة ، وقطفنا ثمار موسم الصيف ، وانتشينا بفرح استقلالنا كشعب . لكن لا أحد هنأنا على ذلك في علانية ، بل اجمعوا على التنديد بنا في كلّ مكان . لكننا لم نحفل بردة فعل عالم لا مكان فيه للفلسطينيين — عالم بنى هيكلاً لصهيون ولم يخص فلسطين بلافتة صغيرة مكتوب عليها اسمها . ولخصومنا الصهيونيين محراب في بانثيون الغرب ، اما نحن فذكرى غابرة من شأن علماء الآثار . وجلس العالم حكماً في قضية يعتبر انها قضية « لاجئين » ، فاذا بهؤلاء « اللاجئين » يصيحون : لا ، للشفقة والاحسان . لا ، للطغيان الاريحيّ . لكنهم يصيحون : نعم ، لفلسطين وللتحرر وللثورة !

وكان من نتائج اختطاف الطائرات الاميركية والبريطانية والسويسرية ان قلب الامور رأساً على عقب في حسبان العدو . فهو لم يعد قادراً على فرض شروطه لعقد الصلح . لكن ما يثير الدهشة ، حقاً ، ان دعاة « التسامح والسلام » لجأوا الى التهديد والعنف للحفاظ على « حقوق سيادتهم » . فبدأوا بالضغط على الحسين لتنفيذ ارادتهم ، ففعل . وهكذا قام بحرب الابادة التي استغرقت ١١ يوماً .

وفيما يأتي شهادة ارنولد دي بورشغريف ، محرر مجلة نيوزويك ، في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠ : « بعد ما يقارب ربع قرن من العمل الصحفي كمراسل في البلدان الاجنبية ، لا استطيع ان اتذكر شيئاً يشبه ، ولو من بعيد ، ما شاهدته في الاردن . كنت شاهد عيان في المجازر التي قامت بها القبائل الافريقية ، بعضها مع البعض الآخر ، فضلاً عن ما جرى في فيتنام من سفك دماء . لكن هذا كله لا يقاس بالخراب العمراني الذي نزل ، سواء في الحياة او الممتلكات ، بمدينة عمان » .

وحين بدا ان الحسين يخسر في البداية ، ابتدع هو وحلفاؤه الاميركيون والاسرائيليون خرافة التدخل السوري لتسهيل تدخّل

اميركا واسرائيل معاً في الاردن . والبرهان الذي قدموه ، طبعاً ، كان هجوم جيش التحرير الفلسطيني عبر الحدود السورية في ٢٠ ايلـــول (سبتمبر) وتمكنه من سحق الفرقة الاربعين الشهيرة التي هي محطّ اعتزاز الحسين وفخره . والحق ان سوريا لم تعرقل جهود جيش التحرير ، بل لعلها كانت راضية بهجومه عبر اراضيها . غير ان ذلك اعطى اميركا واسرائيل عذراً للتهديد بالتدخل في حال عدم انسحاب « القـــوات السورية » . وما من شك في ان الخطة كانت مدروسة درساً دقيقاً . فقد وصلت غولدا مائير فجأة الى واشنطون في ١٧ ايلول ، في اليوم نفسه الذي قرر الحسين ان يقضي على المقاومة . واختلى نيكسون بغولدا مائير واتفقا على متابعة مباحثاتهما في ضوء التطورات الجارية في الاردن . وفي ١٨ ايلول ، نشرت صحيفة شيكاغو صن تايمز نبأ لقاء طويل كان لهيئة تحريرها مع الرئيس نيكسون ، في الليلة الفائتة . وفي هذا اللقاء ، كما تقول الصحيفة ، تبيّن ان اميركا كانت على استعداد للتدخّـــل مباشرة في الاردن « اذا دخلت سوريا والعراق القتال ورجحتا كفة ميزان الغلبة على القوات الموالية للملك حسين » . وهكذا انكشفت اللعبة قبل يومين من الزعم بتدخل سوريا . والواقع ان نيكسون وغولدا مائير قررا ان يتدخلا . ولكي تلبس خرافة التدخل السوري ثوب الصدق ، طلب المستر روجرز وزير الخارجية الاميركية من الاتحاد السوفياتي ، في ٢٠ ايلول أن تحث سوريا على الانسحاب ، كما اذاع البيان الآتي :

« وردنا نبأ ... بأن قوة من الدبابات اخترقت حدود الاردن من سوريا في الليل واتجهت صوب الرمتا. كما انه ورد الينا نبأ ان القوات الاردنية المسلحة تقاوم هذا الغزو .

«فنحن نندد بهذا التدخل المتهور غير المسؤول من جانب سوريا في الاردن . لأن عملاً كهذا ينطوي على خطر توسيع نطاق النزاع .

«لذلك ندعو الحكومة السورية الى الاسراع في وقف تدخلها في الاردن ، ونحث جميع الدول المعنية على ان تسعى الى اقناع الحكومة السورية بضرورة سحب قواتها الغازية من الاردن » .

وهكذا كانت اميركا من الرأي القائل بأن لا حق لسوريا في التدخل بالاردن ، اما هي واسرائيل فلها هذا الحق ، نزولاً عند طلب الملك حسين . وفي اية حال ، كان بيان روجرز هذا ايذاناً بتنفيذ عملية اعادة الحسين الى عرشه ، فيما اذا سقط أو كان على وشك السقوط .

وروت وكالة انباء تايمس — بوست في ٢٩ ايلول (سبتمبر) ان فرقة جنود المظلات الاميركية رقم ٨٢ استنفرت في فورست براك ، في ٢٠ ايلول . وهذا ما اورده النبأ :

استنفر الرئيس نيكسون ١٤,٠٠٠ من جنود المظلات للهبوط في الاردن ، اذا دعت الحاجة . والمهمة هي انقاذ ٥٤ مسافراً على متن طائرة مختطفة ، بمن فيهم ٣٨ اميركياً ، فضلاً عن انقاذ ٤٠٠ اميركي مقيم في العاصمة الاردنية التي يحاصرها المتمردون .

وبالاضافة الى هؤلاء الجنود ، استنفرت السلطات الاميركية ٢٠٠٠ جندي من القوات الاميركية في المانيا ، وقطعا من الاسطول السادس في البحر الابيض المتوسط ، و١٥٠٠ جندي من البحارة على ظهر قوة بحرية ضاربة .

وهذا يعني انه بينما تكون فرقة جنود المظلات رقم ٨٢ منهمكة في عملية الانقاذ السريعة ، تكون القوات الاخرى على اهبة الاستعداد لدخول الاردن اذا لم يتمكن الملك حسين من صد المتمردين الفلسطينيين والقوات السورية والعراقية التي تساندهم .

وفي مجتمع « مفتوح » وصحافة « حرة » كما في اميركا ، لخصت وكالة انباء تايمس — بوست الخطة كما يأتي :

« تتوقف قوة استطلاعية جاهزة من مئتي رجل او ما يزيد في طريقها للتزود بالوقود — ربما في جزر الازور ، او اسبانيا ، او المانيا الغربية ، او اي مكان آخر ملائم — ثم تواصل سيرها ، فتقطع خمسة آلاف ميل بسرعة ٥٠٠ ميل في الساعة الى مطار عمان . فاذا تعذّر عليها الهبوط في المطار ، تستخدم المظلات للنزول مع جميع اسلحتها ومعداتها وتحتل المطار .

وبعد تأمين سلامة المطار ووصول مزيد من القوات المجهزة ، ليس بالرجال والسلاح فقط ، بل بالهليكبترات المحمولة على متن ناقلات ضخمة ، عندئذ يبدأ الهجوم في مدى ساعات قليلة .

وتبدأ الهليكبترات باعمال النقل الجوي ، ثم تهاجم مواقع معينة ، حيث يقيم الذين يراد انقاذهم ، كما تصدّ بنيرانها الثقيلة المهاجمين ، على الطريقة المتبعة في فيتنام ، وهي في الوقت نفسه تنزل الجنود بالمظلات لضرب نطاق دفاعي حول المكان . وخصّصت الاماكن القليلة المكشوفة في عمان ، كالحدائق مثلاً ، للهبوط » .

وللقيام بمثل هذا العمل « البارع والبطولي » ، كانت اميركا تعتمد على المخابرات الاسرائيلية وقوتها الجبارة الضاربة ، ومحبة الشعب الاردني لريتشارد نيكسون وسبيرو اغنيو وموشى ديان وغولدا مائير . وبالاضافة الى ذلك ، فان المخطط الاميركي لدعم الحسين في مركز السلطة كشفت النقاب عنه صحيفة نيويورك تايمس (١١ تشرين الاول ، اكتوبر ١٩٧٠) ، وهذه خلاصة ما ورد في الصحيفة :

« واشنطون — كانت الولايات المتحدة واسرائيل على استعداد للقيام بعمل عسكري مشترك في الازمة الاردنية الاخيرة . هذا ما تبينه المصادر الاميركية والاسرائيلية .

«وتنطوي الخطة على شن هجوم اسرائيلي على القوات السورية المصفحة التي دخلت الاردن ، فيما اذا اتضح ان جيش الملك حسين عاجز عن صدها . وفي هذه الحالة ، تستخدم اميركا اسطولها السادس وسواه من القوات العسكرية لحماية ظهر اسرائيل من هجوم مصري او سوفياتي ، مصدره منطقة قناة السويس .

«ولم توضع هذه الخطة موضع التنفيذ لان القوات السورية المصفحة ، وقد انهكتها طائرات الملك حسين المقاتلة ، بدأت بالتقهقر . وتعتقد الاوساط المطلعة هنا ان الحشد الاسرائيلي والاستنفار الاميركي ، وقد اعطيا قدراً واسعاً من الدعاية ، هما اللذان حملا السوريين والسوفيات على التزام جانب التعقل .

«وتسلم الرئيس نيكسون بنفسه زمام المساعي الديبلوماسية والعسكرية، عندما اقتربت الازمة من ذروتها.

«والعامل المشترك الذي وحد بين اميركا واسرائيل في هذه الازمة هو تصميمها على ان الملك حسين يجب ألا يسقط عن عرشه بتدخل خارجي . ذلك لانهما يفترضان أن نظام الحكم الذي يحل محله سيكون مرتبطاً بموسكو ارتباطاً وثيقاً .

«والحافز على القيام بعمل اميركي — اسرائيلي مشترك كان النداء الذي وجهه الملك حسين الى اميركا وبريطانيا ، طالباً فيه منهما النظر في مقدار المعونة العسكرية التي في امكانهما تزويده بها .

«ولعل هناك حافزاً قوياً آخر دفع الى اتخاذ اجراء سريع ، هو الشعور السائد في واشنطون ان اسرائيل قد تجد نفسها مضطرة الى ضرب القوات السورية اذا استمرت في تقدمها داخل الاراضي الاردنية لمساندة المتمردين الذين ينازعون الملك حسين سلطته .

«ثم ان هنالك عاملا نال قسطاً اكبر من الدعاية، هو القلق على حياة ٤٠٠ مواطن اميركي . و٥٤ رهينة ، بينهم ٣٨ اميركياً . كانوا في ايدي المتمردين في الاردن آنئذ » .

وكأنما هذا لم يكفِ لفضح الحسين كعميل امبريالي صهيوني ، فنشرت مجلة تايم صفحة كاملة (٢٣ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٠) تروي فيها علاقاته مع اسرائيل منذ ١٩٦٨ وتقول ان الاجتماع العاشر تم في المدة الاخيرة في مكان قريب من خليج ايلات بين الحسين وايغال آلون . نائب رئيسة وزراء اسرائيل . وفي جو من المودة ، كما تقول مجلة تايم . اخبر الحسين محدثه آلون بأن عرشه ثابت ووطيد الاركان الا ان الوقت لم يحن بعد لاجراء مباحثات من طرف عربي واحد .

على ان جوهر الموضوع ورأي المجلة فيه هو الآتي :

« ومع ذلك ، فان احدى نتائج اللقاء على الحدود هي انه من المتوقع ان تجري مفاوضات على نطاق اوسع بين مندوبين عن الدول العربية الاخرى .

«وبخصوص قضية المقاومة المسلحة، اتفق الزعيمان على ان الفدائيين مصدر ازعاج لكلا البلدين ، وان التنسيق في العمل ضرورة للقضاء عليهم . وتلقى الملك حسين وعداً بمعونة اسرائيلية في هذا السبيل .

«واتفق الحسين وآلون على توسيع نطاق العلاقات الاقتصادية . على ان الحسين ، في الوقت نفسه ، احتجّ على غولدا مائير لتصريحها في واشنطون ان قيام دولة فلسطينية لا ينطوي على اكثر من اعادة النظر في رسم حدود الاردن . واظهر الملك استعداده لاعطاء الفلسطينيين نوعاً من الاستقلال الذاتي ، لكن تحت حكمه لا كنواة لدولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة » .

ولم تكن الحرب الاهلية في الاردن حادثاً عابراً بل كانت جزءاً من استراتيجية اميركا الشاملة للرجوع بالتاريخ الى الوراء والقضاء على الحركات التحررية في كل مكان . فوقع ضحية ذلك عدد من الزعماء والحركات التحررية في العالم الثالث . وحيث انه لم يبقَ صوت مرتفع ، باستثناء فيتنام ، الا صوت فلسطين ، فمن الضرورة القصوى ان يصمت . وهكذا اندلعت حرب حزيران ١٩٦٧ التي ارادتها اميركا ان تكون المحاولة الاخيرة لاعادة « العافية والانتظام » الى العالم وانقاذ البشرية من داء الحرية والثورة . لكن هذه المحاولة فشلت مؤقتاً ، ثم فاض المد الفاشيستي مرة ثانية على العالم العربي . وليس من العسير معرفة النتائج وتقييمها .

والضحية المباشرة لهذه الحرب الفاشستية الشاملة كانت المقاومة المسلحة التي تصدعت قوتها ومكانتها وفعاليتها بتراجع الجناح اليميني في حركة فتح . ذلك ان قادته انساقوا كالقطيع الى مسلخ الحسين ، بتغاضي الانظمة العربية . وحين جرى الهجوم الاخير في تموز (يوليو) ١٩٧١ ، عقد اجتماع قمة آخر لم يسفر عنه شيء ، وزج الحسين ٢٣٠٠ فدائي في السجون وطرد ما تبقى من حركة المقاومة من منطقة عجلون ــ جرش . وبذلك زالت كل مواقع الحركة . وتهدمت مكاتبها في عمان

وفي سائر انحاء الاردن . وهكذا انقضت المرحلة الاولى من الثورة بموت الثورية التي لا عقيدة مثالية لها .

وفيما كانت اميركا تبسط نفوذها وتنشر جناحيها الفتاكين من جديد على الشرق الاوسط ، كان رفاق عبد الناصر — « الجناح السوفياتي» بقيادة علي صبري وسامي شرف — يواجهون التهمة بالخيانة العظمى ١٣ ايار (مايو) ١٩٧١ ويعزلون من مراكزهم الحساسة في اجهزة الحكم المصرية والاتحاد الاشتراكي العربي . واقترب الرئيس السادات وناصحه الامين محمد حسنين هيكل من اميركا اكثر من قبل . وعمد الرجلان ، شيئاً فشيئاً ، الى فك ارتباطهما بالاتحاد السوفياتي لاقامة التوازن في صالح « الحياد وعدم الانحياز » ، ولدمج الطبقات المتوسطة في المجتمع المصري ، ولتحسين العلاقات مع الغرب . واستمر وقف اطلاق النار ، فلم تطلق رصاصة واحدة على القناة ، بينما كانت تجري في الداخل عملية اعادة تمصير مصر العربية التي بدأت ، عن حق وحقيق ، بعد حدوث الاضطرابات .

وبعد اقل من مرور شهرين على تلك الاحداث الداخلية في مصر ، ضاعف الحسين هجماته المستمرة على الفدائيين . وانه لعار سيلحق العرب الى الابد ان يلجأ نحو مئة فدائي فلسطيني الى فلسطين المحتلة ويضعوا انفسهم تحت رحمة موشى ديان هرباً من الموت على يد الملك حسين . وفي ذلك صرح الملك باعتزاز في ١٨ تموز (يوليو) : « لا خيار لنا الا التصدي للفدائيين لانهم مصدر ازعاج للكثيرين من الناس ومن القوى المسلحة . القتال انتهى . هذا لا رجوع عنه . والآن ليس هنالك اية مشكلة ، والمساعي تجري لجمع شملها والتوصل الى حل أفضل . ونحن ، عند الحاجة ، كلنا فدائيون ضد اسرائيل » . ولما سألوه هل من اتفاق معقود مع الفدائيين ، اجاب : « زال الوقت الذي كان فيه الفدائيون يتصرفون حسب اهوائهم ، وحان الوقت الذي تقرر فيه

الدولة مناطق اقامتهم . وعليهم ايضاً ان يخضعوا لاوامر الدولة » . وبكلمة اخرى ، يريد الحسين من الحركة الفدائية ان تخدم مصالحه ومصالح الاميركيين ، وان تساعده على استعادة ما فقده من « اراضيه » وعلى تكبيل ايدي الفلسطينيين .

وفيما كانت خيانة الحسين تجري مجراها ، لمع بريق امل في فضاء الوطن العربي . ففي تموز (يوليو) ١٩٧١ ، انتزعت حركة هاشم عطا زمام السلطة من السودان واعلنت قيام اول جمهورية عمالية عربية . وفي ٢٢ تموز كشر السادات والقذافي عن انيابهما ، فسحقا هذه الجمهورية بكثير من « البطولة » واعادا النميري الى السلطة . وعلى أثر ذلك ، طورد الشيوعيون في جميع انحاء العالم العربي . ولكي يذروا الرماد في العيون ويحولوا انتباه الجماهير ، عمد السادات والقذافي والاسد الى انشاء اتحاد الجمهوريات العربية في اول ايلول (سبتمبر) ، زاعمين انه خطوة اولى في طريق « الوحدة العربية » ، بينما هو في الحقيقة اداة لحماية انظمتهم من الثورة .

وهكذا عادت الطبقات العربية الحاكمة الى المواقع التي كان يحتلها السلف عشية ١٩٤٨ : القواعد والاصول الاسلامية ، والتعاون الطبقي ، ومكافحة الشيوعية . ولعل هذه الطبقات العربية الحاكمة تؤثر اعتناق الصهيونية ، والعيش تحت نير الامبريالية الاميركية ، وتأخير مجرى تطور مجتمعاتها ، على الخضوع لارادة الجماهير ، او التنازل عن سلطتها ، او التخلي لقوى تقدمية اخرى عن قيادة الثورة . أما البرجوازية العربية الصغيرة في العالم العربي ، فاصبحت قوة تاريخية مستنفدة . فهي غير قادرة على مواجهة القضايا الاساسية كالنفط ، واسرائيل ، والفقر . وفي بيان القاه السادات في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٧١ تجلى موقفه بوضوح ، حين خصّ الجبهة الشعبية بالطعن والتقريع ، واعلن الحرب على اسرائيل خمس مرات وسحب كلامه خمساً وعشرين مرة ،

واثنى على الملك فيصل لاعتداله وحنكته السياسية . لكنه لم يشر مرة واحدة على القضاء على الفقر ، او الكفاح ضد الامبريالية ، أو تحرير فلسطين . وكان من شأن بيان السادات هذا انه اوضح بما لا يقبل الشك ان المشكلة الرئيسية ليست الامبريالية ، بل الثورة . فهو لذلك عقد حلفاً جديداً مع فيصل وعزم على ان يكون له القول الفصل في شأن الفلسطينيين ومصير العرب . ويحاول الرجلان الآن التوفيق بين فئات المقاومة « الصادقة » وبين الحسين ، حتى انهم اقنعوا اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، باستثناء الجبهة الشعبية . ففي ايلول — تشرين الاول ١٩٧١ ، قامت المقاومة بمفاوضة الملك حسين في جده ، تحت رعاية فيصل . وكشفت الجبهة الشعبية ، نزولا عند ارادة المناضلين ، عن ان اللجنة التنفيذية وافقت على المصالحة (في ٨ ايلول ١٩٧١) ونددت بالوساطة التي قام بها ممثلون عن السادات وفيصل . وبهذه الفضيحة انتهت حكاية العرب في الكر والفر على مدى ثلاث وعشرين سنة من التشرد الفلسطيني . لكن هنالك بريق امل في الافق ، وهو ان الشعب لم يعد يثق بقادته ، وان قوى المقاومة يضاعف عددها ، وان الجبهة الشعبية تغرز جذورها الى الاعماق — وهي ما تزال أمل الشعب الفلسطيني .